

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190935

UNIVERSAL
LIBRARY



تاليس

وضعها الكاتب العظيم

أمانول فرانس

(عضو الاكاديمية الفرنسية)

نقلها الى العربية

احمد الصاوي محمد

مراسل « السياسة » في باريس

(الطبعة الثانية)

جميع حقوق الطبع محفوظة لناشر الكتاب

٠٠

٠٠

عنى بنشرها

اليانيس انطون اليانيس

صاحب

المطبعة: العصرية

مختصر

ANATOLE FRANCE,

de l'Académie Française.

CHECKED 1058

THAIS

Traduction

de

AHMED SAOUI MOHAMED

Traducteur de *Le Lys Rouge*, *Aphrodite*,
etc ,

2^{me} Édition

EDITEUR

ELIAS A. ELIAS

B. P. 954,

Le Caire (Egypte)

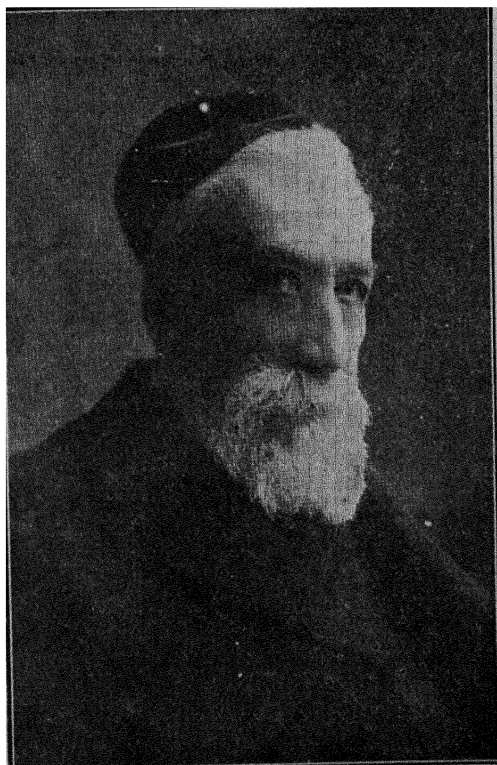
تقدمة الكتاب

من الناشر الى الجمهور

نقدّم اليوم الى الجمهور الكريم « الطبعة الثانية » من هذه القصة
المتعة ، التاريخية ، الفلسفية ، الجامعة لدعابات « اناتول فرانس »
المشهورة ، وفنه الجميل ، الذي يفتح أبواب الخيال من أقدم الأجيال
بمفتاحه السحري - القلم .

نقدّمها مغتبطين كدرة من درر الفن الخالدة ، واثقين انها
ستلقى من نفوسهم المتسامحة ارتياحاً ، ومن عقولهم الراجحة رضى وقبولاً
ونجدد العهد على بذل الجهد فى التوفيق بين أدب الشرق
والغرب ، ولغات الافرنج ولسان العرب ، قياماً بالواجب علينا نحو
النهضة الشرقية والناطقين بالضاد ما

الياس انطون الياس



﴿ أناتول فرانس ﴾

١٨٤٤ — ١٩٣٤

(صفحة من كتاب الورود الدامية)

لسمو الأمير الأديب حيدر فاضل

الى اقاتول فرانس

أفلاطون العصر ومؤلف تاييس

A ANATOLE FRANCE

(Au Platon Moderne).

Ces vers humbles et doux, à toi je les apporte
Du pays de THAIS... Daigne les recevoir.
Et pour te les offrir je me fais un devoir
De les déposer tous sur le seuil de ta porte.
O maître, ne crois point qu'un fol orgueil m'emporte,
Jusqu'à m'imaginer qu'il soit en mon pouvoir
De taquiner la Muse en caressant l'espoir
De plaire à ton regard que le génie escorte.
Non ! Je suis un rêveur... un pauvre troubadour,
Chantant le ciel, la mer, les roses et l'amour,
Respirant ta pensée et toujours vivant d'elle...
Et si j'eus le courage, avec l'ami Silvain,
D'entrer à ton foyer pour te serrer la main.
C'est que «FRANCE» à ton nom je demeure fidèle !.

** Roses Ensanglantées*

par S.A. Le Prince Haidar Fazil.

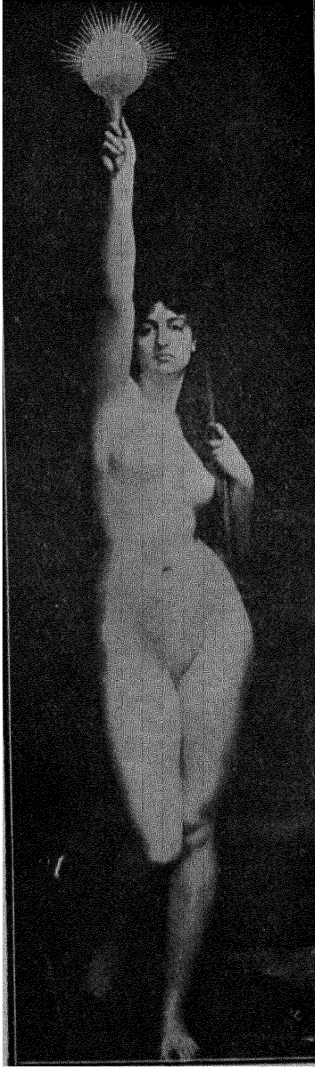
*Ut vitam habeant
et abundant.*

لكيما تكون لهم حياة موفورة

هذه هي القصة الاولى من مجموعة
الشعلة الخالدة ، نستعين بالله مبعث
النور والحياة على نقلها الى لغتنا تبعاً ،
إذكاءً للنار المقدسة في قلب
الشرق العظيم .

أقدمها الى شباب بلادي وغيرهم
من طلاب الحب والمحق والحكمة .
قصة رجل مسكين راح ضحية هذه
الدنيا الغرور ، لعلمهم يتدبرون ما فيها
من عظمات سامية ، فيسيرون في الحياة
في طريق الاخاء الروحي بأقدام ثابتة ،
متكبين رمال التعصب الخائنة ،
أوفياء للانسانية ، مخلصين للحقيقة ،
هائمين بالحكمة ، ناصرين الفضيلة
دواماً - لكيما تكون لهم حياة موفورة

أحمد الصاوي محمد



- اللوتس



كانت الصحراء في ذلك الزمان يسكنها النساك في اكواخ
لا تحصى ، بنوها من الأغصان والصلصال ، وهي تمتد على شاطئ النيل
متجاورة منشورة بحيث توافر لساكنيها الغايتان : العزلة ، والمؤازرة
لدى الحاجة . وبرزت الكنائس هنا وهناك بين الاكواخ عليها شارة

الصليب يقصدها الرهبان ايام العيد لأقامة الشعائر والمشاركة في التبرك بالاسرار الدينية . وكان على ضفة النهر اديار آهلة بالرهبان وكلهم قابع في كسر صومعته الضيقة لا يتدانون الا ليزوقوا طعم الوحدة . وعاش الرهبان المتبتلون والعاكفون في زهد وتقشف ، وكانوا يصومون حتى غروب الشمس ثم يتباغون بقليل من الخبز والملح . وطمر بعضهم انفسهم في الرمال متخذين الكهوف او المقابر مساكن كانت غاية في العرلة والانتقطاع .

أخذوا جميعاً بأسباب التقشف ، فارتدوا ملابس من وبر الابل وكانوا بعد طول التهجد يفترشون الأرض ، ويصلون وينشدون المزامير . وقصارى القول أن هؤلاء الزهاد كانوا في كل يوم يزاولون ضروب الصلاح والتقوى جميعاً . ولما كانوا يتأملون في هول الخطيئة الأصلية ^(١) كانوا يحرمون أبدانهم كل متاع ولذة حتى العناية البسيطة التي لا غنى عنها وفاق رأي عهدهم ، وذلك اعتقاداً منهم ان أمراض البدن تطهر الروح وان أشرف حلية للجسم هي

(١) يطلق المسيحيون هذا الوصف على خطيئة آدم وحواء إذ عصيا ربهما بأكلهما الثمرة المحرمة فطردا بسببها من الجنة وتعرضا لها وسلاتهما لعذاب الدنيا والآخرة . ويعتقدون ان السيد المسيح قد نزل ليحو أثر هذه الخطيئة ويخلص البشر ويفتح لهم من جديد ابواب الجنة . (المترجم)

البشور والقروح . وهكذا صدقت فيهم كلمة الأنبياء : « يتهيج القفر
ويزهى » ...

وكان بعض نزلاء « طيبة » المقدسة يقضون أوقاتهم في التنسك
والتصوف بينما يسعى غيرهم في تحصيل معاشهم بضفر ألياف النخيل
وخدمة الزراع المجاورين في اثناء الحصاد بأجر معلوم . أما الخوارج
فكانوا يتهمون بعض الرهبان زوراً بأنهم يعيشون من قطع الطرق
ومداخلة البدو الرحل نهبه القوافل . ولكن الحق ان هؤلاء الرهبان
كلوا يحتمرون المال والثراء ، وكانت رائحة فضائهم الزكية تتصاعد
الى عنان السماء ...

وكان الملائكة يقدون على هيئة فتیان لزيارة الصوامع وبأيديهم
عصيهم كالسائحین . في حين يتخذ الشياطين أشكال الأحابش او
الحيوان ويجولون بين النساء ليضلوهن . وكان الرهبان عندما
يذهبون في الصباح ليملاؤا من النبع اباريقهم يرون آثار أقدام
الشياطين على الرمال ... وكان المتأمل بعين العقل في حال « طيبة »
الروحية يراها في كل وقت ، وبخاصة في الليل ، ميداناً للقتال بين
النعم والجحيم ...

ولما كانت جيوش الشياطين تهاجم الزاهدين هجوماً عنيفاً ،

كان هؤلاء يدافعون عن أنفسهم بأسلحة الصوم والتقوى والتقشف مستعينين بالله وملائكته... وكانت شهواتهم البدنية تقسو عليهم أحياناً فتخزهم وخزاً يمزق أحشاءهم، فتجاوب تحت قبة السماء ذات الكواكب صيحاتهم المزعجة وعواء الضباع الجائعة!.... وعند ذلك كانت الشياطين تبدو لهم في صور فتاة تحول دون معرفة حقيقة أمرهم. فيجزع رهبان طيبة إذ يروا في صوامعهم مشاهد التمتع غير المعروفة حتى عند معاصريهم المترفين المتهتكين. ولكن لما كان الصليب يعلو صوامعهم فأنهم كانوا بنجوة من الغواية. فتتخذ الشياطين النجسة أشكالها الحقيقية وتبتعد في آخر الليل في خجل وغيظ. وكان يحدث أن يرى أحدهم في مطلع الفجر باكياً منتحباً يجب كل من يسأله بقوله: « انني ابكي لأن مسيحياً ممن يسكنون هنا قد ضربني بهراوته وردني مفضوحاً »!...

أما شيوخ الصحراء فقد مدوا سلطانهم على الآثمين والجاحدين وكان صلاحهم في بعض الأحيان صلاحاً مروعاً. فقد أخذوا عن الرسل سلطة معاقبة عصيان الله الحق. وما من يد كانت فوق أيديهم بحيث تنفذ من يصدر حكمهم عليهم. وتناقل الناس حتى في مدينة الاسكندرية أن الارض تنشق لتبتلع الاشرار الذين تمسهم عصي هؤلاء الشيوخ الزاهدين!... ولهذا كانوا مرهوبي الجانب يخاف بأسهم كل

الذين يحيون حياة الانس ولا سيما أهل المساخر والمراقص ، والقساوسة
المتزوجون ، وربات الخلاعة !

وقد ظهرت فضيلتهم وإمتد نفوذها حتى ذلت لها الوحوش .
فكان إذا دنا أجل احدهم أقبل أسد وخطله بمخالبه مضجعاً فيعرف
القديس بهذا أن الله قد دعاهُ اليه فيتجه نحو اخوانه ويقبلهم قبلة الوداع
ثم يرقد بانسراح لينام في حضن ربه

ومنذ صعد « انطوان » الى قمة جبل كازين بعد أن أربت سنه
على المائة مصطحباً أحب مريديه اليه وهما « مقار واماتاس » لم يبق
في طيبة كلها راهب أبرّ وأصلح من « بافنوس » كاهن بلدة أنصينا (١)

حقاً كان افرام وسرابيون يَحْتَكِمَان في كثيرين من الرهبان
وكانا متفوقين في خططهما الروحانية والزمنية وفي ادارة مناسكهما .
أما بافنوس فكان يراعي أقصى أنظمة الصوم فيقضي ثلاثة أيام
بلياها لا يدوق طعاماً، وكان يرتدي عباءة من الصوف الحشن ، ويجلد
نفسه صباح مساء ، وطالما انبطح على الارض ممرغاً جبهته في التراب !

أما تلاميذه الاربعة والعشرون فبعد أن بنوا اكواخهم على
مقربة من كوخه اقتدوا به في تقشفه فأحبهم في يسوع المسيح حباً

(١) قامت على اطلال مدينة انصينا بلدة الشيخ عبادة المعروفة بالصعيد

جماً . وكان يحضهم دائماً على التقوى . وكان من أبنائه الروحيين رجال قضوا سنين طويلة في قطع الطرق ، لكن وعظ هذا الأب الصالح هداهم سواء السبيل فدخلوا في سلك الرهينة . وكانت طهارة عيشهم مما يشرف رفقائهم ، ومنهم طاهي ملكة الحبشة الذي صار بعد أن هداه « كاهن أنصينا » يذرف الدموع بلا انقطاع ! ومنهم أيضاً الواعظ فلاقيان ، وهو رجل عالم بضروب الكتابة وخطيب قدير . على أن أعجب تلاميذ بافنوس كان فلاحاً صغيراً يدعى بولس ، ولقب بالساذج لسلامة نيته التي لا حد لها . ولشد ما ضحك الناس من سذاجته . لكن الله شرّفه بأن بعث له بالرؤى الصادقة وأتم عليه نعمة النبوة .

وقف بافنوس حياته على تهذيب أتباعه وثقافتهم ومزاولة العبادة والبحث والتنقيب في تضاعيف الكتب المقدسة يقتبس منها المواعظ والامثال . فكان على حداثة سنه موفور الحظ من الفضيلة ، فلم تكن الشياطين التي هاجمت الرهبان تلك المهاجمة العنيفة لتجروا على الدنو منه . واعتاد أن يجلس في الليل في ضوء القمر سبعة من جرائه^(١) بنات أقوى منصته أمام صومعته بلاء الهدوء والسكون . وقيل ، بل تلك سبعة من الجن كان قد استبقاها ببابه لا تتعدى عتبة بقوة قداسه !



وُلِدَ بافنوس في مدينة الإسكندرية من أبوين نبيلين وتأدب بأدب الدنيا ، ولشد ما أضلته أكاذيب الشعراء ! وكانت تلك الأكاذيب مغالطة لعقله مشوشة لأفكاره في ريق صباه . حتى أنه صدق أن طوفاناً قد أغرق الجنس البشري كله في عهد ديوقليس ! وجادل رفاقه في الدرس في طبيعة الله ، وصفاته ، ووجوده . ثم استرسل في الخلاعة ، وكانت تلك بدعة الخارجين على الدين . وكان لا يذكر ذلك العهد من حياته إلا بنجمل واشمئزاز .

واعتاد في تلك الأيام أن يقول لأخوانه : « لقد غليت في مرجل اللذات الكاذبة ! »

يريد بذلك انه أكل اللحم المطبوخ جيداً ، واختاف الى الحمامات العامة !

ودرج على سنن الحياة في عصره حتى بلغ العشرين ، وهذه المدة أجدر أن تسمى بالموت منها بالحياة . ولكنه بعد أن تهذب على يدي الكاهن « ماكرين » خلُق خلقاً آخر وعاد رجلاً جديداً وكذلك تغفل الحق فيه وفقد في روحه - كما كان يقول -

كالجسام ! فاعتنق عقيدة الصليب وعبد المسيح المطلوب . وبقي سنة أخرى بعد تعميده ، بين الخوارج مقيداً بسلاسل العادة .

ففي ذات يوم سمع واعظاً في كنيسة يقرأ من الكتاب المقدس آية مؤداها: « اذا شئت أن تكون كاملاً فاذهب وبع ماتمك واعط الفقراء ثمنه » فباع من فوره متاعه وأنفق ثمنه في وجوه البر والاحسان وانخرط في سلك الرهبنة .

وفي العشر سنين التي قضها بعيداً عن البشر لم يغفل في قزان الشهوات الجثمانية بل استفاد بمعالجة نفسه ببائس التقشف .

وحدث يوماً أن فكر كماداته في ما مضى من حياته بعيداً عن الله ، وعرض خطاياہ الواحدة تلو الاخرى ليدرك شناعتهما ، فذكر انه رأى منذ بضع سنين في ملعب الاسكندرية مثله ساحرة



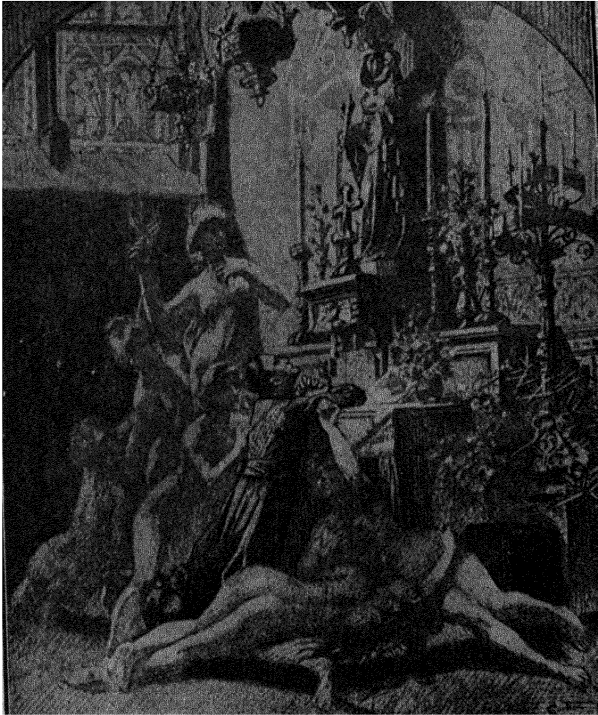
الجمال تدعى « تاييس » . كانت تمثل في الالعب أدواراً شتى . ولم تكن تتخرج من رقص يثير في النفس بحركاته أقوى الشهوات ويعرض نفس الراي لأشنع الرغبات ، وتبدو في مشاهد مخجلة ، مما ألصقه الكافرون بالزهرة ولیدا وپاسقيه . فكانت تشعل نيران الشهوة في جميع

المشاهدين . وكان يختلف اليها الشبان المدلهون والشيوخ الاغنياء
المغمرون ، يعاقون أكاليل الزهر بياها ، فكانت ترحّب بهم وتليهم
منها ما يشتهون . فأضاعت بضياع نفسها نفوساً أخرى عديدة .
وكان بافنوس نفسه من المعجبين بها . فقد أضمرت نار الصباة
في قلبه ، وأشعلت لهيب الشوق في نفسه . فاقترب ذات مرة من
بيتها لكنه وقف بالباب وصدته الجبانة واحتجزه التهيب الفطري في
الشباب الغضّ (كان في الخامسة عشرة من عمره) وكان تخرجه
كذلك خشية أن يُزجر لخلو ذات يده ، إذ كان أبواه يأبيان عليه
البذل الكثير . ومن رحمة الله أن قيض له ذلك استنقاذاً له من
وزر كبير . بيد أن بافنوس لم يحمده تعالى لانه كان في حينها لا
يستطيع أن يميز بين ما ينفعه وما يضره ، وكانت نزعاته باطلة .



أما وقد ركم بافنوس في صومعته أمام صورة ذلك الصايب
المقدس المعلق عليه « فدية العالم » فقد بدأ يحلم بتاييس التي كانت
معصيته ، وقد فكّر طويلاً ، بحسب الطقوس الدينية ، في قبح الملاذ
الدنسة المروّعة ، تلك اللذات التي أوحثها اليه هذه المرأة في أيام
التخبط والجهل . وبعد تفكير عدة ساعات تراءت له صورة تاييس
بجلاء تام ، فراها ثانية جميلة الجسد كما كانت حين نصبت له
حبائل الغواية ، فظهرت له أولاً مثل « ليدا » راقدة فوق مضجع
(٢ — تاييس)

من حجر يمان ، ناكسة الرأس ، مغرورة العينين المملوتين
نوراً ، باسمه ترتجف شفتاها ، وثدياها كزهرتين . وزنداها كجدولين ،
فضرب بافتوس صدره عندئذٍ وقال :



- أَدْعُوكَ رَبِّي لِتَشْهَدَ عَلَيَّ شَعُورِي بِشِنَاعَةِ خَطِيئَتِي !
ثم غيّرت الصورة شيئاً فشيئاً ملاحظتها . اذ زاد ابتسام ثغرها
فافتقر عن ألم خفي وامتلات عيناها النجلاوان دموعاً ونوراً . وجعل
صدرها يعلو وينخفض بالتهنيدات وهي تزفر زفيراً يشبه أول هبوب
العاصفة . فاضطرب بافئوس لهذا المنظر اضطراباً شديداً أثر في صميم
قلبه ، وخرّ ساجداً رافعاً هذه الضراعة :

- أنت يا من أشربت قلوبنا رحمةً مثلما أشربت الرياض
ندى الصباح ! أيها الإله العادل الرحيم ! تباركت وتعاليت ! انزع
من قلب عبدك هذا الحنان الباطل الذي يؤدي إلى الشهوة ،
وأورعني ألا أحب مخلوقاتك إلا فيك وحدك ، لأنها تفتني جميعاً ،
وأنت وحدك الحي القيوم . فإذا كنت قد عنيت بهذه المرأة فذلك
لأنها صنع يديك وإن الملائكة أنفسهم ليتوجهون إليها بعناية واهتمام .
ألم تكن يا إلهي نفحة من روحك ؟ إن عليها أن تضع حداً لما ترتكبه
من الخطايا مع أهل البلاد والغرباء . لقد انبعث في قلبي شعور عطف
زائد نحوها ، إن ذنوبها لفظيعة ، وإن مجرد التفكير فيها يروعني
إلى حد أن شعر رأسي يقف رعباً . سيبقى اشفاقي عليها عظيماً كذنوبها
وكما ازدادت طفئاناً زدت حناناً . انني أبكي حين أفكر في أن
الزبانية سوف يعذبونها في نار جهنم ، التي كلما خبت زادوها سعيراً
وإنه لكذلك اذ رأى ابن آوى صغيراً مقعياً عند قدميه ،

فأدهشه ذلك كثيراً لأن باب صومعته كان موصداً منذ الصباح .
ولاح على الحيوان أنه قرأ ما جال بخاطر الكاهن فحرك ذنبه
كالكلب ، فرسم بافنوس علامة الصليب فاختنى الحيوان . وهناك
علم بأن الشيطان قد دخل حجرته للمرة الأولى ، فصلى صلاة قصيرة
ثم عاد ففكر في تاييس وقال .

— يجب أن أنقذها بعون الله !

ثم نام .



في صبيحة اليوم التالي ، بعد الصلاة ، زار القديس « پالمون »
الذى كان يعيش في دار قريبة عيشة الترهّب والزهد ، فألفاه هادئاً
مطمئناً ضاحكاً مستبشراً يفلح حديقته كمادته . وكان پالمون شبحاً
هرماً له حديقة تنتابها الوحوش الضارية تلحس يديه ، ولم تقربه
قط الشياطين . فقال پالمون وهو مستند الى فأسه .

— حمداً لله يا أخي بافنوس !

فاجاب بافنوس

الحمد لله ، والسلام عليك يا أخي !

فرد عليه الراهب پالمون بقوله

— وعليك السلام يا أخي بافنوس !

ثم مسح عرق جبينه بكفه

- أي أخي بالمون . ليكون موضوع حديثنا حمد الآله الحي ،
الذي وعد بأن يكون بين الذين يجتمعون باسمه ، هذا هو غرضي
من المجيء ، لأحدثك عن خطة لتمجيد الرب .

- بارك الله في خطتك يا بافنوس مثلما بارك في خسي ! فهو
في كل صباح يسبغ عليّ نعماءه بسكب الندى على حديثي ، وإن
رحمته لتدعوني أن أسبح بحمده على ما يمنحني من القاء والقرع .
دعنا نضرع اليه أن يكلأنا برعايته وينزل على قلبينا السلام ! فليس
ثمّ ما يخيف أكثر من المشاعر التي تتعب القلوب فلا يلبث المفتونون
بها أن يكونوا كالسكارى يترنحون يميناً وشمالاً وهم على وشك السقوط
المزري في هوة الشقاء . لقد تعمّرنا هذه الانفعالات بفرح مفرط ،
والذي ينهمك في هذه الغوايات يكون هزأةً تضحك منه البهائم
ضحكاً يتردد عالياً في أجواز الفضاء . ولكن قد تطرحنا فتن الروح
والحواس في كآبة مضيئة ، وهذه أشأم ألف مرة من الفرح . أي
أخي بافنوس ، لستُ إلا خاطئاً تعساً ، ولكنني وجدت في أثناء
حياتي الطويلة أن ما من عدو أعدى للراهب من الكآبة . أعني
الكآبة المستعصية التي تغشى الروح كالضباب وتمحجج نور الله .
وما من شيء مثلها ينافي الراحة والسلام ، وإن أعظم نصرة للشيطان

أن ينفث الزيف والنزعات السوداوية في قلب رجل متدين . فلو أنه بعث لنا التجارب والغوايات في سياق الفرح والمسرّة لما كان مخوفاً نصف هذا الخوف . وأسفاه ! إنه بارع في إبلامنا ، متفنن في تعذيبنا . أو لم يظهر لأبينا « أنطوان » طفلاً أسود جليلاً الى حد أن رؤيته استدرفت دموعه ؟ على أن أبانا نجا بمعونة الله من الوقوع في حبال الشيطان . وانني لأعرفه مدى الزمن الذي قضاه بيننا طروباً منشرح الصدر مع تلاميذه ولم يك قط كئيلاً . لكن ألم تأت يا أخي لتحدث عن خطة هياتها في نفسك ؟ إن اطلعك إياي عليها فضل منك متى كانت لتمجيده تعالى .

— أخي بالمون ، إنني راغب حقيقة في تمجيد الله ، فاشدد أزرى بمشورتك ، فأنت عالم مستنير لم يحجب الاثم قط نور فطنتك !
— يا أخي بافنوس ، إنني لست جديراً بأن أحلّ شراك نعلك !
فان آثامي كرمال الصحراء لا تحصى ولا تُعدّ ، غير أنّي بلغت من الكبر عتياً فلن أرفض أن أكون عوناً لك بتجاربي .

— اذاً سألقى اليك همومي وأحزاني يا أخي بالمون ، فاني ليحزنني التفكير في أن هناك بمدينة الاسكندرية غانية تدعى تاييس تعيش في الخطيئة ويلاتاً على الناس ومذلة لهم .

— يا أخي بافنوس إن هذا في الحقيقة لرجس محزن ، وإن

النساء اللواتي يحمين هذه الحياة بين الوثنيين لكثيرات ، فهل فكرت في علاج لهذا الداء ؟

— سأذهب يا أخي بالمون في طلب هذه المرأة بالاسكندرية وسأهديها الى الحق بعون الله . هذه هي خطتي ، فهل تقرني عليها يا أخي ؟

— لست سوى آثم منكود يا أخي بافنوس . لكن أبانا أنطوان اعتاد أن يقول : « حيثما كنتم لا تتسرع بمغادرة مكانك الى مكان سواه »

— أترى يا أخي بالمون خطأ ما في مساعي الذي اعتمدت ؟
— يا بافنوس الوديع ، أعاذني الله من اتهام مقاصدك يا أخي !
لكن أبانا أنطوان قال أيضاً « كما أن السمك الذي يوضع فوق أرض جافة يموت ، كذلك يضل النساء الذين يغادرون صوامعهم ويختلطون بالعالم فيبتعدون عن طريق الخير »

وبعد هذا القول نكت الشيخ بالمون الأرض بمعوله ، وبدأ يحفر التربة حول شجرة تفاح مثقلة بثمارها . وبينما كان يحفر قفزت وعلة متخطية سياج الحديقة عائنة بالاوراق ووقفت في دهش بلا حراك ، مرتعدة المأبض ، ثم بلغت الشيخ الهرم بوثبتين وغطت رأسها البديع في حجر صديقها . فقال بالمون :

— أسبح بحمد الله في غزاة الصحراء !
ثم مضى الى كوخه يتبعه الحيوان الرشيق فأحضر خبزاً اسود
أكلته الغزالة من راحته .

ولبث بافئوس شاخصاً ببصره الى حجارة الطريق ، ثم قفل
راجعاً ببطء الى صومعته يفكر بعناية فيما سمع وقال ، وقد تنازعت
ذهنه الافكار :

— لعمري أن هذا الزاهد نافذ الرأي بصير ، وانه لحصيف
حذور ، فقد ارتاب في صواب فكري ، غير أنه من القسوة أن اتخلى
بعد الآن عن تاييس للشياطين الذين يحظون بها . اللهم اهْدني
سواء السبيل وهبي لي من أمري رَشْداً .

وبينا كان في طريقه رأي كيرواناً واقعاً في شباك نصبها صياد
على الرمال ، وأدرك أن الطائر أنثى . لأن الذكر أقبل محلقاً حول
الشبكة وقطع عيونها واحدة بعد واحدة بمنقاره الى ان أحدث فتحة
كافية لخروج رفيقته ونجاتها . فتأمل رجل الله هذا المظر ، ولكونه
يستطيع ، بفضل ايمانه وتقواه ، قراءة خفايا الاشياء ، تمثل له أن الطائر
الأسير تاييس ، واقعة في حبال الرذائل ، وعلى ذلك - طبقاً لمثل
الكيروان الذي قطع عيون الشبك بمنقاره - يجب أن يقطع بالاقوال
المؤثرة البليغة القيود الخفية التي تربط تاييس بالكبائر . ولهذا حمد

الله وثبت على تصميمه الاول . ولكنه عند مارأى الكبروان واقعا هو نفسه ، منشبا اظفاره في الشبك الذي قطعه ، عاد ثانية الى تردده وارتيابه .

فبات مسهدا أرقا لم يذق طعم النوم سواد ليله ، ورأى عند الفجر رؤيا . ظهرت له تاييس مرة أخرى . لم تبد على وجهها أية علامة للأهواء الضالة أو الملاذ التي يمازجها الاثم ، ولا كانت مرتدية كماداتها شغوفها المهلهلة ، بل كانت في برودة تغطيها كلها وتحجب بعض وجهها بحيث لم يستطع الراهب أن يرى سوى عينين تفيضان بالدموع السخينة البيضاء .

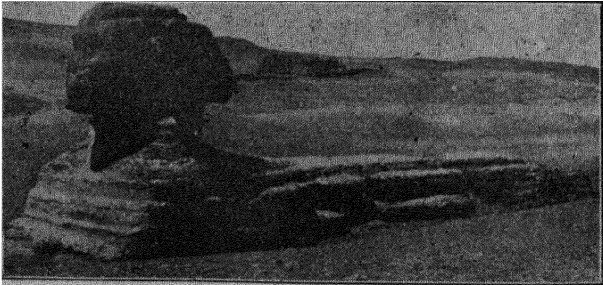
بدأ يبكي لرؤية هذا المشهد ويعول أعوالا . وجرى في ظنه أن هذا الحلم وحي من عند الله ، فطلق التردد ، ونهض لساعته وتناول عصما معقدة ، هي رمز العقيدة المسيحية ، وغادر صومعته . وأغلق الباب بعناية حتى لا تدنس الحيوانات التي تعيش فوق الرمال أو الطيور التي تحلق في الفضاء ، الكتاب المقدس الذي حفظه في رأس مضجعه ! ودعا الشمس فلاقيا ن ليستودعه تلاميذه الثلاثة والعشرين . واكتفى بوضع عباءة طويلة من الوبر ، وسار والنيل قاصدا أن يمشي محاذيا الشاطيء اللبي حتى المدينة التي أسسها أسكندر المقدوني . وبدأ السير عند انبثاق الفجر فوق الرمال مستهينا

بالتعب والجوع والعطش ، وكانت الشمس تحت الافق حين رأى
النهر الرهيب زاهر الموج مخضوباً بالدماء بين صخور الذهب والنيران .
سار على الشاطئ مستعطياً بالحبز لوجه الله عند ابواب الاكواخ
المنفردة ، متلقياً الانتهاز بابتهاج ، غير خائف من اللصوص ولا
الوحوش الضارية ، ولكنه توخي أن يتنكب القرى والأمصار التي
في طريقه . فقد كان يخشى أن يلتقي الأولاد يلعبون أمام منازل
آبائهم بالكعاب ، أو يرى الصبايا في جلايب زرقا ، يملأن جراحهن
مبتسمات . فكل هذه أسياء خطيرة على الناسك تركبه الفرر ؟
بل كان يتهيب أحيانا أن يقرأ في الكتاب المقدس أن « معلم
اللاهوت ^(١) » ذهب من مدينة الى مدينة وتعشي مع تلاميذه !
فالفضائل التي يطرزها الرهبان بعناية على نسيج ايمانهم ، سرية
التف بقدر ما هي بديعة ، فإن نسمة من نسيمات الحياة العادية
قد تقتم الوانها الزاهية . ولهذا امتنع بافئوس عن دخول المدن خشية
افتتان يصيب القلب ، او خور يلمُّ بالنفس من جرّاء مرأى البشر .
فانطلق يضرب في الطرق الموحشة ، وكلما أمسى فداعب النسيم
شجر التمر الهندي ، ارتجف فأسدل غطاء رأسه على عينيه حتى لا
يشاهد جمال الكائنات !

(١) ذو السيد المسيح عليه السلام

وبعد مسير ستة أيام وصل الى مكان يدعى « سيلسليه »
حيث يجري الهر في واد ضيق تحده من جانبيه جبال الجرانيت ،
هناك نحت المصريون أوثانهم ، أيام كانوا يعبدون الأبالسة .
فوجد بافنوس رأساً هائلاً لا يبي هول لا يزال قائماً بين الصخور .
فخوفاً من أن يكون ابليس قد نفخ فيه من روحه الشيطانية ، رسم
علامة الصليب وفاه باسم يسوع ، فطار للحال خفاش من إحدى
اذني الصنم ، فعلم بافنوس انه قد طرد روح الشر التي سكنت التمثال
عدة أجيال ! فازدادت حماسه ورفع حجراً ضخماً قذفه في وجه
التمثال ، فاستبان إذ ذاك في تقاطيعه كآبة حركت في نفس بافنوس
عامل الحنان والشفقة . والواقع أن صورة الحزن البادية على هذا
الوجه الحجري كانت كفيلة بأن تؤثر في أقسى الناس قلوباً وأغلظهم
أكباداً وأشدهم جموداً

من أجل هذا خاطب بافنوس أبا الهول بقوله :



— أيها الوحش ! اتبع مثال الجياد والمعز الآدمية التي رآها
 أبونا انطوان في الصحراء ، واعترف بألوهية يسوع ، لكيما أباركك
 باسم الآب والابن والروح القدس !
 ولما فاه بذلك سطعت عيننا أبي الهول بضوء وردي ، وارتعشت
 جفون الاسد الغليظة ، وباحت الشفتان الصوتانيتان بتأوه - كصدى
 صوت إنسان - باسم يسوع المسيح .. وعندها مدَّ بافنوس يده
 اليمنى وبارك أباهول سيلسيلييه !



استأنف سفره بعد ذلك ، وانفسح الوادي أمامه فرأى أطلال
 مدينة عظيمة لا تزال المعابد باقية فيها ، تسندها الاصنام بدل العمدة
 وقد القت هذه الاصنام نظرات طويلة ثابتة على بافنوس امتنع لها
 واضطرب ! وهكذا سار سبعة عشر يوماً ، كان غذاؤه الوحيد فيها
 بعض الاعشاب والثمار يأكلها فجأة غير ناضجة . وكان يقضي ليله
 في خرائب القصور مع قطط برية وجرذان فرعونية ، وخلائق
 لها صدور اثوية واعطاف مائية كأنها عرائس بحرية . لكن
 بافنوس أدرك انها خرجت اليه من الجحيم فأقصاها برسم علامة
 الصليب على وجهه !!

وفي اليوم الثامن عشر رأى كوخاً حقيراً بعيداً عن القرى مصنوعاً
 من سعف النخيل ، مطموراً الى نصفه في الرمال التي سقتها رياح

البادية . فجاءه أملاً أن يجده مأهولاً ببعض المتسكين الصالحين .
ولم يكن له باب فرأى فيه جرة وركام بصل وفراشاً من الهشيم ،
فقال في نفسه :

— هذا متاع ناسك ، والزاهدون لا يبعدون كثيراً عن
أكواخهم ، فلا ألبث أن اتقى الرجل وأرى أن أهب له قبلة السلام
مقتدياً بالقدّيس المتنّسك « انطوان » الذي عانق « بولس الزاهد »
ثلاث مرات وهو مارّ به !! سوف ننكلم في الابديات ، وربما انزل
الله علينا خبزاً بواسطة غراب فيتفضّل بدعوتي لتناول شيء منه !

ثم دار حول الكوخ معللاً نفسه بهذا الامر باحثاً عن الناسك .
ولم يسر الا قليلاً حتى رأى رجلاً متربّعاً على ضفة النيل . وكان
الرجل عارياً ، وشعر رأسه ناصع البياض كلحيته ، وكان لون جسده
شديد الحمرة كاللون الآجرّ ، فلم يشك بافئوس في انه هو الناسك ،
وحياه بتحية الرهبان المعتادة عند اللقاء :

— السلام لك يا اخي ! أمتعك الله بلذات النعيم المقيم !
فلم يجب الرجل ولبث بلا حراك كأنه لم يسمع ، فظن بافئوس
أن سكوته ناشئ عن حالة الانجذاب الذي اعتاده القديسون ،
فركع بجاذب الرجل المجهول ، مشبك الأنامل ، وظلّ هكذا يصلي
حتى الغروب . ولما رأى أن رفيقه لم يحرك ساكناً قال :

— اذا كنت قد فرغت يا أبتِ من حالة التحلي التي اراك

فيها ، فباركني باسم سيدنا المسيح !

فأجابه الرجل دون أن يلتفت اليه :

— أيها الغريب ! لا علم لي بما تعنيه ، ولا اعرف هذا السيد

المسيح !

فصاح بافنوس :

— يا سبحان الله ! اتجهل من أنبأت به الانبياء ، واعترفت باسمه

الرسل والشهداء ، وعنده قيصر نفسه ؟ ومنذ وقت قصير أنطقتُ

أبا الهول بتمجيده ، أفيمكن انك لا تعرفه ؟

— نعم يا صاحبي هذا ممكن ! وقد يكون يقيناً اذا كان في

الدنيا يقين

• فدهش بافنوس ورثي لشدة جهل هذا الرجل وقال له :

— ادا لم تكن تعرف السيد المسيح فمظاهر تقواك لا تجديك

فتيلاً ، ولن تنال الحياة الابدية .

فأجابه الشيخ الهرم :

— عبثاً يأملُ المرء ، سواه سعى او لم يسع ! وسيان عندي

الحياة والموت !

— واعجبا ! أترغب عن الحياة الخالدة ؟ ألست تسكن صومعة

في هذا القفر مقتدياً بالزاهدين

— في الظاهر !

— ألا تعيش عارياً محروماً كل شيء ؟

— في الظاهر !

— ألسنت تتغذى بالجذور ؟ الست متعلقاً بأهداب العفة ؟

— في الظاهر !

— أو لم تنبذ لذات العالم ؟

— الحقّ اني زهدت فيها لأنني رأيتها شغل الناس الشاغل !

— اذن انت مثلي في الزهد والتمشّف والطهر ولكنك ، لست

مثلي في محبة الله وطلب سعادة السماء . فلماذا تترك بالفضيلة اذا لم تكن تؤمن بالمسيح ؟ لماذا تحرم نفسك متاع الدنيا اذا لم تكن تطمع في نعيم الآخرة ؟

— أيها الغريب ! أنفي لا احرم نفسي ، ويسرني اني اهدت

الى عيشة راضية ، وان كانت الحياة خلواً من الطيب والردي . جميعاً .

الحقّ ان الحياة ليس فيها شيء مما يقال له شرف وعار ، وعدل

وظلم ، ولذة وألم ، وحسن وسوء . ولكنّ الناس خصوا هذه الاشياء

بأوصافها كما يعطي الملح للطعام مذاقاً خاصاً .

— ففي رأيك إذاً ان ليس ثمة يقين ؟ انك تنكر الحقيقة التي نشدها الوثنيون أنفسهم . انك غارق في جهالتك كما يفرق الكلب المضنى من التعب في الوحل !

— أيها الغريب ! لا فائدة من سبّك الكلاب والحكماء ! إننا لا ندرى ماهية الكلاب ونجهل ماهية أنفسنا . ولسنا ندرى شيئاً . . .
— أنراك إلى جماعة اللادريين تنسب ؟ أنت إذاً أحد اولئك البائسين المعتوهين ، الذين ينكرون الحركة والسكون معاً ، ولا يميزون بين نور الشمس الساطع وظلام الليل الخالك ؟

— أجل اني « لا أدري » يا صاحبي ، وأنسب الى طائفة ، اذا كانت في رأيك مدعاة للسخرية . فهي في رأيي حذيرة بالاعتبار . لان الاشياء نفسها لها مظاهر عديدة . فاهرام منفيس تبدو في مطلع الفجر مخاريط من ضياء وردي ، لكنها تلوح عند غروب الشمس مثلثات حالكة السواد في السماء المتقدة كشعلة من نار . فمن ذا الذي يستطيع أن يسبر غورها ويدرك كنهها ، أنت تعبرني إنكار الظواهر والظواهر هي وحدها الحقائق التي أسلم بها . تدولي الشمس منيرة ، ولكن طبيعتها خافية علي وأرى النيران تشتعل ، لكنني لا أعرف كيف ولِم . انك عاجز عن إدراك فكري ، ولكن هذا لا يهمني !
— أسألك ثانية لماذا تعيش مكنتفياً بالبلح والبصل في البادية ؟

لماذا تقاسي شظف العيش والحرمان ؟ إنني أتحمل مثل هذه الشدائد وألقى ماتلقى ، ولكنني أفعل هذا إرضاءً لله تعالى لكيما أستأهل في الوحدة السعادة الأبدية ! فمن المعقول أن يتعذب المرء لقاء أجر كبير ، ولكن من الجنون أن يعاني الانسان بمحض ارادته مشقات لا فائدة منها . فلو لم أكن مؤمناً — غفرانك لهذا التجديف أيها النور الذي لم يولد — فلو لم أكن مؤمناً بحقيقة تعاليم الله بلسان أنبيائه وبيئته ابنه ، وأعمال رسله ، وأحكام المجامع ، وشهادة الشهداء المحتومة بدمائهم ولو لم أعلم ان تعذيب الجسد واجب لتطهير النفس ، او كنت مثلك أجهل أسرار الدين ، لعدتُ تَوًّا الى العالم وسعيت لاحراز الغنى لا عيش في ترف ورفاهية كالسعداء فيه ، ثم أصبح في اللذات قائلاً : هلم يا بناتي ! هلم يا خوادني ! تعالين جميعاً واسكنن خمروركن ورحيق غرامكن وعطوركن . — ولكنك أيها الشيخ المأفون تمنع نفسك كل الطيبات فتخسر دون أن تكسب شيئاً ، تعطي ولا أمل لك في أن تستردَّ شيئاً مما أعطيت وتقلد بسخف اعمال نسا كنا العجيبة كقرود وقح يثبج على الحائط معتقداً انه يحاكي أمهر الراسمين .
فيا أغبي الناس ما حجتك ؟

قال بافنوس هذا بحدة وعنف ، لكن الشيخ لبث هادئاً وأجاب بصوت رقيق : —

— وماذا يهمك من حجة كلب راقد في الوحل وقرد مفسد ؟
ولما لم يكن لبافنوس سوى غرض واحد ، هو تمجيد الله ،
فقد ذهب غضبه ، واعتذر بخشوع فائلاً :

— اعفُ عني يا أخي الشيخ ! إن غضبتي للحق حملتني على
تجاوز حدود الادب . ويهد الله انى مامقت شخصك وليكني
استنكرت خطيئتك ، ولشد ما يؤيني أن أراك في ظلمات الضلالة
مع انى أحبك في المسيح ، ورغتي في خلاصك تشغل بالي . تكلم
ادل اليّ يبراهينك ، انى مشوق الى معرفتها لأفندها .
فأجابه الشيخ بهدوء :

— أن مبلي الى الكلام كرهتني في السكوت ، على انى سادلي
اليك بمحجبي دون أن اسألك حججك ، فأنت لن تستميلي بأبي
حال من الاحوال . أنا لا أبالي بسعادتك أو شقاءك ، وسواء لديّ
السبل التى تتجه اليها آراؤك . وكيف أحبك أو اكرهك . والميل
والنفور كلاهما لا يليق بالحكم ؟

أما وقد سألتني فاعلم أن اسمي « تيموكليس » ، وأننى قد ولدت
فى « قوص » من أبوين أثرياً من الصناعة . وكانت صناعة أبى
تسليح السفن ، وكان ذكاؤه يضارع كثيراً ذكاء الاسكندر الملقب
بالاكبر . وكان لى اخوان اتخذوا صناعة أيننا ، أما أنا فقد احترفت
الحكمة . واكره والدي أخى الكبير على الزواج بامرأة كورية تدعى

« تيماسًا » ، فلم ترقه ولا طابت له عشرتها . ثم أن تيماسا هذه أغرت شقيقنا الصغير على عشق أثيم . ولم تلبث هذه العاطفة ان تحولت الى جنة مستعرة وولع شديد . على أن الكورية أبغضتهما كليهما وهامت بزمار كانت تحملوه ليلاً في مخدعها حيث ترك ذات صباح تاجه الذي اعتاد لبسه في المآدب . فلما وجده أخوأي أقسم على قتل صاحبه . وفي اليوم التالي قتلا الزمار ضرباً بالسياط ولم تشفع له دموعه ولا توسلاته . ففقدت زوج أخي رشدها من القنوط وأصبح هؤلاء الثلاثة البائسون كالوحوش يهيمون على شواطئ قوص . وكانوا من شدة جنونهم يعوون كالذئاب ، يعلو الزبد أشد قهم ، وتحقق في الارض أبصارهم ، والاطفال يضعجون من حولهم ويرمونهم بالحجار الى أن ماتوا ودقهم أبي يديه . ولم يلبث أن أبت معدته تناول الطعام فمات جوعاً ، مع أنه كان لوفرة غناه يستطيع شراء ما يشتهي في أسواق آسيا من لحم وفاكهة . وكان يتميز غيظاً من توريثي ثروته التي بددتها بعد موته في الاسفار . فزرت ايطاليا وبلاد اليونان وأفريقيا ، فلم ألق قط عاقلاً ولا سعيداً . درست الفلسفة في أثينا والاسكندرية حتى أصابتنى جلبة الحوار بالدوار . ولما وصلت أخيراً الى الهند ، رأيت على شاطئ نهر الكانج رجلاً عارياً متربعا في مجلسه لم يفارقه منذ ثلاثين عاماً ، وقد علفت بجسمه الضامر

النباتات المتسلقة وعششت الطيور في شعره ، وهو باق حياً . ذكرتُ
لرؤيته تياساً والزمار وأخوي وأبي ، وأدركت أن هذا الهندي حكيم
وقلت لنفسي ، « الناس يتألمون لانهم محرومون ما يظنونهم خيراً ،
واذا نالوه خشوا أن يفقدوه . أولانهم يعانون ما يظنونهم شراً . فإذا
بطل كل اعتقاد من هذا القبيل زالت جميع الشرور » . هذا هو
السبب الذي حال دون اعتباري شيئاً نافعاً ، وحملني على الزهد في
طيبات هذه الدنيا ، وجعلني أعيش في وحدة وسكون اقتداءً بالهندي .
وكان بافنوس يصنعى باتباه لحكاية الشيخ ، فأجاب :

— حقاً يا تيموكليس القوصي ، ان كل ما قلته غير بعيد عن
الصواب . فمن الحكمة ازدراء متاع هذه الدنيا ، ولكن ازدراء النعيم
الابدي ، وتعريض النفس بذلك لغضب الله ، لمن الجنون . انني
أرثي لجهلك يا تيموكليس ، وسأهديك الى الحق ، وأقودك الى محجة
الصواب ، فانك اذا علمت أن الله موجود في ثلاثة أقانيم ، أطعت
هذا الاله كما يطيع الابن أباه . . .

فقاطعه تيموكليس بقوله :

— كفى أيها الغريب ! كفى شرحاً وتبياناً لتعاليمك . لا نحاول
أن تكرهني على قبول آرائك ، فكل جدل عقيم . ورأيي ألا يكون

لي رأي . إني أعيش خلواً من الهموم ما دمت لا أفاضل بين الاشياء .
سرّ في طريقك إذن ولا تعالج تحويلي عن الجود الحمود الذي
يغمرني كأني في حمام منعش بعد مشاغل أيامي المرهقة

وكان بافنوس راسخ القدم في أصول الايمان ولشدة اختباره
لقلوب البشر عرف أن نيموكليس الشيخ قد عدته رحمة الله ، وان يوم
خلاص تلك النفس الخاسرة لم يحن بعد ، فلم يجب خشية أن تنقلب
التبصرة تهلكة . فقد يحدث ان مجادلة الكافرين تزيدهم تمرّداً
وعصياناً بدلاً من أن تردهم مؤمنين ، ولهذا ينبغي لمن هم على الحق
أن يذيعوه بفطنة وحذر .

فقال :

— اذن ، فالوداع ياتيوكليس التعس !
ثم تنهد تنهداً عميقاً واستأنف سراه تحت ستر الغسق .



رأى في الصباح سرباً من « أبي قردان » واقفاً على ساق واحدة لا يتحرك عند حافة المياه التي تعكس ظلّ أعناقهِ الوردية . وقد بسطت أشجار الصفصاف أوراقها الغضة الرمادية على الشاطئ الى مدى بعيد ، وكانت الكراكي تطير على شكل مثلث في السماء الصافية الأديم ، ومن بين عيدان القصب يتردّد نواح مالك الحزين . والى آخر ما تستطيع العين أن ترى يتلاطم النهر في لجته الخضراء وفوقها الاشعة البيضاء كأنها أجنحة الطير . وهنا وهناك تنهض على الشاطئ بيوت بيضاء يغشاها ضباب خفيف . وفي ظلال الجُزُر المقلّة بالنخيل والازهار والثمار يدوي صياح أسراب البط والاوز والنحام والشرشير . والى اليسار يمتد الوادي الخصيب حتى الصحراء تمايل حقوله وجناته طرباً . والشمس تصبغ السنابل بالذهب وقد فاح عَرَف التربة المخصبة وعبق شذاها

ولما رأى بافئوس ، في روعة هذا المنظر ، برهان وجود ربه خراً ساجداً يقول :

— تبارك الله الذي وقفني في سفري ! سبحانك أنت الذي أنزل نداه على أشجار التين ، أنزل غفرانك يا إلهي على روح تاييس التي برأتها ، وفي أحسن صورة صورتها ، لا تقلّ عن زهر الخائل

وأشجار البساتين ! دعها يا الهى تزهر بعنايتي شجيرة ورد بلسمية في
بيت مقدسك السماوى !

وكان كلما رأى شجرة مزهرة او طائراً غرداً ، فكر في تاييس .
وهكذا سار على ضفة النيل اليسرى بين البقاع الخصبة الآهلة حتى
وصل بعد أيام الى الاسكندرية ، التي لقمها الاغريق بالجميلة والذهبية .
وكان الفجر قد تبلى منذ ساعة فلاحته له المدينة الرحبة العظيمة
من مرتفع ، تتلألاً قبائها في ضباب الصباح الوردى . فوقف وضم
ذراعيه الى صدره ، وقال :

— اذن ، هذا هو المقر البديع الذى تمخض بي في الخطيئة !
وهذا هو الهواء الذى منه استنشقت العطور السامة ! وهذا بحر
الشهوات الذى فيه سمعتُ أغانيَّ بانه ! هو ذا مهدي الجسدي
وموطني العالمى ! وانه في نظر الناس لمهد الورد والزهر ، ووطن المجد
والفخر . ليس عجيباً أيها الاسكندرية أن يعزك بنوك كأُم روم .
وقد نشأت في أحضانك ذات الرواء وشببت في ربوعك ربّة البهاء .
بيد أن الزاهد يستخف بالطبيعة ، والصوفي يزدرى الظواهر ،
والمسيحي ينظر الى وطنه لدنيوى كأنه منفى ، والراهب يعرض
عن الدنيا ! أيها الاسكندرية ! لقد حوات قلبي عمك ، فأنا
أكرهك وأمتك لغناك ، لعلمك ، لذاتك ، لجمالك ! لعنة الله

عليك يا معبد الشياطين ! يامضجع الفُجَّار ! يامنبر الارويسيين
الموبوء ، عليك اللعنة ! وأنت يا ابن السماء ، يامن هدى أبانا الناسك
« القديس أنطوان » لما أتى من مجاهل الصحراء ودخل معقل الوثنية
هذا ليثبت إيمان المهتدين ، ويشد أزر المستشعدين . يا ملك الرب
الجميل ، أيها الطفل غير المنظور ، يا نفحة الله الاولى ، حلق أمام عيني
وعطر برفرة جناحيك الهواء الفاسد الذى سأسنشقه عما قريب مع
مردة الشر وأبالسة الظلام :

قال ذلك واستمر في طريقه ، ودخل المدينة من « باب
الشمس » الحجري الشامخ ، وكان على تساميه وخیلانه يتربع في
ظله الفقراء البائسون ، يستجدون المارة وهم يتأوهون أو يبيعونهم
التين والليمون

وكانت هناك عجوز جالسة في اطار بالية ، فأمسكت بمسوح
الراهب وقبلتها وقالت :

— أي رجل الرب ! باركني ليباركني الرب ! لقد ذقت مر
العيش وكابدت آلاماً كثيرة في هذه الدنيا ، وأريد أن أحظى
بالمسرات في الآخرة . انك آت من عند الله أيها القديس ، لذلك
أعدت تراب قدميك أغلى من التبر .

فقال بافنوس :

— الحمد لله !

ورسم بيده علامة الفداء على رأس العجوز ، وسار في طريقه
على أنه لم يكذب يتعد قليلاً حتى اعترضته شذمة من الاطفال
جروا وراءه مستهزئين ، ورجموه بالطوب وهم يصيحون :

— يا للراهب الخبيث ! انه أسود من القرد الاسخم ، وأقبح
التحاء من تيس ! ياله من غبيّ مستميت ! لماذا لم ينصبوه لعيناً (١)
في حقل لتخويف العصافير ؟ لكن لا ! ان وضعه هناك يجلب البرد
على زهر اللوز ! انه يجلب النحس والشؤم ! اصلبوا الراهب ! أصابوه !
وانهالت عليه الحجارة مع صيحاتهم ، فتمتم بافنوس :

— اللهم بارك في هؤلاء الاطفال المساكين !

واستمر في طريقه مردداً ما يجول بخاطره :

— لقد احترمتني تلك العجوز ، وامتنني أولئك الصبيان ،

وكذا الشئ الواحد يقدر على وجوه مختلفة من الناس الذين هم
عرضة للخطأ في أحكامهم . فيجب التسليم بأن الشيخ تيموكليس

(١) اللعين ما ينصب في الزرع بهيئة رجل لطرده الطيور والوحوش

مع انه كافر ، لم يكن خلواً من الادراك . اذ أنه يعرف انه محروم
النور على الرغم من كونه أعمى . ان كل شيء في هذه الدنيا
سراب خادع ، وظل زائل ، ولون حائل . والثبات لله وحده



اجتاز بافئوس المدينة سريع الخطا ، وتذكر بعد غيبته عشر
سنوات كل حجر فيها ، وكان كل حجر لديه فضيحة تذكره بمعضية .
فطفق يبطأ حجارة الطريق حافياً بعنف ، وكان يبتهج كلما تركت
قدماه الممزقتان أثر دماثهما عليها .

ثم سار عن يمين أروقة معبد السراپيس الفخمة ، في طريق
محفوف بالقصور المنيفة التي كانت كأنها تنطف عطراً . وهناك
أشجار الصنوبر والاسفندان شاحخة برءوسها فوق الطنوف الحمراء
وقواعد التماثيل المذهبة . ورأى من خلال الأبواب تماثيل من
النحاس في أروقة من المرمر ، وخيوطاً من الماء النافر ترقص بين
أغصان الشجر . ولم يك ثمة صوت يكدر صفو سكون هذه الوحدة
الرائقة ، سوى أنغام ناي بعيدة . فوقف الراهب أمام منزل صغير
بديع التقسيم ، قائم على أعمدة كأنها لحسن صنعها فتيات ، ومزدان
بتماثيل نصفية من البرنز لأشهر فلاسفة اليونان ، عرف بافئوس
منهم أفلاطون وسقراط وارسطو وإبيقور وزيونون



قرع الباب ولبث ينتظر وهو
يفكر في « ان من العبث أن يعجّد
المعدن هؤلاء الحكماء المزيفين ،
فترهاتهم باطلة، وأرواحهم في نار



الجحيم تلظى ، وافلاطون الشهير نفسه ، الذي ملأ الأرض بدوي
فصاحته ، يجادل الآن الزبانية في جهنم « !!!
فتح الباب زنجي . ولما رأى رجلاً حافي القدمين يطاءً فسيفساء
العتبة قال بخشونة :

— اذهب ابها الراهب الهزأة ، واستجد في غير هذا المكان
ولا تنتظر حتى أطرّدك بالنبوت
فأجابه كاهن انصينا :

— لا أسألك شيئاً إلا أن تأخذني الى سيدك نسياس .
فأجابه العبد وهو يمس في حقه :
— حاشا لسيدي أن يلقى الكلاب أمثالك .
فأجبه بافنوس :

تفضل يا بني وافعل ما طلبته اليك . أخبر مولاك اني
راغب في رؤيته

فصاح البواب الساخط متهيجاً :

- اخرج من هنا أيها المستجدي الملحاح !

ولكزّه العبد بعصاه ، فتلقى الضربة على وجهه ساكناً ساكناً ،
وكرر قوله بلطف :

- أرجو يا بني أن تؤدّي رسالتي الى سيدك .

فارتجف البواب ، وقد أوجس خيفة مما رأى ، وتتم قائلاً :

- ترى من يكون هذا الرجل الذي لا يخشى الألم ؟

وانطلق ليخبر مولاه .

كان نسياس خارجاً من الحمام ، والجواري الجميلات يمسحن
جسده بأدوات التدليك . وكان رجلاً رشيماً بشوشاً ، يجمع محياه بين
حلاوة الدعابة ومرارة التهكم . فلما أبصر الراهب ، تقدم اليه مفتوح
الذراعين هاتفاً :

- هذا انت يا بافئوس ! رفيقي في طلب العلم ، صديقي ،
أخي ! آه ! لقد عرفتك مع أنك - والحق يقال - قادمٌ في صورة
أشبه بالوحوش منها بالبشر . أتذكر أيام كنا ندرس معاً النحو
والبيان والفلسفة ؟ كنت في ذلك الحين ذا مزاج فظٍّ وحشي .
ولكنني أحبيتك لإخلاصك الذي لا تشوبه شائبة . وكنا اعتمدنا

أن تقول عنك أنك تنظر الى الكائنات بعيني جواد غضبان نفور ،
ولم يكن جماحك ونفورك بالشيء المدهش . فلم تكن على جانب كبير
من رقة القدماء ، ولكن كرم أخلاقك لم يكن له حد . لم تكن تضن
بمالك ولا تبخل بحياتك . وكنت على خلق شاذ وعبقريه حيثك
اليّ وجعلتني أميل اليك كل الميل . أهلاً بك أيها العزيز بافوس ،
ومرحباً بك بعد فراق عشرين سنين ! لقد غادرت الصحراء وزهدت
في خرافات المسيحية وخزعبلاتها والآن تعود الى حيائك الاولى .
ان اليوم ليوم ميمون !

ثم التفت الى النساء وقال :

— يا كرويل ويا مرتال ، ضمخا بالطيب قدمي ضيفي العزيز
ويديه ولحيته .

فابتسمتا واقبلتا عليه بابر يق وقمانى ومراة معدنية . ولكن
بافوس وقفهما بإشارة الأمر ، ثم غض من بصره كي لا يراها ، لأنهما
كانتا عاريتين . فجاءه نسياس بالوسائد ، وقدم اليه طعاماً وشراباً
مختلفي الالوان ، فرفضها بافوس كلها بازدراء وقال :

— اعلم يا نسياس اننى لم أهجر ما سميت به خطأ بالخرافات المسيحية ،
والتي هي بلا ريب حقيقة الحقائق : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة

كان عند الله ، وكان الكلمة لله . كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان . فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس ... » (١)
فأجابه نسياس وهو يرتدي جلباباً معطراً :

أتظن يا عزيزي بافنوس أنك تدهشني بذكر اقوال مشوشة فارغة ، لا معنى لها ولا طعم . أنست أننى أنا نفسي فيلسوف إلى حد ما ؟ إنجيل البك نك تستطيع اقناعي ببعض خرق مُزقت من ثوب اميلوس الارحواني ، في حين أن اميلوس وبورفير وأفلاطون في أوج مجدهم ما استطاعوا اقناعي ؛ ان المذاهب التي أنشأها الحكماء ليست سوى حكايات اختلقت لتسلية طموحة الناس الخالدة ، ويجب أن نلهو بها كما نلهو بحكايات الحمار ، ودرّ النبذ . وماترون الافويسى ، أوأية أسطورة أخرى من الاساطير الميلزية . ثم أخذ بذراع ضيقه وقاده الى بهو فيه آلاف من أوراق البردى مركومة في سلال وقال :

— هذه مكتبتي . وهي تحوي شيئاً يسيراً من الآراء التي ابتدعها لفلاسفة لتفسير الغاز هذا الكون . أن مكتبة لاسكندرية بكل نناها لا تحويها كلها . واأسفاه ! ليست هذه سوى أحلام قوم مرضى !

وأرغم ضيفه على الجلوس على مقعد من العاج ، وجلس هو
أيضاً . فألقى بافنوس على الكتب نظرة المغتم وقال :
— يجب أن تحرق كلها !

فأجابه نسياس :

— انها تكون خسارة يا ضيقي الكريم ! فأحلام المرضى تكون
بعض الاحيان مسلية . فضلاً عن أنه اذا اعدمت كل أحلام الناس
وتخيلاتهم فقدت الارض زينة أشكالها وبهجة ألوانها ، وكان نصيبنا
جميعاً الرقاد في خمول محزن .

لكن بافنوس استطرد قائلاً :

— من المحقق أن تعاليم الوثنيين ليست الا ترهات فارغة .
لكن الله ، وهو الحق بآيات بينات ، قد تجسد وعاش بيننا .

فأجاب نسياس :

— ما أنفم كلامك عن تجسده أيها العزيز ! لعمرى أن إلهاً
يفكر ويعمل ويتكلم ويمرح حسب الطبيعة ، كما كان شأن
عوليس العتيق على البحر الاخضر — ان هو الا انسان عريق .
وكيف يخطر ببالك أن تؤمن بجوپيتر هذا الجديد ، في حين أن
صبية أثينا ، في عصر بركليس ، فرغوا من الايمان بسميه القديم ،

ولكن دعنا من هذا ، إنك لم تأت على ما أظن ، للجدل في الاقائيم الثلاثة . فخبّرني عما أستطيع القيام به لك أيها الرفيق العزيز .
فأجابه كاهن انصينا :

— أعزني حلة معطرة ، كتلك التي تلبسها ، ومن علي بنعال مذهبة وقارورة ملئت زيتاً لأطيب به لحيتي وشعري . وزد على ذلك سفطاً فيه الف درهم . هذا ما أتيّتك في طلبه يا نسياس حباً في الله واكراماً لعهد صداقتنا القديم .

فدعا نسياس بجاريّتيه كرويل ومرتال ، فأحضرتا الفخر حلة له ، وكانت موشاة على الطراز الأسوي بصور الزهر والحيوان . فأمسكتها المرأتان ونشرتها بحذق بحيث بدت ألوانها البراقة ، وأمهلاتاه حتى يخلع مسوحه التي تغطيه من رأسه الى قدميه . فأعلن الراهب أنه يفضل تمزيق لحه إرباً إرباً دون أن يخلع مسوحه . فسترتا المسوح بتلك الحلة . ومع ان كرويل ومرتال كانتا من طبقة الرقيق إلا أنه كانت لهما على الرجال دالة الحسن ، فطفقتا تضحكان من الهيئة الغريبة التي أصبح الراهب فيها . ودعته كرويل مولاهما العزيز ، بينما كانت واقفة أمامه بالمرآة . وشدت مرتال لحيته . غير أن بافوس كان يصلي لله ، ويفض عنهما بصره . ولما احتذى النعال المذهبة وشد السفط الى حزامه قال لنسياس الذي كان ينظر اليه باسماً :

— أي نسياس ! يجب ألا تكون الأشياء التي تراها معرّة في نظرك . كن واثقاً أنني سأحسن استخدام هذا الثوب ، وهذا السفط ، وهذه النعال ، وأعمل بها عملاً صالحاً

فأجاب نسياس :

— لست أظن شراً ولا سوءاً ، لا اعتقادي أن الناس متساوون في المعز عن فعل الشر والخير . فالخير والشر لا يتعدّان حدّ الظن . وليس لدى الحكيم لأسباب الدعوى سوى العادة والعرف ، اننى احبذ الآراء الشائعة في الاسكندرية في عهدنا هذا . وذلك هو سبب اعتبار الناس إياي رجلاً شريفاً أميناً . فاذهب يا صاحبي وتمتع بما أخذت كيف شئت

لكن بافنوس استحسن أن يطلع مضيفه على حقيقة الامر ، فقال :

— أتعرف تايس ، تلك التي تمثّل في المسرح ؟

— امرأة جميلة فتانة ! وقد كانت يوماً ما عزيزة جداً عليّ حتى اني بعت في سبيل هواها طاحونة وحقاين كانا يزركان حنطة ! واكرمتها بثلاثة دواوين من الشعر مشحونة مرأى سقيمة ! حقاً ان الجمال هو اعظم قوة في العالم ، فانه اذا قدّر لأحدنا ان يظفر به الى الأبد ، أعار « الخالق » و « الكلمة » و « الخلود » أقل ما يمكن

من المبالاة ! على اني أعجب يا بافنوس الصالح لمحيثك من اعماق
طيبة لتحدث عن تاييس .

ثم تنهد ، فرشقه بافنوس بنظرة الذعر والخوف ، لأنه لم يخطر
بباله قط أن رجلاً يمكنه أن يقترف مثل هذا الاثم بمثل ذلك الهدوء .
وتوقع أن يرى الأرض قد انشقت وابتلعتة . لكن الأرض لم
تنشق . وبقي الاسكندري الصامت معتمداً رأسه يتنسم بمرارة
لتذكريات شبابه المدبر . فوقف الراهب وأجاب بصوت جهوري .

— اعلم يا نسياس اني أروم بمعونة الله انقاذ تاييس من حضيض
الشهوات الارضية السافلة ، وإشراب قلبها حب المسيح لتكون
عروسه . واذا لم يفارقني الروح القدس ، فستغادر تاييس هذه المدينة
اليوم لتدخل الدير .

فأجاب نسياس :

— احذر أن تغضب « الزهرة » إنها إلهة قادرة ، ان أنت
حرمتها أبدع عبادها ، أوغرت صدرها عليك !

فقال بافنوس :

— ان الله سيقيني ويدفع عني سوء . وعسى ربي أن ينير
قلبك يا نسياس ، ويرفعك من الهوة التي تتردى فيها .

وخرج فقبعه نسياس حتى أدرك بالباب ووضع يده على كتفه
وهمس في اذنه مكرراً قوله :

- حذار أن تغضب الزهرة ، فانتقامها شديد !

على أن بافانوس لم يعبأ بهذا النذير وخرج طاوياً عنه كشحه .
فلم تبعث فيه أقوال نسياس إلاّ الاشمزاز والاحتقار . وقد
أحفظه جدّاً ، اذ علم أن صديقه نال حظوة عند تاييس . وخيل
اليه أن ارتكاب الخطيئة مع هذه المرأة أشنع وأشدّ هولاً منه مع
آية امرأة أخرى ! كان يرى في هذا الشر مخزاة مستنكرة على مثله ،
وأصبح نسياس عنده مبغضاً حقيقاً باستئزال اللعنات . كان من طبعه
كراهية الرجس ، ولكنه تمثل هذه الرذيلة فبدت له بأفزع مظاهرها .
وما سبق له أن شاطر من صميم قلبه المسيح في غضبه ولا الملائكة
في حزنها ، كما شاطرهم الآن .

وكان كلما فكر في ذلك يزداد ميلاً الى انقاذ تاييس من وسط
الفجار . وما كان ينقصه إلاّ ان يراها لينتشلها من بينهم . غير أنه
كان لا مناص له من التريث حتى يعتدل الجو ، إذ كانت الشمس
لا تزال راد الضحى . فسار بافانوس في شوارع البلد الآهلة ، وقد
اعتزم الامساك عن الطعام في هذا النهار حتى يكون أهلاً لما يلتمسه

من عون الله ورضاه . وكان لشدة حزنه لا يجرؤ على دخول كنيسة من كنائس المدينة لعلها بأنها ملوثة بدنس الآريوسيين الذين قلبوا موائد الرب . وكان امبراطور الشرق يشد أزر هؤلاء الهراطقة الضالين الذين طردوا اثناسيوس بعد أن القوه عن كرسي اسقفية وبشوا الفتن بين نصارى الاسكندرية .

فسار معتسفاً، تارةً يلقي بنظره الى الأرض في اتضاع وخشوع، وتارةً يرفع بصره الى السماء في نجلي الانجذاب . وبعد أن سار قليلاً على غير هدى وجد نفسه على رصيف من أرصفة المدينة . وكان الميناء يضم سفناً عديدة والبحر يموج معجباً بالجمجمة اللحية الزرقاء . وكان هناك مركب يحمل في مقدمته « ننت البحر » وقد رفع البحارة مرساة وهم يغنون ويشقون صدور الأمواج بمجاذيفهم ، ولم تلبث السفينة البيضاء المغطاة باللؤلؤ الرطب ، أن أصبحت في عيني الراهب أثراً بعد عين ، وانجرت يقودها ربّاه في مضيق حوض « الالينستوس » ، وأوغلت في عباب البحر الزاخر تجرّ وراءها ذيلاً من الزبد .

فقال بافنوس في نفسه :

- لقد تمنيت أنا أيضاً أن أمخر عباب اوقيانوس العالم رافعاً عقيرتي بالغناء ، لكنى ما لبثت أن ادركت مبلغ حماقتي فلم تغلبي إلهة البحر على أمري .

ثم جلس على ربطة من الجبال وما لبث أن استغرق في النوم ،
ورأى رؤيا : خُيل اليه فيها أنه يسمع نفحاً في صور ، ورأى السماء
حمراء كأنها صبغت بالدم ، فعلم أن الساعة قد أتت وحان يوم الحساب .
وفيا هو يضرع إلى الله بحجارة ، رأى وحشاً هائلاً يتقدم اليه وعلى
جبينه صليب من نور ، فعرف فيه أبا هول سيلسيلييه . فأمسكه الوحش
بين فكيه من غير أن يصيبه بأذى وحمله في فمه كما تحمل القطعة صفارها
وقطع به ممالك عديدة عابراً الأنهار ، مجتازاً الجبال ، حتى أتى مكاناً
قفرًا مغطى بالصخور الضخمة والرماد الحار ، وكانت الأرض مشقة
في عدة مواضع يخرج من فوهاتٍها لهيب وبخار ، فأنزله الوحش على
الأرض برفق وقال له :

— انظر !

فأشرف بافنوس من حافة الهاوية فرأى وادياً من النيران
يتلظى في جوف الأرض بين جرفين من الصخور السوداء . وشاهد
الزبانية تسوم أرواح الخاطئين سوء العذاب ، وقد احتفظت تلك
الأرواح بمظاهر أشكالها الجسدية حتى ان قطعاً من النسيج كانت
لا تزال عالقة بها . وأدهشه أنه كان يبدو على هذه الأرواح علامات
الطمانينة في هذا العذاب الذي يكابدونه . ومنها روح طويلة القامة ،
بيضاء ، مغمضة العينين ، على جبينها عصاة ويدها صولجان . غنت ،
فلاً صوتها الوادي الجذب بألحان موزونة ، وشدت بذكر الآلهة

والأبطال ، وكانت العفاريات الصغيرة الخضراء تحرق شفيتها ونحرها
بمخيد محمى . . وظل طيف هوميروس يغنى . . ! وعلى مقربة منه ،
الشيخ اناجزاجور ، وكان أصابع أشيب ، يرسم بالفرجار أشكالاً في
التراب ، وهناك شيطان يصب الزيت العالي في اذنه وهو جاد في عمله !
ورأى الراهب فيما رأى ، طائفة من الناس على جانب وادي
السعير ، يقرأون ويتحدثون في اطمئنان وهدوء ، وهم يتنزهون كما
يفعل الاسانذة والطلبة في ظل اشجار الاكاديمي !!

وهناك على حدة ، وجد الشيخ نيموكليس قد اتخذ مكاناً قصياً ، يهز
رأسه هزة الجحود والانكار ، وبجانبه أحد زبانية الهاوية يحرك
شعلة امام عينيه ، ونيموكليس لا ينظر اليه !

عقدت الدهشة لسان بافئوس فالتفت الى الوحش واذا به قد
اختفى ، ورأى مكانه امرأة مقنعة قالت له :

— انظر واعتبر بهؤلاء المشركين فانهم خالدون في جهنم فرأس
الأوهام التي أغوتهم وأضلتهم في الحياة الدنيا . لأن الموت لم يكشف
الغشاوة عن بصرهم ليروا . فما الموت بكافٍ لرفع الحجاب عن الحقيقة .
والذين كانوا في الحياة جاهلين سيبقون في الجهل خالدين . وما اولئك
الشياطين الذين يشتدون في تعذيب تلك النفوس سوى صور محسوسة
يتجلى فيها العدل الرباني . لهذا ترى تلك النفوس عاجزة عن رؤيته

والشعور به لأنها بعيدة عن كل حق فلا تدري قضاء الله عليها وتعى
عن الصواب

فقال كاهن انصينا :

— ان الله على كل شيء قدير

فأجابت المرأة المقنعة :

— انه جل شأنه لا يفعل شيئاً عبثاً . فمقابهم يقتضي انارة
بصائرهم ، فاذا ملكوا ناصية الحق اصبحوا كالمجتبين

عاد بافنوس يطل ثانية على الهاوية . وقد طار لبه رؤى
وفزعاً . فرأى طيف نسياس تحت الريحان المحترق يبتسم وجبينه متوج
بالزهر وبجانبه « اسپازيا »^(١) تختال بدلال ورشاقة في ثوبها الصوفي ،
يلوح عابهما أنهما يتكلمان معاً في الحب والفلسفة . وعلى محياهما
سمات الملاحاة والنبل . وكان سيل النار يتساقط عليهما كأنه برد
وسلام . وكانت أقدامهما تخطأ الأرض المضطربة وكأنها العشب
الندي . فاهتاج بافنوس لهذا المنظر هياجاً شديداً وصاح :

(١) زوجة بركايس المشهورة بالحسن والمعرفة وكان يتردد على بيتها الفلاسفة
ومشاهير الكتاب ومن بينهم سقراط

— عدلك يارب عدلك ! أنزل مقتك وغضبك ! هذا نسياس ،
دعه يبكي ويتوجع ! اجعل اسنانه تصطك ، انه جنى على تاييس !
واستيقظ بافنوس بين ذراعي بحار قوي كهرقل كان يحمله
ليضعه على الرمل وهو يقول له :

— هدوءاً وسلاماً أيها الصاحب ! بحق « پروتيه » الـه
البحر ، انك تضطرب في نومك ! ولو لم اكن قد أمسكت بك
لسقطت في « الـاينوستوس » . فلا تشك في انني أنقذت حياتك ،
كما لا أشك في أن أمي تبيع الفسيخ !!
فأجابه بافنوس بقوله :

— الحمد لله !

ثم نهض وسار يفكر في الحلم الذي رآه ويقول في نفسه :
— ان هذا الحلم شر ظاهر ، انه يسيء الى العزة الالهية بتمثيل
الجحيم كأن ليس له ظل من الحقيقة ، حقاً ان هذه أضغاث أحلام
من عمل الشيطان !

وبينما كان يعاتب الله على تخليه عنه وتركه لسلطان الشيطان ،
كانت تدفعه جماهير من الناس تسير مسرعة في طريق واحد .

ولما لم يكن معتاداً السير في المدن فانه تعثر في طيات ثوبه وسقط
غير مرة .

وأراد معرفة مقصد اولئك الناس فسأل أحدهم عن سرّ هذه
العجلة فأجابه :

— ألا تعرف أيها الغريب أن الألعاب ستبدأ ، وأن تاييس
ستمثل ؟ هؤلاء كلهم ذاهبون الى الملعب وأنا ذاهب اليه مثلهم .
فهل تروق لك صحبتي ؟

ففظن بافئوس الى أن رؤية تاييس في العابها توافق خطته ،
وتبع الرجل الغريب .

وكان الملعب امامهما مزداناً ايوانه بصور الوحوش المستعارة
الزاهية ، وعلى سورته تماثيل لا تحصى . فتبعوا الجمهور ودخلا دهليزاً
ضيّقاً في نهايته مدرّج تسطع فيه الأنوار . فجلسا في أحد الصفوف .
وكان المسرح بادياً في أجمل زينة وأبداع مثال ولا يزال خالياً . ولم
يك ثمة ستار يحجب المشهد ، وكان على المسرح هضبة كالتي كان
يقيمها الأقدمون لأرواح أبطالهم . وكانت هذه الهضبة في وسط
معسكر . وقد وضعت أمام الخيام حزم الرماح ، وعُلقت التروس
الذهبية على الأعمدة بين أكاليل من الغار وتيجان من أوراق شجر



(تكريم باخوس ، اله الخمر ، في أثينا)

وروسكيوس . تُرى ماذا كان الأثينيون معاصرو پركليس يقولون
لو انهم رأوا امرأة تبدو للعيان ؟ ان سفور المرأة عيب ، ولا ريب
أن رضانا به تقهقر وانحطاط ، حقاً ، ان المرأة هي عدو الرجل الطبيعي
وسوءة الوجود .

فأجاب بافنوس :

— اصبتَ ! فان المرأة أشدُّ أعدائنا ، لأنها تملك قياد
اللذات ، وهذا سر قوتها المخيفة .

فصاح دوريون :

— وحق الآلهة إن المرأة لا تمنح الرجال لذة بل تجلب الحزن ،

البلوط — يخيم عليها جميعاً السكون . لكن دويّاً كأزيز النحل
دوى من نصف الدائرة حيث جلس المشاهدون ، وقد تحوّلت
وجوههم المحمرة ، من انعكاس الثياب القرمزية عليها ، نحو ذلك
المكان الرحب الصامت بهضبته وخيامه . وكان النساء يضحكن
وهن يأكلن الليمون ، وكان المترددون على الملعب يتلاقون
فيتعارفون بابتهاج وابتسام

صلى بافئوس في نفسه ، وأمسك عن لغو الكلام ، لكن
رفيقه أخذ ينتقد الملعب ويشكو من تأخر حاله ، فقال :

— قديماً كان الممثلون البارعون يلقون من تحت الوجوه
المستعارة أشعار يوربيدس ومناندر ، أما الدراما فلا تأق الآن وإنما
يقلّدونها بأشارات كأنهم صم بكم ، ولم تبق لنا من المشاهد السامية
التي وُضعت إكراماً لباخوس في أثينا إلا ما يستطيع أن يفهمه الرجل
الساذج ، لأنه ليس سوى مظهر وإشارة ، أما برقع المأساة الذي كان
موضع الفم فيه مجهزاً بالسنة من معدن تزيد في جهازة الصوت ،
والمطوّلات التي كان يلبسها الممثلون فتبلغهم طول الآلهة ، وجلال
المأساة والقصائد التي كانوا يتغنون بها — هذه كلها قد امّحت ،
وحلّ الممثلون الصامتون ، والراقصات السافرات محلّ پولوس

والنَّصَب ، والهموم الساحقة ! الحب مصدر آلامنا المحرقة ! اسمعني أيها الأجنبي :

ذهبتُ في صباي الى تير بزنا بأرجوليد، ورأيت هناك ريحانة كبيرة الحجم وموخرة الاوراق ، ويقول سكان تير يزنا عنها : انه لما هامت الملكة فيدروس بحب هيپوليتس ، قضت سحابة يومها جاثية في ضنى وكلال تحت هذه الشجرة . وفي أثناء ضجرها وإعيائها أخذت دبوسها الذهبي الذي يمسك شعرها الاشقر ووخزت به أوراق الشجرة ذات الشذى العطري، وبعد ان صادت الرجل البريء الذي نصبت له شرك هواها ، ماتت فيدروس شرمية كما تعلم ، فقد أغلقت باب مخدعها وشنقت نفسها بمنطقتها الذهبية معلقة في مسار من العاج . وأرادت الآلهة أن تبقى الريحانة شاهدة على هذا الشقاء ، تحمل فوق أوراقها الغضة المتجددة وخزات الدبوس الى نهاية الدهور . وقد قطفت احدى هذه الاوراق ووضعتها فوق مضجعي زجراً للنفس عن التطوح في مهامه الحب، مستعيناً بحكمة أبيقور أستاذي العظيم الذي من تعاليمه أن الشهوة مخوفة . وصفوة الكلام أن الحب داء محتوم لا خلاص منه غالباً

فسأله بافنوس :

— فيم مسرّاتك اذاً يا دوريون ؟
فأجاب دوريون باكتئاب :

- لي لذة واحدة ، هي التفكير . وليس لدي معدة ضعيفة مثلي أن يبحث عن سواها .

فانتهر بافئوس هذه الفرصة ، وبدأ يُعرِّف الايقوري بالمسرات الروحية الناشئة عن مناجاة الله والتأمل في ذاته العلية . فقال :

- استمع للحق يا دوريون ، وتلق النور . . . !

فما لبث أن رأى الرؤوس والاذرع تتجه اليه من كل صوب تأمره بالسكوت . وخيم على الملعب سكون عميق أعقبته نغمات الموسيقى الحماسية .

بدأت الالعب، وتوهدت الجنود تغادر الخيام وتستعد للرحيل ، وعندئذ حدث أمر عجيب رهيب ، اذ غطت سحابة قمة الهضبة ثم انتشعت وظهر طيف « أشيل » في درع من ذهب ومد ذراعه نحو المحاربين كأنه يقول لهم : « ما هذا يا أبناء دانوس ، أ تعودون الى الأرض التي لن أراها ثانية ، وتغادرون قبيري بغير أن تقدموا اليه الذبايح والقرايين ؟ »

فاجتمع فوراً قواد الاغريق حول سفح الهضبة ، وبينهم اكناس بن تريس ، ونستور الشيخ ، وأغامنون يحمل الصولجان وعلى جبينه عصاة - وجعلوا يتفرسون فيما حدث . وكان بيروس ابن اشيل الصغير ساقطاً على الأرض ، واتضح من حركات عوليس ، المعروف بقانسوته التي يظهر من تحتها شعره الجعد ، انه راض بما يطلبه

طيف البطل ، وكان يحاور أغا ممنون ، واستطاع الحضور أن يفهموا أقوالهما من اشارتهما ، وحسبوا ملك اتيكا يقول :

— ان أشيل يستحق منا كل إعظام وتكريم ، وهو الرجل الذي مات اشرف ميتة في سبيل اليونان ، وهو يطلب العذراء پوليكسنا ابنة پريام ليضحي بها على قبره ، فيا ايها اليونانيون ! ادخلوا السرور على طيف البطل واجعلوا ابن پيله يفرح في مقره الابدي
لكن ملك الملوك أجاب :

— لنبقين على عذارى طرواده اللواتي انقذناهن من المذابح ، فكفى ما نزل من الإحزن والمصائب بالجنس الپريامي الجليل .
قال ذلك لأنه كان يهوى أخت پوليكسنا ويقاسمها مضجعها .
فعبره عوليس الحكيم أنه يفضل فراش كساندرا على رمح أشيل
وأخيراً ، وافق اليونانيون على اقتراح عوليس بأن قرعوا أسلحتهم بعضها ببعض . وتقررت تضحية پوليكسنا ، فاطمأنت روح أشيل واختنق طيفه مغتبطاً

. وكانت الموسيقى تارة تعصف وتثور ، وتارة تن وتنوح ، وهي تماشي إحساس الجمهور وعواطفه ، فصفق الحضور طرباً واعجاباً
الابافنوس ، الذي يعزو كل شيء الى الله الحق ، فانه قال :

— من هذه القصة نرى كيف كانت قسوة الذين عبدوا
الآلهة الباطلة !

فأجابه الایقوري :

— ان الأديان كلها تلد الجرائم ! ولحسن الحظ ، أوتي اغريقي
الحكمة ، فخلَّص الناس من مخاوف المجهول التي لا أساس لها . . .
وهنا غادرت هيكو با الخيمة التي كانت فيها اسيرة وهي شعناء
الشعر ، ممزقة الثوب . فارتفعت تأوهات عالية من قلوب الحاضرين
حين شاهدوا صورة شقائها مجسمة . وكانت هيكو با قد أذرت برؤيا
صادقة ، فبكت واستبكت لنفسها ولابنتها ، فدنا منها عوليس وسألها
أن تسلم پوليكسنا ، فشدت شعرها بيديها ، وخدشت خديها بأظافرها ،
وقبلت يدي ذلك الرجل الغليظ القلب الذي خاطبها بقوله :

— تعقلي يا هيكو با واخضعي لحكم الضرورة . فان في منازلنا
أيضاً أمهات عجائز يبكين أطفالهن الذين ناموا تحت أشجار صنوبر
إيدا نوماً أبدياً

أما كسندرا التي كانت يوماً ملكة آسيا الغنية ، وأصبحت
الآن جارية ، فانها حثت التراب على رأسها .

ثم رُفِع ستار الخيمة . وظهرت العذراء پوليكسنا . فسرت

في المشاهدين جميعاً هزّة اذ عرفوا انها تاييس . وأبصر بافنوس ثانية
المرأة التي جدّ في طلبها

وظهرت تاييس بعد أن رفعت بيدها البيضاء ستار الخيمة ، ثم
لبثت واقفة بلا حراك كتمثال بديع ، وألقت من عينيها البنفسجيتين
نظرات الدلال والخيلاء ، ففتن جمالها الباهر كل قلب ، وأحسن كل
من شاهدها برجفة أثارت فيه عوامل الشفقة والحنان .

وارتفعت من الحاضرين أصوات الاستحسان ، حتى ان بافنوس
عقد يديه فوق صدره ، وشدّ على فؤاده مفتوناً ، وتنهد متأوها ،
وقال :

— ربي ان هذا سلطان شديد ، لواحدة من خلقك ، على عبادك !
وكان دوريون أقل تأثراً منه فقال :

— حقاً إن الذرّات التي تألفت منها هذه المرأة كونت تركيباً
بديعاً يسر النظر . وليس ذلك الا احدى دعايات الطبيعة وهي تلهو
وتلعب ، فالذرّات لا تدرك ما تكونه ، وسوف ينحل بعضها عن بعض
وتتفرق كما اتحدت ، أي بغير شعور بالاتحاد ولا بالتفرق . وأين أين
الذرّات التي تكوّنت منها لا عيس أو كليو بطرا ؟ لست أنكر أن
النساء في بعض الاحيان جميلات ، لكنهن جُعان عرضة للقبح
والثقل والقذارة !!

هذه مسائل تشغل عقول المفكرين ، في حين أن العوام لا يعنون بها ولا يلتفتون اليها. النساء يضرمن الحب فينا ويوحينه اليها ، ولكن الهيام بهن مخالف للعقل والحكمة .

كذلك فكر الفيلسوف ، وكذلك فكر الزاهد في تاييس ، واتبع كل منهما سبيل خواطره ، فلم يلحظا اتجاه هيكوبا الى ابنتها وقولها باشاراتها :

— حاولي أن تؤثري في قلب عوليس القاسي ، كليه بدموعك وجمالك وشبابك !

فأرخت تاييس ، أي پوليكسنا ، باب الخيمة ، وخطت خطوة فاستولت على كل القلوب . ولما تقدمت نحو عوليس بخطى ثابتة سريعة ، بعثت حركاتها المتوازنة ، المرتبطة بأنغام الناي الشجية ، في أذهان الحضور كلهم أحلاماً لذيذة فأحسوا كأنها هي المحور الإلهي الذي تدور حوله أنظمة الكون جميعاً ! فلم يروا أحداً سواها ، وكسفت أنوار جمالها كل ما عداها ، ولم يحظ الممثلون الآخرون بأدنى التفات . ثم استمر التمثيل .

أدار « ابن ليرت » الحصيف رأسه ، وأخفى يده تحت معطفه ، ليتحاشى نظرات الفتاة المتضرعة وقبلاتها ، فأشارت اليه العذراء ألا يخافها ولا يخشاه ، وقالت بلسان نظراتها الهادئة :

— اني أمتك يا عوليس ! سأتبعك خاضعة للقضاء ، لأني
راغبة — في الموت . أنا ابنة بريام وأخت هيكتور التي كانت يوماً
جديرة بالملك فلن ارضى سيداً أجنبياً — اني بلء الرضى أبذل الحياة !
وكانت هيكلو باجائية على التراب ، فتهضت فجأة وعانقت
ابنتها عناق اليأس والقنوط ، فأبعدت بوليكسنا ، بلطف لا يقاوم ، ذراعي
أما عنها ، وكأنها تقول :

— لا تعرضي نفسك يا أماء لعدوان السيد ، لا تنتظري منه
شفقة ولا رحمة ، أيتها الأم المحبوبة ، هات يدك ذات الغضون
وقربي خديك الضامرين الى شفتي !

زاد الحزن وجه تاييس حسناً واشراقاً ، وشعر الجمهور بامتنان
نحوها لتمثيلها أمامه أهواء الحياة وأشكالها في رقة فائقة . وسامح
بافنوس زهوها الحالي اكراماً لاتضاعها المستقبل ، وأثنى على نفسه
سلفاً من أجل القديسة التي سيضمها عما قريب الى السماء !



وقارب المشهد الختام . فسقطت هيكلو با كالميتة ، وتقدمت
بوليكسنا ، يقودها عوليس ، الى القبر المحوط بصفوة رجال الحرب ،
وصعدت مزفوفة بتراتيل الحزن المؤثرة ، الى قمة الهضبة حيث قدم

ابن أشيل الخمر في كأس ذهبية الى طيف البطل . ولما مدَّ المقربون أذرعهم ليمسكوا بها أشارت اليهم برغبتها في الموت طليقة غير مقيدة . كما يابق بسلسلة الملوك مثلها ، ثم مزقت قميصها وكشفت عن موضع قلبها ، فغيب فيه بروس حسامه وقد حوّل رأسه ، ففاض الدم ، بحيلة فنية باهرة ، متدفقاً من صدر العذراء الناصع ، وسقطت بجياء وخفر منحنية وقد نكس رأسها ، وغارت عيناها من تأثير الموت وهوله .

كفّن المحاربون الضحية وغطوها بالزنبق وشقائق النعمان في برهة ملء الجو فيها بصيحات الفرع والأنين والتأوهات . فتهض بافئوس واعتلى مقعده وتنبأ بصوت جهوري كالرعد ، هذه النبوءة :
— أيها الذين كفروا وعبدوا الشياطين ! أيها الأريوسيون ، وأنتم أشد طغياناً من الوثنيين ! تعلموا ! ان ماترون الآن إن هو الأمثال ورمز ، هي خرافة تشتمل مغزى دينياً سامياً . فان المرأة التي متلت أمامكم التضحية سوف تقبل الموت باغتباط في سبيل الآله المبعوث (١) ...

ولكن الجموع كانت قد تسابقت الى الخروج كاللوج الزاخر ، واستطاع كاهن أنصينا أن يتخلص من دوريون المذهول فانطلق وهو لا يزال يردد نبوءته .

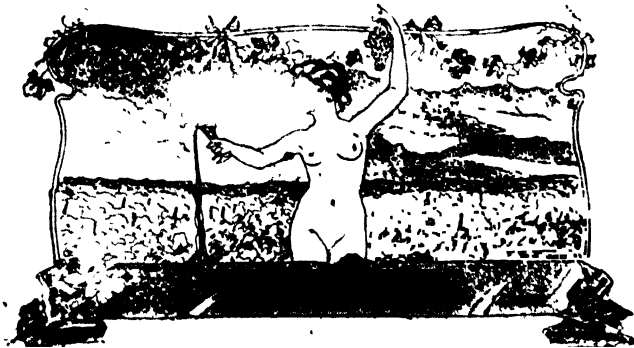


وبعد ساعة من الزمن طرق باب تاييس .
وكانت الممثلة تسكن بيتاً محاطاً بمجنات وارقة الظلال فيها
صخور صناعية ينساب في وسطها غدير مزدان بأشجار الحور ، في
حي راكوتيس بقرب قبر الاسكندر .
ففتحت له الباب جارية سوداء شمطاء مثقلة بالحلي ، وسأله عما
يريد ، فأجابها :

— اروم رؤية تاييس ، والله يشهد اني ما أتيت الى هنا
الآن لرؤيتها .

وأبصرت الجارية أنه يلبس ثوباً فاخراً ويتكلم بأبهة السيادة
فسمحت له بالدخول وقالت :

— نجد تاييس في كهف العذارى





ولدت تاييس من أبوين فقيرين ، وثنين . وفي أيام حداثتها
كان أبوها يدير حانة على مقربة من باب القمر بالاسكندرية يتردد
اليها البحارة . فرسخ في ذهنها تذكارات أمور كثيرة عن الحانة
وما يتعلق بها . كانت تذكر أباه وهو متربع في زاوية البهو ،
طويلاً ، مهيأً ، هادئاً كأنه أحد اولئك الفراعنة الذين كان العمي
المتسولون يجدونهم في أغانيهم المحزنة وهم جالسون في مفارق الطرق .
وتذكر أيضاً أمها النحيلة المكتئبة تذرع البيت وتطوف به كقطعة
جانعة ، يملأه صوتها المنكر رعباً ، وعيناها البراقتان شرراً . وقد شاع
عنها في الضاحية انها ساحرة تتحول في الليل الى بومة لتساق

عشاقها ! على أن هذه الاشاعة زور وبهتان ! فقد تحققت تاييس من ملاحظتها الدائمة لأنها لم تشتغل قط بفنون السحر ، ولكن لشدة تفانيها في الشح والجشع كانت تقضي سواد ليالها تحصي دخل يومها .

فأبوها الفاتر الهمة ، وأمها البخيله ، كلاهما ألقيا حبلاهما على غاربها ، وتركاهما كدجاجة في حظيرة الطيور البيتية ! فمهرت مهارة لا تجارى في سلب دراهم البحارة السكارى ، تناولها من أحزمتهم وهي تباسطهم بالأغاني الصبيانية ، والكلمات الشنيعة التي كانت تجبل معناها . وكانت تنتقل من ركبة الى ركبة في القاعة المتشعبة برائحة الخمر والقرب الراتنجية ، ثم تعود ويدها الصغيرتان قابضتان على الدريهمات ، ووجهها مندبى برشاش الجمعة المتطاير ، مخدش من اللحي الكثية ، وتجري لشراء أقراص الشهد من امرأة عجوز جالسة في كُنية تحت باب القمر

وهذه المشاهد كانت تتكرر كل يوم . فيذكر البحارة ما لاقوه من الأخطار في أثناء اشتداد العاصفة ، ثم يلعبون النرد والكعاب ، ويطلبون ، وهم يجدفون ، أحسن جعة كليلة .

وكانت الطفلة تاييس تسنيقظ كل ليلة على شغب السكارى وعراكمهم ، وعلى ما ينساقط فوق الوائد من قذائف المحار وسط

الصخب والضجيج المتعالي ، وترى بعض الأحيان ، على ضوء المصاييح الكثيرة الدخان ، المدي تلمع والدم يسيل ...

ولم تعرف الطيبة البشرية في ريق عمرها إلا في شخص « احمس » الذي كانت تقاسمه المذلة . وأحمس هذا عبد البيت وهو نوبي أشد سواداً من القدور التي يعني بفركها وتنظيفها ! لكنه كان طيباً كالليل الذي يقضى في نوم عميق لا يتخلله سهاد ! وطالما وضع تاييس على ركبته يقص عليها قصصاً عن مغاور مملوءة كنوزاً وقد بُنيت للملوك أشحاء أعدموا الذي بنوها لهم ! وكان في تلك القصص أيضاً لصوص حُذّاق يتزوجون من بنات الملوك ، وسراري يبنين اهراماً !

فأحبت تاييس الصغيرة أحمس حب الطفلة للأم والاب والمرضع والكلب ! تعلقت بالعبد وكانت تتبعه الى قبو دنان الخمر وحظيرة الدجاج بين الفراخ الضامرة المنتفشة التي ترفرف طائرة امام مدية الطامي الزنجي أسرع من فراخ النسر ! وفي كل ليلة تقريباً ، كان يصنع لتاييس الطواحين والسفن بحجم راحة اليد ، وفيها كل معداتها .

وكانت إحدى أذنيه مصلومة من سوء معاملة سادته له ، وقد غطت الندوب جسده ، ولكن كان على وجهه مسحة الطمأنينة

والانبساط ، ولم يخطر لأحد أن يسأله من أين استمد عزاء النفس
وراحة الضمير ، فقد كان ساذجاً كالطفل ، وكان وهو يؤدي عمله
اليومي الشاق ينشد بصوت أجش أناشيد تبعث في نفس الفتاة
الرجفة والأحلام .

كان يترنم مسروراً بصوت جهوري يقول :

« — حبرينا يا مريم . ماذا رأيت حيث كنت ؟ »

« — رأيت الكفن ، ونسيج الكتان ، والملائكة حالسين عند القبر ،
وشهدت محمد المبعوث . . . »

فسأله تاييس مرة :

— لماذا تتغنى يا ابت بقولك : « الملائكة جالسون عند

القبر ؟ »

فأجابها :

— أيتها الصغيرة ، يا نور عيني ! انى أتغنى بذكر الملائكة ،

لأن سيدنا المسيح قد صعد الى السماء

كان أحسن مسيحياً ، معمداً . وفي اجتماعات المؤمنين التي
بمخضرها سرّاً في الوقت المعين لنومه ، كان معروفاً باسم تيودور .

في ذلك العهد كانت الكنيسة تقاسى اكبر البلاء ، وأشد

الاضطهاد . فبأمر الامبراطور هُدمت الكنائس ، وأحرقت الكتب المقدسة ، وصهرت الأوعية الطاهرة والمسارج ، وجرد المسيحيون مما ملكت ايماهم ، وما كانوا يتوقعون سوى الموت . وساد الرعب طوائف الاسكندرية وبلاد العرب وبين النهرين وغيرها من بلدان الامبراطورية الرومانية . وسُلّطت السياط ومطايا التعذيب والمخالب الحديدية والوحوش الضارية على الاساقفة والعداري فمزّقهم شر ممزّق . فانقضَّ أنطوان ، زعيم المؤمنين الذي كان مشهوراً في مصر بزهده وتقواه ، انقضاض النسر على مدينة الاسكندرية ، وخفَّ من كنيسة الى كنيسة يشدد عزائم المؤمنين ، ويث في قلوبهم روح الشجاعة والقوة والايمان والصبر على المكاره ، وكان اضطهاد العبيد على الخصوص بالغاً أشدّه ، فارتدَّ كثيرون منهم لما أصابهم من الجزع ، وهرب آخرون الى الصحراء بأمل أن يعيشوا فيها نساكاً زاهدين ، أو لصوصاً ناهبين !

أما أحس فظل مع هذا كله يغشى كعادته المجتمعات ويختلف اليها . فزار المسجونين ، ودفن الشهداء ، واعترف وجاهر بمتبهجاً بدين المسيح . ولما شاهد أنطوان العظيم ، قبل رجوعه الى الصحراء ، هذه الحمية الصادقة ، احتضن العبد الاسود ومنحه قبلة السلام . . .

ولما بلغت تاييس السابعة ، بدأ أحس يحدثها عن الله ، قال :
« - ان الله سبحانه وتعالى قد عاش في السماء ، كفرعون ، في
خيام حريمه ، وتحت أشجار جناته . وهو أزلي منذ الازل لابتداء
له . وليس له من ولد سوى الامير يسوع الذي يحبه بكل قلبه ، والذي
يفوق بمجاليه العذارى والملائكة جميعاً

وقال الله للامير يسوع :

« - اترك حريمي وقصري ونخيلي وأنهاري وانزل الى
الارض لخير البشر . ستكون فيها كطفل صغير . وتعيش فقيراً بين
الفقراء . سيكون الألم خبزك اليومي ، وستدرف دموعاً غزيرة تجري
أنهاراً يستحم فيها العبيد المرهقون مبهجين - اذهب يا بني ! »
فأطاع الأمير يسوع وهبط الى الأرض بمكان يسمى بيت لحم في
أرض الموعد وسار في الرياض المنمقة بشقائق النعمان قائلاً لصحبه :

« - طوبى لأولئك الجياع لأني سأجلسهم على مائدة أبي !
طوبى لأولئك العطاش لانهم سيشربون من عيون السموات !
طوبى لأولئك الذين سيكون لاني سأرقى دموعهم بنقب أبداع من
نقب القيان ! »

لهذا أحبه الفقراء وآمنوا به ، لكن الاغنياء مقتوه خشية أن
يفضل الفقراء عليهم

« وفي ذلك العهد كانت كليوباترا وقيصر قوة في الارض
لا تتحدى ، وكلاهما كرها يسوع وأمر الحكام والكهنة أن يقتلوه .
فنصب أمراء سورية ، اطاعة للملكة مصر ، صليبا فوق جبل عال
وصلبوا المسيح عليه . بيد أن النساء غسلن جثته ودفننه . ثم قام الامير
يسوع من الاموات ، وخرج من قبره ، وصعد الى الله أبيه . »
ومنذ ذلك العهد يصعد الى السماء كل الذين يستشهدون
في سبيله .

يفتح الرب سبحانه ذراعيه ويقول لهم :
« — على الرحب والسعة ، لأنكم تحبون ولدي الامير ! اغتسلوا
ثم كلوا ! »

« فيستحمون على أنغام الموسيقى الشجية : ويرون في اثناء الطعام
رقص القيان ، ويصفون الحكايات ما إن لها من ختام ! وهم لدى
الله الرؤوف أعزّ عليه من نور عينيه ، لأنهم ضيوفه . وسيكون من
نصيبتهم طنافس قصوره ورمان جناته ! »

ضرب أحسن في أقواله على مثل هذه الأوتار الحساسة ، وهكذا
علم تاييس الحق واستهوها ، فقالت معجبة :

— أود لو آكل من رمان الله تعالى !!

فأجابها أحس :

« - ان الذين عُمِدُوا في يسوع يذوقون وحدهم فاكهة السماء »
فطلبت تاييس أن تتعمد ، ولما رأى منها إيمانها بيسوع قرّر رأيه
على أن يعن في تهذيبها ، حتى اذا عُمِدَتْ أمكن أن تنضمّ الى
الكنيسة . واشتد حبه لها كابنته الروحية .

وكانت تاييس منبوذة من والديها الظالمين ، فلم يكن لها فراش
تحت السقف الابوي ، فنامت في زاوية من الاسطبل بين الانعام ،
وهناك وافاها أحس سرّاً تحت جناح الدجى ، واقترب بخفة من القش
الذي افترشته ، وجلس على كعبيه ، مزدوج الساقين ، معتدل القامة ،
جلسةً يتوارثها الخلف عن السلف من ابناء جنسه ، واختفى وجهه
وجسده المتشح بالسواد ، في الظلمات . ولمعت عيناه الكبيرتان
البيضاوان وانبعث منهما نور كشعاع الفجر المنبعث من شقوق الباب
ثم تكلم بصوت أجشّ مؤثر ، فيه نغمة الموسيقى الحزنة التي
تُسمع عند المساء في الطرقات . . .

وفي بعض الاحيان كان نهيق حمار أو خوارثور يصحب صوت
أحس وهو يرثم آيات الانجيل ، فيتألف من امتزاجها نغم موسيقى
كأنه صادر عن جوقة ملحنين للارواح الغير المنظورة !!

تدفقت كلماته بهدوء في جنح الظلام ، ممزوجة بالحاسة والرحمة والأمل ... فشدت المتنصرة يدها على يد أحس وقد اطمأنت لهذه الانتقام التي تجري على وتيرة واحدة ، وسكنت نفسها لصور مخيلتها المبهمة ، فأخذ الكرى بمعاقد اجفانها ، فنامت وادعة باسمه بين ايقاع الحان الديجور والاسرار القدسية ، تحت ضوء نجم بزغ من ثقب في سقف الاسطبل .



استغرق تعليمها الأولي حولاً كاملاً ، حتى جاء الموسم الذي يحتفل فيه المسيحيون وهم فرحون بعيد الفصح . ففي ليلة من ليالي ذلك الاسبوع المجيد ، كانت تاييس نائمة على حصيرتها في القبو ، فشعرت بأن العبد قد حملها وعيناه تسطعان بنور غريب ، ولم يكن كمادته في سرواله الممزق ، بل كان يرتدي عباءة طويلة بيضاء لف بها تاييس قائلاً لها بصوت خافت .

— تعالي يا روحى ! تعالي يا عيني ! تعالي يا فؤادي ! تعالي
ارتدي ثوب التعميد !

ثم حملها ضامماً إياها إلى صدره ، وكانت خائفة لكنها تواقّة الى الاستطلاع ، فأخرجت رأسها من العباءة وطوقت عنق صديقها بذراعيها ، وقد جرى بها يشق حجاب الظلمات .

سارا في دروب ضيقة واجتازا حي اليهود ومرّا أولاً بمقبرة
انبعث منها صياحُ العقاب الرهيبة ، ثم بفرق طرق علقت فوق صلبانه
أجساد المعذبين وقد حطت على أذرعهم الغربان الناعقة تنقرها .
خبايا تاييس رأسها في صدر العبد ، ولما فتحت عينيها رأت نفسها
في كهف ضيق مضاء بشعل راتنجية ، منقوش الحيطان بصور كبيرة
تظهر في دخان المشاعل كأنها أحياء تتحرك . . . وهي صور رجال
مرتدين جلايب طويلة يحملون السعف في وسط حملان وحمام
وغصون كرم .

وعرفت تاييس من بين هذه الاشكال يسوع الناصريّ
بشقائق النعمان المزهرة عند قدميه . وفي وسط القاعة ، بقرب جرن
المعمودية المملوء بالماء ، وقف شيخ هرم مرتد حلة قسيس قرمزية
مطرزة بالذهب وعلى رأسه تاج أسقف ، وقد تدلت من وجهه
النحيف لحية طويلة ، وعلى رغم حاته الفاخرة ، كانت تلوح عليه
سيماء التواضع ودماثة الخلق . ذلكم المطران ثيقاتوس الذي كان
أميراً مبعداً من كنيسة برقه واصبح الآن ينسج من شعر المعز قماشاً
صفيقاً ليقيم صلبه . وقد وقف بجانبه غلامان فقيران ، وعلى مقربة
منه حملت عجوز زنجية ثوباً صغيراً أبيض . فأنزل أحس البنات الى
الأرض ، وركع امام الاسقف وقال :

- هذه هي يا ابي النفس الصغيرة ، ابنة روحي ، احضرتها لك حتى اذا ما راقى سيادتك أنعمت عليها حسب وعدك بمعمودية الحياة فهدّ المطران ذراعيه وأظهر يديه المشوهتين ، اللتين نُزعت أظافرهما عقاباً على جهره بالايمان في ايام المحن والاضطهاد . فأوجست تاييس خيفة والقت بنفسها في حضن أحسن ، لكن الكاهن لاطفها وسكّن روعها بقوله :

- لا تخافي أيتها الطفلة المحبوبة ، فان لك هنا أباك الروحي الذي يدعى بين المؤمنين تيودور ، ولك أم صالحة ترعاك ، وهي التي خاطت لك يديها ثوباً أبيض .

ثم التفت الى الزنجية وقال :

- انها تدعى « نيتيدا » وهي على هذه الأرض جارية ، لكن يسوع سيرفعها في السماء الى صف عرائسه !

ثم سأل الطفلة المنتصرة :

- أتؤمنين يا تاييس بالله الأب القادر على كل شيء ؟ وبابنه الوحيد الذي مات في سبيل خلاصنا ؟ وبكل تعاليم الرسل ؟

فأجاب الزنجي والزنجية ، اللذان كانا قابضين على يديهما ، بالاجاب

وطبقاً لأوامر الأسقف ركعت نيتيدا ونضت عن تاييس ثيابها كلها ، فصارت عارية الأ من رقية في عنقها ، ثم غطسها المطران ثلاث مرات في جرن المعمودية ، ومسحها بالزيت ووضع ذرة من الملح على شفتيها ، وبعد تنشيف جسدها الذي كان معداً بعد بلاء شديد للحياة الخالدة ، ألبستها نيتيدا الثوب الأبيض نسيج يديها . ثم منحهم الأسقف جميعاً قبة السلام ، وانتهت الحفلة فترزع حلته الكهنوتية .

ولما صاروا جميعاً خارج السرداب قال أحس :

- ينبغي أن نغبط بتقدمنا اليوم نفساً لله ، فهلم نذهب الى منزل سيادتكم وتقضي بقية الليل بالحبور
فأجاب المطران :

- أحسنت يا تيودور

ثم قادهم الى داره القريبة منهم وكانت مؤلفة من حجرة واحدة متاعها نولان ، ومنضدة كبيرة ، وسجادة بالية .

فصاح النوبي عند دخولهم :

- هات يا نيتيدا الموقد وجرة الزيت . وانطهين اكلة هنيئة !

قال هذا وأخرج من تحت عبائه بعض السمك ، واشعل ناراً وأخذ يقيه . وجلس الاسقف والطفلة والغلامان والعبدان في دائرة فوق السجادة ، واكلوا السمك المقليّ وحمدوا الله .

وتكلم فيقانتوس عما عاناه من الآلام المبرحة ، وبشر بفوز الكنيسة القريب . وكانت لغته جافة غير أنها فائضة بالمجازات الفصيحة والنكات البديعة . وشبه حياة الاستقامة بنسيج ارجواني موتى . قال في شرح سرّ العماد :

— ان الروح القدس يطفو فوق المياه ، ولهذا يتلقى المسيحيون عماد الماء ، غير أن الشياطين يسكنون ايضاً الغدران ، كذلك الناييع المخصصة للحوريات خطرة مخوفة ، ومن المشاهد أن بعض المياه يسبب امراضاً مختلفة للنفس والجسد .

وفاه في بعض كلامه بأحاجي ومعميات ملكت على البنت مشاعرها تهيباً واعجاباً ! وبعد الفراغ من الطعام قدم لضيوفه شيئاً من النبيذ فانطلقت السنتم من عقالها وأخذوا ينشدون ويسبحون . ثم نهض أحس ونيدياً ورقصا رقصة نوبية تعلمهاها في صباها ، وكانت بلاريب سائعة في القبيلة منذ قديم الزمان . وهي رقصة غرامية ، يكون فيها تحريك الأذرع والجسد بأكمله ، ثم الاحتيال

بالتأوب على الهرب ، ثم اقتفاء الأثر . فأدارا عيونهما الكبيرة واطهرا
أسنانهما اللامعة وهما يتسلمان

كذلك تلقت تاييس التعميد القدسي



هامت تاييس بحب اللهو والمرح ، وتولدت في نفسها ، وهي تنمو
وتكبر ، رغبات مبهمه وأهواء... فكانت ترقص وتغني سحابة
نهارها مع أولاد الشوارع المتشردين ، وفي الليل تعود الى بيت أبيها
وهي لا تزال تغني ...

ثم أخذت تفضل صحبة الصبيان والبنات على صحبة أحسن
الرفيق الرزين ، فلم تلحظ أن صديقها قد قلَّ اجتماعه بها . وكان
الاضطهاد قد انقطع وأصبحت محافل المسيحيين أكثر انتظاماً ،
فأخذ النوبي يحضرها على الدوام . وزادت حميته اشتعالاً ، وكان
في بعض الاحايين يفوه بكلمات تنذر بالوعيد كقوله « ان الأغنياء
سوف يفقدون أموالهم ! » وذهب مرة الى الساحات العامة حيث
اعتاد فقراء المسيحيين أن يجتمعوا ، وهناك جمع البائسين الراقدين
في ظل الجدران العالية وبشرهم بتحرير الأرقاء ودنويوم
العدالة ، قال :

- سوف يشرب الأرقاء في ملكوت السموات خمرًا صافية

ويأكلون فاكهة لذينة ، على حين أن الأغنياء يكونون جائنين عند أقدامهم كالكلاب يلتقطون فتاة موائدهم !

لم تبق هذه الأقوال في طي السكتان ، بل ذاعت في نواحي المدينة كلها ، وخشي السادة أن يغري أحس عبيدهم بالتمرد ، وحقده صاحب الحانة عليه حقداً بالغاً ولكنه كتم عنه حفيظته .

ففي ذات يوم اختفت من الحانة مملحة من الفضة مخصصة لمائدة الآلهة .. فاتهم أحس بسرقتها نكاية في سيده وفي آلهة الأمبراطورية . وكان الاتهام بغير دليل على الإطلاق ، وانكر العبد التهمة بكل قواه . على انه سيق الى المحكمة ، وحكم عليه القاضي بالموت ، إذ كان على زعمهم عبداً رقيقاً لا قيمة له ولا اعتبار . وقال له .

— سنسمر في صليب يداك اللتان لم تعرف كيف تحسن استخدامهما .

فسمع أحس الحكم بهدوء ، وحتى القاضي باحترام فائق ، وقيد الى السجن العام . وفي أثناء الثلاثة الأيام التي قضاها فيه ظل يكرز بالانجيل للمسجونين ، وقيل انه في وقتها تأثر المجرمون والسجان نفسه بكلماته وآمنوا بالمسيح المصلوب .

ساقوه الى أحد تلك المفارق التي مرّ بها فرحاً مغتبطاً ذات
ليلة منذ أقل من عامين ، حاملاً تحت عباءته البيضاء تاييس الصغيرة
ابنة روحه ، وزهرته المحبوبة .

ولما صلب وسمرت يده لم يتأوه ولم ينبس بينت شفه ، غير
انه تتم قائلاً : « ظمآن ! اني ظمآن ! »

ودام كربه ثلاثة أيام بلياليها . ولا يكاد المرء يصدق أن
الجسد البشري يستطيع أن يتحمل مثل هذا العذاب الطويل ،
حتى ظنّ مراراً أنه مات . وكان الذباب قد التهم بعض جفنيه ، بيد
أنه مالبث ان فتح عينيه الداميتين بغتةً . وفي صبيحة اليوم الرابع
غنى بصوت جهير ، أرق من صوت الأطفال :

— خبرينا يا مريم ماذا رأيت حيث كنت ...

ثم ابتسم وقال :

— ها هم ملائكة الله مقبلون ... ! يحملون إليّ خمرًا واثماراً
... لله ما أندى حفيف أجنحتهم ...

وأسلم الروح

وظلّ وجهه وهو ميت مشرقاً بأنوار السعادة الأبدية ، فكان
موضع إجلال الجنود الذين كانوا يحرسون الصليب . وأتى

ثيقاتوس مصحوباً ببعض الاخوان المسيحيين في طلب الجثة لدفنها بين بقايا الشهداء في قبر القديس يوحنا المعمدان . واحتفظت الكنيسة منذ ذلك الحين بذكر القديس « تيودور النوبي » الموقر وبعد ثلاث سنوات أصدر قسطنطين ، فاتح ما كسانس ، مرسوماً أتمن فيه المسيحيين .

وكانت تاييس قد بلغت من العمر إحدى عشرة سنة حين مات صديقها معذباً ، فشعرت بحزن عميق وجزع شديد . ولم تكن روحها من السموة بحيث تدرك أن العبد أحسن كان هائئاً جداً الهناء بحياته وموته على السواء . وتولد في ذهنها الضيق أن في استطاعة المرء أن يكون في هذه الدنيا صالحاً ولكن ذلك يكلفه عناء التباريح والآلام ، فخافت أن تكون صالحة لأن جسدها الفضة الرقيق لا يحتمل آلام الصلاح !

وكان لها ، قبل الأوان ، عشاق من صبيان المرفأ ، وكانت تتبع الرجال المسنين الذين يطوفون في المساء في ضواحي المدينة مفسدين ، وتشترى بما ينفخونها به ما تشتهي من الحلوى وأدوات الزينة . .

وأساءت أمها معاملتها لأنها لم تكن تأخذ الى البيت شيئاً مما تربحه من النقود . فكانت كثيراً ما تهرب وتجري حافية الى أطلال المدينة لاجتناب صفعات أمها ، وتختبئ مع الهوام في شقوق

الأحجار . وهناك كان يخامرها حسد النساء اللواتي تراهنّ مارّات متبرّجات في أبهة وبهاء ، محمولات في محفّاتهن على اكتاف الارقاء .
وفي ذات يوم نالها من الضرب فوق المعتاد ، فخرجت وانطرحت عند بوّابة المدينة ، نائرة النفس واجمة . وبينما هي على هذه الحال واذا بامرأة عجوز قد وقفت أمامها ونظرت اليها ملياً وهي ساكتة ثم قالت :

— يا لك من زهرة حسناء أيتها الطفلة الفتانة ! ما أسعد أباكِ
الذي أوجدك وأمك التي ولدتك !
فلبثت تاييس صامته مطرقة وقد احمر جفناها من كثرة البكاء
فعادت العجوز تقول :

— يا زنبقتي البيضاء ! أليست أمكِ سعيدة الجد لأنها
أرضعت معبودة صغيرة مثلك ؟ أوليس أبوك مغتبطاً من صميم
فؤاده برويتكِ ؟

فأجابت الطفلة كأنها تحدث نفسها :
— أبي زقّ متنفخ من الصهباء ، وأمّي عاقّة شرهة !
فنظرت العجوز ذات اليمين وذات الشمال لتستوثق أن ليس
عليها رقيب ، ثم قالت متلطفة

— أيتها السوسنة النضرة ذات البهاء ! أيتها الحسناء التي تشرب
النور وتنهل الضياء ! تعالي معي ، وستكون حياتك سلسلة متصلة
الحلقات من الرقص والابتسامات ! سأطعمك الشهد ، وسيعجبك
ابني ، ابني الصميم ، حبه لعينيه ! وانه لفتى لو علمت غضُّ الالهاب
في شرخ الصبا ، فاتن الحيا ، ليس له في ذقه إلا لحية خفيفة ، وجلده
ناعم بضّ ، وانه لحنّوص^(١) من خنايص أشارنيه !

فأجابت تاييس :

— خذيني ، اني ذاهبة معك !
ثم نهضت وتبعت العجوز الى خارج المدينة .



كانت هذه المرأة ، وتدعى « مروا » ، تأخذ البنات والصبيان
من بلد الى بلد وتعلمهم الرقص ثم تؤجرهم بعدها لسراة القوم ليرقصوا
لهم في الولائم والحفلات

ولما رأت أن تاييس ستغدو عما قليل أجل النساء ، علمتها
الموسيقى والغناء ، مستعينة على ذلك بالسوط . وكانت تجلد ساقها
البديعتين بسيور من الجلد اذا لم تقف عند سماع نغمات القيثارة .
أما ابنها فكان ثمة اجهاض ، سقطاً لا تبدو عليه حقيقة سنه ،



❖ تاييس الراقصة ❖

ولا يميز الناظر اليه كنهه جنسه ! وكان ينتهر الفتاة ويصب على رأسها جام حقه على النساء جميعاً . ولما كان ينافس الراقصات متكلفاً رشاقهن ، فقد تعلمت منه تاييس فن التمثيل الايمائى الصامت والتعبير عن العواطف الانسانية بواسطة ملامح الوجه والهيئة والوضع وامتازت بتمثيل أهواء الغرام . ولقد محضها ، على كره منه ، نصح استاذ ماهر . بيد انه كان يغار من تلميذته ، فيخدش خديها ويقرص ذراعيها أو يخنسها بأبرة في ظهرها حين كان يتضح له أنها خلقت لأمتاع الرجال !

وبفضل هذه الدروس أتقنت في زمن قصير فنون الموسيقى والتمثيل الصامت والرقص . ولم تدهشها قط فظاظة معلمها ، اذ لم تكن ترى أية غرابة في أن تهان وتساء معاملتها ، بل شعرت بشئ من الاحترام نحو تلك الموسيقى المعجوز التي تجرع النبيذ الاغريقي ! ولما جاءت « مروا » مدينة أنطاكية ، اطنبت في مدح تلميذتها ، كراقصة عازقة ، لوجوه المدينة وأعيانها الموسرين الذين كانوا يقيمون المآدب .

رقصت تاييس فالت الاعجاب ، وأخذها السراة بعد انفضاض الولاثم الى أحراج نهر العاصي ، فسلمت نفسها للجميع من دون أن تعرف للحب ثمناً . ولكن حدث ذات ليلة بعد أن رقصت أمام أظرف

شبان المدينة ، ان اقترب منها ابن الوالي يتوثّب فتوّة ، ويختال
عزّة ، وقال لها بصوت كأنه مرطّب بالقلّبل :

— لينني التاج المنعقد على مفركك يا تاييس ! لينني القميص
المزروور على جسمك البديع ! لينني نعل قدمك الجميلة ! اني أروم
ان تطأي بقدميك هامتي ، وأن يكون قميصك وتاجك من عناقى
وقبلاتى . فتعالى أيتها البنية المليحة ، تعالى الى بيتى ، ولننسّ العالم !
نظرت الىه وهو يتكلم ، واستبان محاسنه ، فشعرت على
الفور بالعرق يثّاج جبينها ، واستحال لونها كالعشب اخضراراً .
ترنحت وانتشرت على عينيها غشاوة . فتوسل اليها ثانية أن تتبعه
فرفضت ، ولم تغنه نظرات اللوعة وكلمات الحب فتيلاً . ولما أخذها
بين ذراعيه ليسير بها على رغبها دفعته بخشونة ، فعاد يتوسل اليها
ويتضرع وهو يذرف أمامها الدموع ويريق العبرات ، فامتنعت عليه
بسلطان قوة مجهولة لا تقاوم . فقال المدعوون :

— تبّاً لها من زمّارة حمقاء ! انها تنبذ لوليوس الفتى النبيل الغني
الجميل !

عاد لوليوس وقد كواه الهوى سواد ليله بناره ، وفي الصباح
ذهب ممتّع اللون ، أحمر العينين ، وعالق الزهر فوق باب الموسيقىارة ،

وكان الهم والضجر قد اعتريا تاييس، فأعرضت عن لوليوس . على انها كانت تتخيله دائماً . تأملت ولم تدرس شيئاً ما تشكو منه . سألت نفسها لماذا تغيرت هكذا ، ومن أين دَهَمَتها الكتابة ؟ ردت كل عشاقها لأنهم أزعجوها ، وعافت رؤية الضياء فلبثت سحابة نهارها مضطجعة في فراشها ورأسها غارق في الوسائد . ثم تهيأت للوليوس وسائل اقتحام بابها ، وأتى عدة مرات يرجو ويلعن تلك البنت العنيدة ، فلبثت في حضرته خائفة كعذراء بتول ، وأصرّت على قولها:

— لا أريد ! لا أريد !

وبعد خمسة عشر يوماً وهبته نفسها ، اذ شغفها حباً . فذهبت الى بيته وعاشت معه ، وكانت ثم حياة لذيذة . فكانا يقضيان النهار في خلوة يتحدث كل منهما في عيني صاحبه ، ويخاطب أحدهما الآخر بكلمات لا يقولها سوى الاطفال . فإذا جاء المساء تنزها على ضفتي نهر العاصي الخاليتين ، وضلاً السبيل غير مرة في الأجراس . واستيقظا أحياناً عند الفجر ليذهب القطف السوسن فوق منحدرات « سلييكوس » . وشربا من كأس واحدة ، وكانت اذا رفعت الى فخا حبة غنّب تناولها بأسنانه من بين شفثيها !

أتت « مروا » بيت لوليوس تطلب تاييس بصيحات عالية قائلة:

- ابنتي ! ابنتي التي أُخِذَتْ مِنِّي عَنوةً ! زهرتي المعطرة ؟
حشاشة فؤادي وفلذة كبدي !

فصرفها لولايوس بعد أن أجزل لها العطاء . لكنها لما عادت
تلحف في طلب المزيد من قِطْع الذهب بعث بها الفتى الى السجن ،
وحققت الأحكام جرائم عديدة اتهمت باقترافها ، فسيقت الى الموت
وطرحت طعاماً للوحوش الضارية

أحبت تاييس لولايوس بكل ما فيها من هياج التصوّر وسذاجة
الفس ، وقالت له من أعماق قلبها :
- لم ينل أحد مني ما نلته !
فأجابها لولايوس :
- أنك لا تشبهين أية امرأة في الوجود !

وظلَّ السحر ستة أشهر . ثم انحلت يوماً طلاسمة ، فأحست
تاييس فجأة بنفسها خالية وحيدة . ولم يبق لولايوس في نظرها لولايوس
الذي احبته . وفكرت :

- كيف تغيرتُ هكذا في طرفة عين ؟ وكيف تغير لولايوس
حتى انه صار في نظري مثل سواه من الرجال ولم يعد مثل نفسه ؟

ثم هجرته ، وبفؤادها رغبة خبيثة في أن تجدد لوليوس في انسان آخر ما دامت لا تجده فيه نفسه . وخيل اليها ايضاً ان الحياة مع انسان لم تحبه قط أيسر خطباً منها مع انسان صارت لا تحبه . وصحبت المترفين من ابناء المسرات والفجور في تلك الولائم الدينية ، حيث كانت ترقص في المعابد نخبة من العذارى العاريات ، وتقطع السراري نهر العاصي سباحات . واشتركت في جميع الملاحي التي أقامتها المدينة البديعة الفاسقة . واكثرت من التردد على دور التمثيل حيث كان الممثلون الايمانليون يأتون من كل حدب وصوب لتمثيل أدوارهم بين تهليل الجماهير الظالمة الى اللهو والامع .

عنيت بدرس حركات الممثلين والراقصين ، لا سيما الممثلات اللاتي كن يمتلن في الروايات الفاجعة أدوار الرباط عاشقات الشبان ، أو المخلوقات الهائمات بحب الأرباب . وبعد أن علمت السر الذي به خلبن لب الجمهور ، توقعت ان تبرزهن لأنها كانت تفوقهن حسناً ودلالاً .

فحضت الى رئيس الممثلين وسأله أن يلحقها بفرقة . وبفضل جمالها ، والدروس التي تلقتها من « مروا » المعجوز . قبلت وظهرت على المسرح في دور « ديرسيه » ، فلاقى نجاحاً ضئيلاً لأنها كانت مفتقرة الى المران ، ولأن جمهور المشاهدين لم يشوق الى مراها

بالاطاب في محاسنها والثناء عليها قبل ظهورها على المسرح . ولكن لم تمضِ بضعة أشهر حتى انفجر بأس جمالها على مسرح التمثيل بقوة اهتزت لها المدينة من أقصاها إلى أقصاها ، فهرع اهل انطاكية الى الملعب حتى اكتظ بهم . واضطرت قوة الرأي العام زعماء الأمبراطورية وقضاها ورؤساء البلد الى الظهور هناك . وحرّم الحمالون والكناسون وعمال الميناء أنفسهم الثوم والخبز ليدفعوا اجرة مقاعدهم ، ومدحها الشعراء بقصائدهم ، وخطب في تجميعها الفلاسفة الملتحون في الحمامات والمدارس ، وأشاح عنها الرهبان المسيحيون في أثناء مرورها في محفتها !

تَوَجَّتْ عتبة بيتها بالزهر ونُضحت بالدم . تلقت من عشاقها الذهب بغير حساب ، وزناً وكيلاً ، لا عدداً . وتدقت الكنوز التي ادخراها الكهول الأشحاء عند موطنها ، قدميها كالانهار . لذلك طابت نفساً وقرّت عيناً . ابتهجت لتكريم الجمهور وعطف الآلهة . وهامت بحب نفسها ، لأن الجميع هاموا بحبها !

وبعد أن تمتعت عدة سنوات بحب الأنطاكيين وإعجابهم ، اشتاقت للعودة الى الاسكندرية لتظهر عزتها للمدينة التي ضربت في أرجائها وهي طفلة تجر ذيل الشقاء والحرمان وقد هزلها الجوع والمسغبة ، فكانت هزيلة كالجرادة في وسط طريق مقفر ...

فاستقبلتها المدينة الذهبية بالفرح والترحيب . وغمرتها بالهبات
والعطايا ، وكان ظهورها في الالعب نصراً مبيناً . وسعى اليها جمهور
لا يحصى من المعجبين والعاشقين ، فتلقتهم بفتور وقلة مبالاة ، لأنها
يئست من العثور على من يشغل مكاناً شغله لوليوس من قلبها .



تلقت من بين الجموع الغفيرة الفيلسوف « نسياس » الذي
اشتهاها على مجاهرته بالتجرد من الشهوات . وكان على ثرائه ذكي
الفؤاد دمث الاخلاق ، غير أنه لم يفتنها بحصافة عقله ولا برقة
حاشيته ، فلم تحبه ، بل أغضبته أحياناً تهكماته الرائقة ، وجرحها
بشكوكه الدائمة . لم يكن يؤمن بشيء ، وهي قد آمنت بكل شيء .
آمنت بالعناية الالهية ، وبقدرة أرواح الشر ، وبالرق والتعاويد ،
وبالعدل الأزلي ، وبيسوع المسيح . كما آمنت أيضاً بأن الكلبات
تنبح اذا مرّت الهة جهنم السوداء بمفارق الطرق !! وبأن المرأة
تستطيع ان توحى الحب اذا صبت شراب العشق في كأس تحوي
جزءة شاة مخضبة بالدماء ، وسقته لمن تريده !!!

ظمئت الى المجهول ، ودعت كائنات لا أسماء لها ، وعاشت في
انتظار دائم . روعها المستقبل وأخافها فتطلعت الى معرفته . لاذت

برهبان إيزيس وبالسحرة الكلدانيين ، والعرفان الذين مكروا بها
وخدعوها على الدوام ، ولكنهم لم يتخلوا عنها مطلقاً

خافت الموت ، ورأته في كل مكان . وكانت كلما استسلمت
للذات يخيل اليها كأن أصبغاً مثلوجة قد لمست كتفها العارية ،
فيمتقع لونها وتصرخ من الهلع بين الذراعين اللتين تطوقان خصرها .
قال لها نسياس :

— وماذا يكون لو جرى القضاء بأن تنزل أبيضي الشعر ،
ضامري الحدود ، الى الليل الأبدي ؟ ثم ماذا يكون لو كان هذا
اليوم الذي يتسم لنا الآن في صفحة السماء المبسوطة ، هو آخر أيامنا؟
ماذا يضيرنا يا عزيزتي تاييس ، وماذا يكون ؟ ألا فلنستمرى طعم
الحياة . فسنحيا طويلاً اذا ماشغفنا كثيراً . فلا فطنة في غير الحواس ..
ان الحب هو الفطنة ، أما ما نمجهله فليس لنا به شأن . وما فائدة
إزعاج أنفسنا لغير طائل ؟

فأجابته غاضبة :

— انني أمقت الذين على شاكلك لا يرجون ولا يخافون !
انني راغبة في المعرفة ! راغبة في المعرفة !
أخذت تقرأ كتب الفلاسفة لتقف على سر الحياة ، فلم

تفهمها . وكان كلما تقدم بها الزمن وتباعد ما بينها وبين أيام طفولتها ازدادت تعلقاً بذكرها . فولت بأن تسير تحت ستار الظلام ، وهي متكررة ، في تلك الدروب والمنعطفات والميادين العامة حيث شبت في الشقاء والبأساء . وكم أسفت على فقد والديها ، وبخاصة لانها لم تحظ بلذة محبتها لهما . وكانت عند ما تلقى الرهبان المسيحيين تفكر في عمادها وتضطرب .

وفي ذات ليلة ، بينما كانت تجوس خلال ضواحي المدينة كمادتها ، وهي مرتدية طيلساناً ، وشعرها الأشقر مخبوء تحت قلنسوة سوداء ، ألفت نفسها ، دون أن تعرف كيف كان ذلك ، أمام كنيسة القديس يوحنا المعمدان الحظيرة . فسمعت بداخلها ترتيلاً ، ورأت نوراً ساطعاً منبعثاً من شقوق الباب . ولا عجب ، فقد جعل المسيحيون لعشرين عاماً خلت يحتفلون بأعيادهم علانية تحت حماية « فاتح ما كسانس » وكانت تلك التساييح تنادي الارواح نداً حاراً لا يرد ، فدفعت الممثلة الباب بيدها ودخلت كمدعوة الى المشاركة في الاسرار ، فوجدت جمعاً محشوداً من النساء والاولاد والشيخوخ ، راكعين أمام قبر بجانب الجدار ، ولم يكن هذا القبر سوى خاوية حجرية نقشت عليها أغصان وأعنان نقشاً خشناً ، ومع ذلك فقد نالها من التكريم قسط وافر . فكانت مغطاة بسعف النخل وأكاليل الورد الأحمر . وكان المعبد مناراً بمصاييح لاعداد لها ، تشق أنوارها

الظلام الذى يظهر فيه دخان الصموغ العربية كأنه ثنايا حلل
الملائكة ، وعلى الحائط رسوم كأنها رؤى الفردوس . . . وثم
رهبان في ثياب بيض خرّوا سُجّداً عند مؤخرة الناووس .
وكانت التسابيح التي شاركهم الشعب في ترتيلها تعرب عن بهجة
الآلام ، وكانت مزيجاً من الفرح والحزن بحيث أحست تاييس
وهي مصغية ، بلذات الحياة وغصص الموت تجري معاً في مشاعرها
المستيقظة . . .

ولما أتم المصلون الترتيل ، نهضوا وتوجهوا للتبرك بتقبيل القبر
تباعاً . أولئك كانوا قومًا بسطاء من أهل الحرف اليدوية ، تقدموا
ثابتي الخطى ، شاخصي الابصار ، كليي الأفواه تلوح عليهم سلامة
النية ، جثوا واحداً بعد واحد أمام الناووس والصقوا به شفاهم ،
ورفع النساء الاطفال الصغار على أذرعهن ووضعن خدودهم بلطف
على الحجر .

فدهشت تاييس واضطربت ، وسألت شماساً لم يفعلون ذلك ؟
فأجابها :

— ألا تعلمين أيها المرأة اننا نحتفل اليوم بالذكرى المباركة
للقديس « تيودور النوبي » الذي احتمل العذاب في سبيل الايمان
في عهد الامبراطور ديوقليس ؟ إنه عاش طاهراً ومات شهيداً ،

وهذا هو السبب الذي من أجله قد حملنا الورد الأحمر ونحن في ثياب بيضاء الى ضريحه المكرّم .

فلما سمعت تاييس قوله هذا خرّت جاثية وأجهشت بالبكاء .
عادت الى ذهنها ذكرى أحسن التي كادت تطمسها يد النسيان .
وعلى تلك الذكرى المبهمة ، العذبة ، المؤلمة ، أرسلت أشعة الشموع
وعطور الورد ، وسُحُبُ البخور ، وألحان المزامير ، ومظاهر الخشوع
عزّة الفخر وجمال المجد .

فحدت تاييس نفسها :

— أنه كان ذليلاً ، وها هو ذا جليل القدر ، جميل الذكر !
رُئى كيف رُفِعَ فوق هام البشر ؟ فما هو ذلك الشيء المجهول الذي
فاق الثراء والسراء ؟

نهضت ببطء ، واتجهت الى قبر القديس الذي شُغِفَ بعينها
البنفسجيتين ، العينين اللتين تَلَأَلَتَ فيهما الدموع في نور الشموع ،
ووقفت مطرقة في مؤخرة الجماعة ، خاشعة متباطئة ، ولثمت قبر العبد
بشفتها اللتين علقت بهما شهوات كثيرة . . .

ولما رجعت الى بيتها وجدت نسياناً ينتظرها ، مضمخ الشعر
بالطيب مفكوكاً قميصه ، يقرأ رسالة في الأدب يستعين بها على

مضض الأنتظار . فتقدم للقائها مبسوط الذراعين قائلاً بصوت ضحوك :

— أتعرفين يا تاييس الخبيثة ماذا وجدت اثناء انتظارك في هذا الكتاب الذي كتبه أرزن الرواقين ؟ أهى حكم سامية وسنن عالية ؟ كلا ! رأيت على البردي الحشن ألف تاييس صغيرة ترقص ، وألف تاييس ! وكانت كل واحدة منهم طول الأصبع ، ومع ذلك كان ظرفهن لا يُجدّ ، وكلهن تاييس الفريدة ! كان بعضهن يرفل في حلل من أرجوان وذهب ، وبعضهن يسبح كسحابة بيضاء في نُقُب شفافة ، وأخريات يوحين اللذة بسكونهن في سناء عريهن . وكانت اثنتان منهن متماسكتين بالأيدي ، وهما متشابهتان شَبهاً يستحيل معه تمييز الواحدة عن الأخرى ، ابتسمت كلتاها ، وقالت الأولى « انا الحب » وقالت الثانية « انا الموت » .

قال هذا واحتضن تاييس ، ولم يلحظ انها كانت ترمق الأرض بنظرة وحشية ، فاستمر يحدّثها بما جال في ذهنه من الخواطر والأفكار . وواصل كلامه قائلاً :

— أجل ! لما وقع تحت ناظريّ هذا السطر : « يجب ألاّ يحول شيء بينك وبين تهذيب نفسك » قرأت : « قبلات تاييس آخر من اللهب وأحلى من الشهد » وهذه هي - والذنب ذنبك أيتها الفتاة اللعوب - الطريقة التي أصبح بها الفيلسوف يفهم كتب

الفلسفة ! ولا ريب اننا ، ما دمنا كما نحن ، لن نجد في خواطر غيرنا
الا خواطرنا بعينها ، بل اذا قرأنا كتاباً فنحن نكاد نقرأه كما قرأت
هذا الكتاب ...

لم تكن مُصغية اليه ، لأن ذهنها كان منصرفاً الى قبر النوبي ،
فلما سمعها تنهد أخذ يقبل منابت الشعر من عنقها ، وهو يقول :
- قرّبي عيماً ولا تحزني يا بنيتي ! لا يستطيع المرء أن يكون
سعيداً في هذه الدنيا الا اذا نسيها أو تناساها ؛ ولدينا سرّ ذلك ،
فتعالى نخدع الحياة ! إنها اهل لأن يُمكر بها لأنها تكيل لنا الصاع
صاعين . هلمي تبادل الحب !
فدفعته عنها وصاحت بمرارة :

- تبادل الحب ! انك لم تحب قط إنساناً - أنت ! ولا أنا
أحبك ! كلا ! لا أحبك ! أني أبغضك . أني ألعن السعداء
الأغنياء كافةً وأحتقرهم ! اليك عني فلا فضيلة في الدنيا ولا محبة الاّ
لدى المساكين . لما كنت طفلة عرفت عبداً أسود مات مصلوباً .
كان طيباً ، كان يفيض محبة . وقد حظي بسرّ الحياة . انك لا
تستأهل أن تغسل قدميه . إذهب عني ! فأني لا أريد أن أراك
بعد الآن ..

ثم انبطحت على البساط وقضت ليلتها في أنين ونحيب ، وصمت

من تلك اللحظة أن تقتني خطوات القديس تيودور وتعيش عيشة المتربة والمسكنة .

وفي اليوم التالي عادت الى الملاهي التي كانت قد أعدتها . واذاً عرفت أن جمالها الذي كان لا يزال ساحراً لن يبقى طويلاً ، سارعت الى التمتع به بكل ما يمكن من الابتهاج والاعتزاز . وأظهرت في الملعب عناية لم تظهرها من قبل ، فأحيت بتثيلها تخیلات الحفارين والمصورين والشعراء . وأخذ العلماء والفلاسفة من شكل المشكلة وهيئتها وحركاتها وتخطرها النظام السماوي الذي يسبر الأفلاك ، فأدروا هذا الكمال المطلق في عداد الفضائل ، وقالوا « تاييس أيضاً مهندسة ! » . وباركها الجهلاء والفقراء والأذلاء لقبولها الظهور أمامهم ، وعدّوه نعمة من السماء . لكنها مع هذا الأعجاب والثناء كانت حزينة ، شديدة الجزع من الموت ، ولم يك ثمة ما يستطيع أن يدفع عنها همها وبلبالها ، ولا وجدت عزاء في بيتها وجناتها التي كانت من الشهرة بحيث تُضرب الأمثال بها في المدينة .

غرست في حدائقها الأشجار الغالية التي جلبتها بنفقات باهظة من الهند وبلاد الفرس ، يرونها جدول متفجر وسط صف من الأعمدة المتهدمة والصخور الهائلة المشيدة بيد بناء ماهر ، تنعكس في بحيرة ترسم على مرآتها المجلوة التماثيل التي حولها . وفي وسط

الحديقة يقوم « كهف العذارى » الذي يُعزى اسمه الى تماثيل ثلاث من النساء مصنوعة من الرخام الملون بمهارة وتقنن ، واقفات عند مدخله . وهؤلاء النسوة كنَّ قد نضون ثيابهن ليفتسلن والتفتن قلقات خشية أن يراهن أحد ، وعليهن علامات الحياة . وكان الضوء لا ينفذ الى هذا الحِدر الاً من خلال طبقات المياه الرائقة التي تخففه وتلونه بألوان قزحية . وعلى جوانب الحيطان عاتت ، كما تعلق في المغاور المقدسة ، التيجان واكاليل الزهر والصور المنذورة التي ظهر فيها جمال تاييس وذاع صيته . وكانت هناك أيضاً براقع للاماسة وأخرى للمهزلة ذات ألوان زاهية . وصور تمثل مشاهد مسرحية وأشكالاً هزلية أو حيوانات خرافية . وفي وسط الكهف نُصب فوق عمود قصير تمثال صغير لآله الحب (ايروس) مصنوع من العاج صنعاً قديماً دقيقاً عجيباً ، وكان هدية من نسياس . وثُمَّ عِزّة من المرمر الأسود واقعة في حفرة ، يظهر منها بريق عينيها العقيقتين ، وقد التفت حول ضرعها ستة جداء من المرمر الأبيض ، وقد همت العِزّة بأظلافها ورفعت رأسها الفلّطاح كأنما كلّت وفرغ صبرها من رضاع صغارها . وكأنها تود لو يتاح لها تسلق الصخور .

وكانت الأرض مفروشة ببساط بيزنطي ، ووسائد مطرزة بأيدي الصنفر من أهل كاتاي ، وجلود أسود صحراء ليبيا . وكان

البخور يتصاعد من المباخر الذهبية . وهنا وهناك أُصْص من الجزع
فيها نبات مزهر ، ووراء ذلك كله ، في الظل الارجوانى ، تلمع
أظافر من ذهب لسلحفاة هندية هائلة مقلوقة على ظهرها تُستخدم
كسرير للمثلة .

في هذا المكان ، في كل يوم ، بين خريير الماء ، وشذا الزهور ،
وعبير العطور ، كانت تاييس تضطجع برخاوة واستسلام ، في انتظار
ساعة العشاء ، تتحدث الى أصحابها ، أو تفكر وحدها في شؤون
المسرح ، أو في كَرّ الغداة ومرّ العشى .

• • •

في ذلك اليوم بينما كانت جالسة بعد التمثيل في « كهف
العذارى » ، لاحظت في مرآتها العلامات الأولى لتضاؤل جمالها
وذبول حسننها ، فهاها التفكير في أنه سيحين أخيراً حين الشعر الأبيض
والغضون والتجمدات ، وعبثاً حاولت أن تسكن روعها وتؤمن
خيفتها بقولها لنفسها ، قول الوانق المستيقن ، ان احراق أعشاب معينة
والنطق بتأمم سحرية معلومة تكفي لاعادة نضارتها الاولى ...

واذا بصوت ، لا أثر للرحمة فيه يهيب بها : « ستبلغين يا تاييس
من الكبر عتياً ! ستشيخين تاييسَ ويدركك الهرم ! » فجمد العرق
البارد على جبينها من الجزع ، وطالعت وجهها ثانية في المرآة برقة



(تاييس تناجي مرآتها)

بالغة ، فألفت نفسها لا تزال جميلة فتانة ، جديرة بأن تُعشق وتُشتهى ،
فابتسمت لصورتها وتمتت : « ليس في الاسكندرية كلها امرأة
واحدة يضارع قوامها قوامي اللذن ، ولا من تماثلي في رشاقة الحركات ،
وبهاء الأذرع ، والأذرع ، أيا مرآتي ، هي سلاسل الحب الحقيقية ! »
وإذ كانت تفكر في ذلك رأت رجلاً مجهولاً ، نحيلاً ،
مشتعل العينين ، منتفش اللحية ، مرتدياً ثوباً مزركشاً ثميناً ، واقفاً
أمامها ؛ فأفلتت مرآتها من يدها وصرخت مذعورة
وقف بافنوس جامداً ، ولما رأى مبلغ جلالها ، قدم من أعماق
قلبه هذه الضراعة :

— اللهم لا تجعل وجه هذه المرأة سبباً في غوايتي ، بل سبباً
لهدايتي !

ثم أرغم نفسه على الكلام ، وقال .

— تايبس ! انني من سكان أرض سحيقة نائية ، وقد قادني اليك
صيتُ جمالك . قيل أنك أبرع الممثلات وأقدر النساء ، وكان
قصص ثرائك وغرامك وأهوائك من أساطير الأولين ، تعيد إلى
الذهن ذكرى « رودوبيس » القديمة التي يحفظ ملاحو النيل
تاريخها المعجيب عن ظهر قلوبهم . فاستولت عليَّ الرغبة في معرفتك ،
ولعمري اني أرى الخبر يفوق الخبر ! أنك أعلم وأجمل الف مرة ممّا

ذاع عن علمك وجمالك . والآن إذ أراك أقول ل نفسي : « يستحيل
على المرء الاقتراب منها إلا ويترنح ترنح السكرى »

كانت هذه الكلمات ملفقة، لكن الراهب فاه بها بجرارة صادقة
تحمساً للدين . فنظرت تاييس بغير استياء الى هذا المخلوق الغريب
الذي أخافها وأدهشها بمنظره القبيح الوحشي ، ونظراته الكثيرة
النارية ، فودت معرفة شأن هذا الرجل الذي يختلف كل الاختلاف
عن عرقهم أجمعين .

فأجابت بسخرية رقيقة :

— يلوح لي أيها الأجنبي انك سريع الإعجاب بالناس . فحذار
أن تشغفك نظراتي فتبلي جسدك وتوهن العظم منك ! حذار من حيي !
فقال لها :

— إنني أحبك يا تاييس ! احبك أكثر من حياتي وأحبك
أكثر من نفسي . لا هملك غادرت صحرائي على أسف . لا هملك
نطق لساني بكلمات دنيوية ، وكان قد نذر الصمت . لا هملك رأيت
ما لا يصح أن أراه ، وسمعت ما حرّم عليّ سماعه . لا هملك تبلبت
روحي وفتح قلبي وتفجرت منه العواطف والخواطر كعيون الماء الجارية
التي يشرب منها الحمام . لا هملك واصلت الليل بالنهار سائراً
في مفاوز الصحارى الرملية المكتظة بالحشرات والهوام والخفافيش .

لا أُحبك وطئتُ الافاعي والمقارب حافياً ! أجل ، إني أحبك ! أحبك
لا كهؤلاء الرجال الذين تضرم الشهوات أبدانهم فيتسابقون اليك
كالذئب الخائفة أو الثيران الهائجة . لذلك أنت عزيزة عليهم معزة
الظبية على الأسد ، فيلتهم حبهم الشهواني روحك وجسدك أيتها
المرأة . أما أنا فأحبك بالروح والحق . أحبك في الله وإلى أبد الآبدين ،
والشعور الذي يكتة صدري لك هو غيرة حقة وعطف رباني . انني
أعدك ما هو أركى من عطر الزهر ، وألذ من أحلام ليل قصير . أعدك
المآدب المقدسة والأفراح السماوية . والنعيم الذي آتيك به مقيم لا
يزول ، نادر لم يُسمع به ، رائع لا يوصف . . . وإذا قدر للسعداء في
هذه الدنيا أن يروا لمحّة واحدة من مثله ، فانهم يموتون في الحال من
شدة الدهول !!

فضحكت تاييس ضحكة المتهم المرتاب ، وقالت بخباثة .
- عليّ يا صاحبي بهذا الحب العجيب ! عجل ! فإني أعدّ
إسماءك في القول مهارة لمحاسني . فلنبادر إلى انتهاز الفرص ولا نصعب
لحظة واحدة ! انني لا أطيق الصبر على معرفة السعادة التي تبشرني
بها . ولكنني أصارحك القول اني أخشى أن أظلّ جاهلة بها ، وان
تنتهي وعودك كلها لي في كلمات فقط . فالوعد بالسعادة ، اسهل بكثير
من منح السعادة . كلُّ له موهبة ، وأظن موهبتك الخطابة والكلام .
انك تقول بحب مجهول . ليت شعري ، لقد مضى دهر طويل على

تبادل القبل بحيث يكون من عجائب الزمن بقاء أسرار حب لم يمحى عنها اللثام ، والعاشقون يعرفون أكثر من السحرة في هذا الباب ..

- تاييس لا تسخري . أنني أحمل اليك الحب المجهول .

- لقد أتيتني يا صاحبي متأخراً ، فانا بكل أنواع الغرام عليمه .

- الحب الذي آتاك به ملؤه المجد ، وكل حب آخر عرفته

لا يتمخض إلا بالعار !

فنظرت اليه تاييس بعين جامدة ، وغشي جبينها الجميل عبوسة وتقطيب ، وقالت :

- أنك أيها الأجنبي جريء للغاية ، لتحديك ربة الدار . انظر إليّ وقل لي بربك هل أبدوك مخلوقة يغمرها الرجس ويطوقها العار ؟ كلا ! لست خجلة مستنكفة ، لا أنا ولا كل اللواتي يعشن معيشتي ، ولوأنهن قد يكننّ دوني جمالاً ومالاً . لقد بذرت المسرة في كل خطوة خطوتها ، فذاع صيتي في العالم من أقصاه الى أقصاه . فأصبحت أقوى سادة الدنيا ، الذين رأيتهم عند موطني قديمي صاغرين . انظر إليّ ! انظر الى هاتين القدمين الصغيرتين ، وأعلم أنه يوجد ألوف من الرجال يشترون بأرواحهم نعمة تقبيلها ، ويبيذلون دماءهم ليحفظوا بهذه اللذة . نعم ، لست رفيعة العماة أو أشغل حيزاً كبيراً من فراغ هذه الدنيا ، وانني أبدو كحبة أرز لأولئك الذين ينظرون

إليّ من قمة السرايوم عند ما أمرّ في الطريق . غير أن حبة الأرز هذه قد سببت للناس أحزاناً وآلاماً ويأساً وبغضاً وجرائم تكفي لتملاً أودية التّر^(١) . وبعد ، ألسّتَ مجنوناً أيها الرجل إذ تذكر العار مع أنّ كل ما يحيط بي يهتف بالمجد ؟

— أن ما هو مجيد في عيون الرجال، مردّول عند الله . لقد نشأنا كلاباً ، أيّتها المرأة ، في بلاد مختلفة ، فلا عجب أن تباينت آراؤنا واختلفت لهجاتنا . ومع ذلك فأشهد السماء على أن مرامي الاتفاق معك ، وقصدي ألا أغادرُك قبلما تتوحد مشاعرنا . من ذا الذي يوحى إليّ بكلمات مشتعلة تجعلك تذوِبن أيّتها المرأة كالشمع تحت حرارة أنفاسي ، وتجعل يد إرادتي تكونُك كما تشاء ؟ أية قوّة تسلمك إليّ يا ريحانة النفوس لتفطرك ثانية الرّوح التي تحيياني كي تسمك بجمال جديد ، فتصيحين ، وأنت من الفرح تبكين ، « اليوم وحده يوم مولدي ! » . من ذا الذي يجعل « جرن معمودية القدس » ينبوعاً يتفجّر من صدري حيث تجدين فيه بعد الطهر نقاءك الأول ، من ذا الذي يحولني « أردناً »^(٢) تفمرّك مياهه فتمنحك الحياة الخالدة ؟

فهذات ثائرة تاييس وقالت في نفسها :

— هذا الرجل يتكلم عن خلود الحياة ، وكأن كل ما يفوه به

(١) جهنم عند اليونانيين الاقدمين

(٢) نهر الاردن المعروف في فلسطين

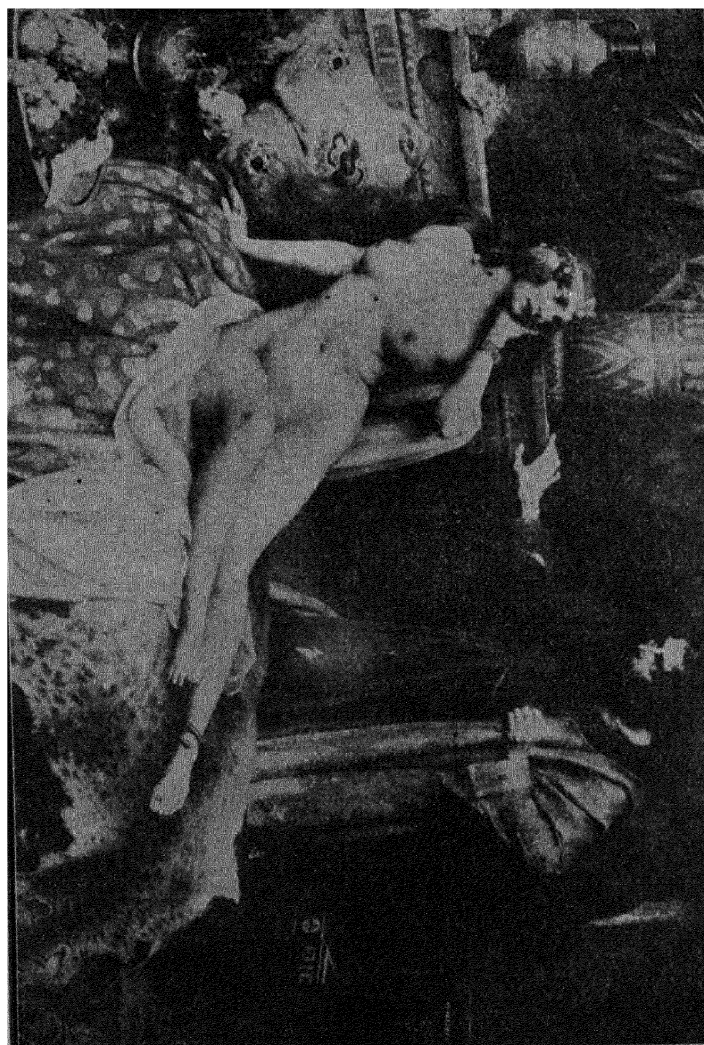
مكتوب فوق طلسم ، فلا شك أنه ساحر ، ولديه أسرار مقاومة
الشيخوخة والموت

فاعتزمت أن تهب نفسها له ، ولهذا تظاهرت بالخوف منه ،
وخطت الى الورا مرتدة الى آخر كهف العداوى ، وجلست فوق
حافة الفراش وقدمها الحافيتان تهتان في رفق ولين ، ورفعت
قميصها بلباقة ، ثم لبثت ساكنة ، ساكنة ، لا تبدى حراكاً ..
تنتظر .. بعيون سبلاء

وقد ألفت أهدابها الطويلة على الخدين ظلاً خفيفاً ، وكان مظهرها
ينم عن حياء وخفر ، فشابهت بنتاً تحلم وهي متكئة عند حافة غدير
نظر اليها بافئوس ولم يتحرك ، ولم تعد ركبته المرتجفتان تقويان
على حمله ، وجف لسانه في فمه ، واعتري دماغه دوي هائل ،
وأغشي على بصره ، فعاد لا يرى أمامه سوى سحابة كثيفة ، فظن
أن يد يسوع قد أُلقيت على عينيه لتحجب منظر المرأة عنه ، فاطمان
لهذا العون وتشددت عزيمته ، وقال بوقار يليق بشيخ الصحراء .

— أفتظنين أنك إذا وهبت نفسك لي تخفي على الله ؟
فهزت رأسها قائلة :

— الله ! ... ومن ذا الذي يُكرهه دائماً على مراقبة كهف
العداوى ؟ فلينصرف عنا إذا كنا نسوءه ! ولكن كيف نسوءه ؟ أما



وقد خلقنا ، فليس له أن يستاء أو يدهس إذا رآنا كما برأنا وصورنا ،
نفعل ونتأثر بحسب الطبيعة التي أوجدها فينا . لقد قيل عنه الشيء
الكثير ، وعُزي إليه ما ليس بصحيح على الإطلاق ، فهو منه براء .
وأنت أيها الاجنبي ، ألك معرفة أكيدة بحقيقة أمره وجوهريته ؟ ثم
من تكون أنت حتى تخاطبني باسمه ؟

وعند هذا السؤال فتح الراهب قليلاً حليته المستعارة ، وأبار
عن ثوبه الوبري ، وقال :

— أنا بافنوس ، كاهن أنصينا الاكبر ، جئت من الصحراء
المقدسة . واليد التي أبعدت ابراهيم عن بلاد السككديانيين ، ولوط . عن
سادوم ، هي التي فرقت بيني وبين العالم . لقد احتجبتُ عن الناس ،
لكن رسمك ظهر لي في مقدسي الرمي ، فعرفت ان نفسك مفعمة
بالفساد ، وان كان فيك المنون . وهأنذا أمامك أيها المرأة وكأنني
أمام جدث . وانني أصبح بك : « إنهضي يا تاييس ! »

ولما سمعت اسم بافنوس ، وكلتي راهب ، وكاهن اكبر ، امتنع
لونها رعباً ، وزحفت متشابكة اليدين ، شعثناء الشعر ، الى قدمي
القديس وهي تنوح ، وتناوّه قائلة :

— لا تؤذني ! ما الذي جاء بك ؟ ماذا تبغي مني ؟ لا تؤذني ؟
أنا اعرف ان أولياء الصحراء يمتقون النساء اللواتي خلقن على شاكلي
متعة للرجال . انني أخشى أن تقتني ، وأن تكون راغباً في ايدائي .

فاعزب عني ! أنا لا يخامرني شك في مقدرتك . لكن اعلم يا بافانوس انه ليس لك أن تحقرني أو تمقتني . فما سخرت قط من فقرك الاختياري ، كما فعل كثير من الرجال . فعليك بدورك ألا تجعل ثرائي جرماً . انني حسناء ومثلة حاذقة ، مُسيرة لا مُخيرة فيما أنا عليه . وقد خلقت لما أنا فيه ، وولدت لأقتن الرجال . وأنت نفسك قلت الآن انك أحببتني ، فلا تستخدم علمك في البطش بي ، ولا تفه بكلمات السحر التي تتلف جمالي أو تبدلاني تمثالاً من الملح . لا ترعبي ! فاني خائفة جداً الخوف . لا تنجّر عني كأس المنون ، فاشدّ ما أخاف الموت ! فأشار إليها أن تنهض ، وقال :

— هدي روعك يا بنية ، فلن أسومك المذلة . اني أتيتك من قبل ذلك الذي جالس فوق حافة البئر وشرب من ابريق المرأة السامرية المقدم اليه ^(١) ، وهو الذي عندما تعشى في بيت سيمون ، ضمخته مريم بالعطور . لستُ بلا خطيئة لأرميك باول حجر ، فقد طالما أسأت استعمال ما لا يحصى من نعم الله التي أسبغها علي . ليس ثمة غضب ، وإنما هي الرحمة بك أخذت بيدي وجاءت بي الى هنا . والحق أقول ، اني كنت قادراً على التقرب منك بكلمات الحب والهيام ، إنما حرارة إيماني هي التي قادتني اليك . انني اشتعل بنار الاحسان ، وإذا كانت عينك اللتان لم تتعوّدا النظر إلا إلى نقائص

(١) يقصد به السيد المسيح .

البدن وعوراته تستطيعان أن تنظرا إلى الأشياء بحقيقتها الروحانية ،
فلأظهرنَّ إذاً لك كفنصن منتزع من تلك العائقة المشتعلة التي أراها
الله لنبيه موسى القديم في البرية ، ليعلمه الحب الصادق ، الحب الذي
يتعلمنا دون أن يبيلنا ، فلا يترك جحراً ورماداً ، إنما بلسماً وعطراً
يضمخان كل ما يتخلله إلى آخر الدهر .

— انني أصدقك ، أيها الراهب ، ولست أختي بعد خدعة
منك أو مضرة . لقد طالما سمعت أخبار نساك طيبة ، والحكايات
التي بلغتني عن حياة أنطوان وبولس غريبة . ولم يكن اسمك خافياً
عليّ ، ولقد خبروني أنك ، على حداثة سنك ، تضارع في الفضل
أكبر الزاهدين . ومع اني لا أعرف حقيقة أمرك ، أشعر بأنك لست
رجلاً عادياً . الا تخبرني ، أستمطيع أن تعمل لي ما عجز عن عمله
كهنه إيزيس وهرمس ويونو والسحرة الكلدانيون جميعاً ، وما لم
يستطعه العرافون البابليون ؟ أيها الراهب ، إذا كنت تحبني ، فهل
تستطيع أن تحول بيني وبين الموت ؟

— أيتها المرأة ، ان من يرغب في الحياة يحى . فاعرضي عن
الملذات السافلة التي تهلكين بها أبداً . انتزعي جسدك الذي فطره
الله من رضابه ونفخ فيه من روحه ، إتشليه من أيدي الشياطين
الذين يوشكون أن يحرقوه احراقاً . تعالي أيتها التي أضناها التعب
وردي موارد الزهد المبارك ، تعالي انهلي من تلك العيون المحبوة

في الصحراء التي تتفجر من السماء ! أيتها النفس القلقة المتأهفة ، تعالي
تنلي ما تشتهين ! أيها القلب الشره الطامح الى الجذل ، عليك أن تمجذل
حقيقة بتذوق طعم الفقر والعزلة ، وانكار الذات وتركها في حضن
الله . يا عدوة المسيح الآن ، ويا حبيته غداً ، تعالي اليه ! تعالي يا
من بَحَثَتْ وَقَتَّشَتْ وستقول : « ها أنذا قد وجدت الحب الحقيقي ! »
وكان يلوح على تاييس أنها تنفرس في أشياء بعيدة ، فسألته :
— أصبح أيها الراهب اني إذا نبذت المسرات وتبت ،
أولدتُ ثانية في السماء سليمة الجسم موفورة الجمال ؟

— تاييس ، انني أحمل اليك الحياة الخالدة فثقي بي ، لأن
ما أبشرك به هو الحق ...

— ومن يضمن لي أنه الحق ؟

— داود ، والأنبياء ، والكتب المقدسة ، والمعجزات التي
سوف تشهدن ...

— اراني أميل إلى تصديقك ، أيها الراهب . لأنني اسلم بكوني لم
أجد في هذه الدنيا هنا . كان نصيبي أعظم من نصيب ملكة ،
ومع ذلك فقد صبت الحياة على رأسي صنوف الآلام والمتاعب ،
وها أنذا قد عييت كثيراً وضقت ذرعاً بوجودي . كل النساء
يحسدنني ، مع انني طالما حسدت المرأة العجوز الدرداء التي كانت ،

وأنا صغيرة ، تبيعني أقراص الشهد تحت احدى بوابات المدينة . وقد خطر لي غير مرة أن الفقراء هم وحدهم الصالحون السعداء المباركون ، وان في هذه الحياة الوضيعة الوديعة تعزية وسلوى . فيا أيها الراهب ، لقد هجت أمواج حياتي ، وطفوت إلى السطح بتلك التي رسبت في القاع ... ترى من أكون أنا لأؤمن ؟ واأسفاه ! ... وما عساي أن أكون ؟ وما هي الحياة ؟

وفي اثناء كلامها تغيرت ملامح بافوس وأضاء وجهه بفرح سماوي ، فقال :

— اسمعي ! انني ما دخلت الى مسكنك وحدي ، بل صحبني آخر . وهو واقف هنا بجانبني ، لا تستطيعين أنت رؤيته ، لأن عينيك لا تستأملان بعد مشاهدته ، ولكنك لا تلبشين أن تريه بجلاله وجماله ، وتقولين : « هو الجدير بالحب وحده ! » ولو لم يكن قد وضع الآن يده الناعمة فوق عيني ، يا تاييس ، فلربما كنت اقترفت معك خطيئة ، لأنني أنا نفسي مثال الضعف والوهن . اسكنه أنقذنا معاً . انه صالح كما هو قدير واسمه « المختص » . وقد بشر الدنيا به داود والأنبياء . وسجد له الرعاة والمجوس ، وهو لا يزال في المهد صبيًا . وقد صلبه الفريسيون ، ودفنته القديسات ، وأظهره الحواريون للعالم ، وشهدت به الشهداء . وهو الذي لما علم بأنك تخشين الردى ، أتى بي إلى بيتك ليدفع عنك غائلة الردى !

ليس كذلك يا يسوع ، أو استَ تظهر لي في هذه اللحظة كما
ظهرت لأهل الجليل في تلك الأيام العجيبة ، عندما هَوَّتْ معك
النجوم من السموات ، وصارت قرية من الأرض بحيث تناوها
الأطفال القديسون بأيديهم وهم يلعبون في أحضان أمهاتهم فوق
سطوح بيت لحم ، ألسنا يا يسوع في حضرتك ، وانك تظهر لنا
حقيقة ناسوتك المقدس ؟ أليس ذاك وجهك ؟ أوليست العبّرة التي
تنحدر فوق خدك هي عبّرة صادقة ؟ أجل ! ان ملك العدل الأزلي
سوف يتلقاها فتكون فدية لروح تاييس . الستَ هنا يا يسوع ؟ ان
شفيتك المستحقّين العبادة مفتوحتان . انك تستطيع الكلام .
تكلم ، فكلي آدان صاغية . وأنتَ يا تاييس ، يا تاييس السعيدة ؟
اصغي لما يقوله لك المخلص نفسه . انه يتكلم من دوني قائلاً لك :
« بحثُ عنك طويلاً يا شاتي الشاردة ، وها قد وجدتُك ! فلا
تشردى مني بعد الآن . هاتِ يديك أيتها البنية المسكينة ،
ودعيني أحملك فوق كتفي إلى حظيرة السموات . تعالي يا تاييسي !
تعالي يا صفيتي ! تعالي واذرفي الدموع معي ! »

وسقط بافئوس على ركبتيه وعيناه تنفثان دھول الانجذاب . . .
ولما رأت تاييس على وجهه صورة يسوع الحيّ ، قالت في زفرتها :
— واهاً لأيام طفولتي المأبضية ! واهاً لأبي الروحي أحس !

أيها القديس الصالح تيودور ، لماذا لم أمت في دثارك الأبيض عندما
كنت تحملني في مطلع الفجر نديةً بماء المعمودية ؟
فوثب بافئوس نحوها صائحاً :

— أنتِ عُمِدَتِ ! ... يا للحكمة الربانية ! يا للعناية الإلهية !
الآن عرفت القوة التي اجتذبتني نحوك . الآن عرفت ما صيرك
هكذا عزيزة عليّ جميلة في عيني ! فالفضل كل الفضل لماء التعميد
الذي جعلني أترك ظل الله ، حيث كنت اسكن ، لأبحث عنك في
حواء العالم المسموم . لا ريب أن قطرةً ، قطرةً من الماء الذي غسل
جسدك ، قد سقطت على حبيبي . فتعالى يا أختاه وتقبلي من أخيك
الروحي قبلة السلام !

ولثم الراهبُ جبين البغيّ ...
ثم سكت وترك حبل القول لله .. ولم يكن يُسمع في كهف
العذارى سوى زفرات تاييس ممزوجة بنحير المياه الجارية .
بكت ، ولم تكفكف عبراتها ، ولا حبست انهمارها ، في حين
دخلت جاريتان سوداوان محملتان بالثياب والعمود وتيجان الزهور .
فقالت ، وهي تحاول ان تبتمسم :

— ليس البكاء من حسن الرأي ؛ فالدموع تحمر منها العيون ،
ولونها يفسد بها . واذا أنني مزمنة أن أتعشى الليلة مع بعض الاصدقاء ،

أروم أن اكون فتانة ، لأنه سوف يكون هناك نساء جميلات ، فلا أريد أن يلحظن آثار الضعف على محياي . وهاتان الجاريتان جاءتا لالباسي . ففتحاً قليلاً يا أبي وتركهما يفعلان ذلك . انهما ماهرتان محنكتان وقد اشتريتهما بثمن غال . انظر الى أحدهما ذات الخواتم الذهبية الكبيرة والأسنان الجميلة ، اني غنمتها من امرأة الحاكم .

ففكر بافئوس بادیء الرأي في رد تاييس بكل قواه عن الذهاب الى هذا العشاء ، على أنه آثر أخيراً أن يتصرف بفطنة فسألها عن ستلقاه هناك .

فأجابت انها ستري صاحب الوليمة ، الشيخ كوتّا مدير العمارة البحرية ، ونسياس ، وكثيرين غيرها من الفلاسفة والمولعين بالحوار ، والشاعر كالليكرات ، وكاهن سيراييس الأعلى ، وبعض الشبان الاغنياء من هواة تربية الخيل ، ونساء لا يمكن ذكر شيء عنهن ، فلا فضل لهن غير الشباب ونضارته .

قال الراهب بالهام سماوي :

— إذهي اليهم يا تاييس ! إذهي ، بيد اني لن أتركك . . . سأذهب معك الى هذه المأدبة وأبقى بجانبك ملازماً الصمت والسكون .

فضحكت تاييس ، وصاحت والجاريتان تلبسانها حليها :

— ترى . . ماذا عسي أن يقولوا عند ما يرون لي عاشقاً من

رهبان طيبة ؟



المأدبة

لما دخلت تاييس قاعة
المأدبة ، ووراءها بافوس ،
كان أكثر المدعوين قد
اجتمعوا متكئين على الأرائك
أمام مائدة على شكل حدوة

الفرس فوقها كثير من الأواني اللامعة . وكان في وسطها حوض من
الفضة تعلوه أربعة تماثيل منحنية بقرب يتدفق منها مرق على سمك
مسلوق يسبح فيه . . .

فلما أقبلت تاييس ، علا الهتاف لها من جميع الأرجاء :

— سلام على ربة الحسن والبهاء !

— سلام على عروس التمثيل الصامت ، التي تعبر نظراتها عن جميع الأشياء !

— سلام على محبوبة الآلهة والناس بلا استثناء !

— سلام على المشتهاة كل الاشتهاة !

— سلام على التي منها الداء وفيها الدواء !

— سلام على لؤلؤة « راكوتيس » !

— سلام على وردة الاسكندرية !

فانتظرت تاييس بفروغ صبر همود عاصفة التهليل والثناء ، ثم قالت لمضيفها « كوتا » :

— لقد جئتك يا لوسيوس براهب من الصحراء ، بافنوس ، كبير كهنة أنصينا ، وهو رجل قديس ، كلماته تحرق كالنار ..

فنهض « لوسيوس اوريلوس كوتا » . قائد الاسطول ، قائلاً :

— مرحباً بك يا بافنوس ، يا من يؤمن بالعتيدة المسيحية .
اني أجلّ بعض الاجلال ديناً أصبح الآن أمبراطورياً . فقد أحلّ قسطنطين العظيم إخوانك في الدين المحل الأول بين أصدقاء الدولة .
وحقاً أنه قد آن للحكمة اللاتينية أن تسمح بدخول مسيحكم معبد

أربابنا ^(١) . ومما يؤثر عن آبائنا قولهم : أن في كل رب شيئاً من
الآلوهية . لكن لندع هذا جانباً ، ولنشرب ، ونطرب ، ونروح
القلب بالذات ، فالوقتُ سمحٌ والزمانُ مُواتٌ .

قال هذا وهو منشرح الصدر ، إذ كان قد فرغ من اختراع
سفينة جديدة ، وأتمّ الجزء السادس من تاريخ كان يكتبه عن
قرطاجنه . ولوثوقه بأنه لم يضع يومه سدًى ، كان راضياً عن نفسه
وعن الآلهة .

ثم قال :

— ترى هنا يا بافنوس رجالاً كثيرين جديرين بالحبّة
والاحترام : هيرمودو وكاهن سراپيس الاعظم ، والفلاسفة دوريون ،
ونسياس ، وزينوتيس ، والشاعر كاليكرات ، والفتيان شيراس
وأريستوبول ، وهما ابنا رفيق من رفقاء شبابي الأعزاء . وبقر بهما
فيلناً ودروسميه ومن حقيهما أن يُعجب بهما كثيراً لفرط جمالهما .
فعانق نسياسُ بافنوسُ وهمس في أذنه :

— لقد أذرتك يا أخي بما للرّهرة من بأس شديد . أليس
سلطانها العنيف اللين هو الذي قادك قسراً الى هذا المكان ؟ اسمع ،
إنك رجل شديد التقى ، لكنك إذا لم تسلم بأنها أم الآلهة فهلاكك

مَحْتَمٌ . واعلم أن الشيخ « ملانت » الرياضي كان يقول : « انني لم أستطع اثبات خواص المثلث بغير مساعدة الزُّهْرَة ! »
وكان دور يون يطيل النظر الى القادم الجديد ، وما لبث أن صفق يديه ، وصاح صيحة الدهشة :

— انه هو يا صحب ! نظرتُه ، لحيته ، طيلسانه — هو بعينه !
لقيته في الملعب وكانت تايبسنا تكشف عن ذراعيها البديعتين ،
فاضطرب اضطراباً شديداً . وأشهد انه تكلم بجدّة وحمية . انه رجل
شريف ، وسيكون نصيبنا منه اللعنات . فصاحة رائعة ، واذا
كان ماركوس هو أفلاطون المسيحيين ، فبافنوس ديموستينهم .
ولعمري ان أبيقور ، في حديقته الصغيرة ، لم يطرق سمعه مثل
ذلك قط .

وفي تلك الاثناء ، كانت فيلنا ودروسية تكادان تفتريان
بأعينهما تايبس وقد وضعت فوق شعرها الأشقر تاجاً من البنفسج
الذابل ، كل زهرة منه تمثل لون حدقتها حائلاً ، حتى لاح الزهر
كأنه نظرات زائفة ، وبدت عيناها كزهرتين متألفتين . . .
ومما امتازت به تايبس أن كل ما عليها كان يتألق بنور الحياة
وروح الأنسجام .. فكان لثنيات ثوبها الأرجواني المطرز بخيوط
الذهب والفضة رونق عليه مسحة من الشَّجَن لا تبدلها الأساور
والقلاند بهجة . وكان البهاء كله في ذراعيها العاريتين

فلم يسعهما الاً الاعجاب بثوب تايس وزينتها ، وان لم تشيرا
الى ذلك بكامة .
قالت فيلماً :

— يالك من فتاة ! لم تستطعي أن تكوني الآن أجمل منك
عندما قدمت الاسكندرية ، لأن أمي التي رأتكِ حينذاك تقول أنه
قلّ من النساء من كانت تستحق أن تشبه بكِ .
وسألها دروسيه قائلة :

— مَنْ يكون اذاً ذلك العاشق الجديد الذي جئنا به ؟ أن
هيئته غريبة وحشية ، واذا كان للفيلة رعاة فلا ريب انهم يكونون
على صورته . فأين وجدت يا تايس هذا الصاحب الوحشي ؟ لعله
من سكان الكهوف والمغاور الذين يعيشون تحت الارض ملطّخين
بدخان سَقَر ؟

فوضعت فيلماً أصبعها على فم دروسيه ، وقالت :
— صه ! يجب أن تبقى أسرار الحب في طي الكتمان ، لأن
اذاعتها محرمة ! أما أنا فأفضل أن يقباني فم بركان إتنا المدخن على
أن تقباني شفنا هذا الرجل ! لكن حبيبنا تايس الجميلة ، الجديرة
بالعبادة كالآلهة ، عليها أن تتقبل كاهنة دعاء جميع المتوسلين . وليست
مثلنا نأبى الغرام الاً على زين الشباب

فقلت لهما تاييس :

- احذرا ! انه عرّاف ساحر ، يسمع الهمس الضعيف ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . وهو قادر على أن يختطف قلبكما أثناء نومكما ، ويضع بدلاً منهما اسفنجيتين ، حتى اذا شربتما ماء في اليوم التالي تموتان اختناقاً !

ثم نظرت اليهما وقد شحب لونهما ، وطوت كشحاً عنهما وجلست بجانب بافنوس على أريكته .

ووقف كوتا هدر الحديث بصوته الذي في نبراته رنة الأمانة ورقة الترحيب :

- إزموا أما كنكم أيها الاخوان ! صبوا النبيذ المعسول أيها العبيد !

ثم رفع رب البيت كأسه قائلاً :

- لنشرب أولاً نخب قنسطانس سليل الآلهة ورمز عبقرية الدولة ! يجب أن يقدم الوطن على كل شيء ، حتى على الآلهة ، لأنه يأويهم في أرضه ، ويضمهم في كنفه اجمعين .

فرفع كل المدعوين كوؤوسهم المترعة الى شفاههم الا بافنوس ، أبي واستكبر ، لأن قنسطانس كان يضطهد عقيدة أهل « نيسيه » ، ولأن وطن المسيحي ليس من هذا العالم .

فتتم دوريون بعد أن شرب :
— ما الوطن ! انه نهر جار . ضفاه تبديل ، وأمواجه تتجدد
على الدوام .

فأجاب قائد الأسطول :

— أعرفُ يادوريون انك قلما ترعى جانب القوى الوطنية ، وانك
تعتقد انه يجب على الحكيم أن يعيش بنجوة عن الشؤون العامة .
أما انا فارى أن الرجل الشريف يجب ألاّ يتمنى أكثر من أن يشغل
منصباً سامياً مسؤولاً في الدولة . فما أجمل الدولة وما أجلاً !

فوصل هيرمودور ، كبير كهنة سراپيس ، جبل الحديث بقوله :
— سأل دوريون « ما الوطن ؟ » وجوابي على ذلك أن الوطن
عبارة عن محاريب الآلهة ومقابر الاجداد . فالانسان مواطن سواء
بالاتحاد معه في الذكريات والاماني .

فقاطعه الشاب اريستوبول قائلاً

— بحق التوأم الأول ^(١) ! لقد رأيت اليوم لصاحبنا ديموفون
جواداً كريماً ، له فك ضئيل ، وقائمتان بديعتان ، رافعاً رأسه
الواجف ، مزدهياً ازدهاء الديك !

(١) في اساطير الاولين ان كاستر Castor هو ابن جوييتير وليدا .
والاخ التوأم لبولوكس Pollux . وضرب المثل بعروتهما الوثقى التي لا انفصام
لها . وهذان الاسمان يذكران عادة في معرض الوداد رمزاً للمحبة والقبول
(المترجم)

فهزّ شيراس الفتى رأسه قائلاً :

- انه ليس بالجواد الكريم كما تدعي ، فله حوافر دقيقة ، وعراقيبه
توشك ان تمس الأرض ولا يلبث أن يصاب بالعرج .
وكانا سيستمران في حوارهما لولا أن صرخت دروسيه صرخة
عالية :

- آي ! كدت ابتلع حسكة اطول وأحدّ من الحنجر . ولحسن
الخط أخرجتها من حنجرتي قبل فوات الوقت . ان الآلهة تحبني !
فسألها نسياس مبتسماً :

- اتقولين يا عزيزتي دروسيه ان الأرباب يحبك هائمون ؟
إذاً فليساهموا الناس العلل ! لأن الحب يقضي بالشقاء الابدی على من
يصاب به ، وهو دليل على الضعف . فالحب الذي تشعر به الآلهة
نحو دروسيه حجة دامغة على عدم بلوغهم حد الكمال .
فاشدت غضب دروسيه لهذه الكلمات ، وقالت :

- ان ماقلته يا نسياس حماقة لا تستحق الجواب ، ومن طبعك
ألاً تفهم ما يقال ، وأن تقول ما لا معنى له .
فابتسم نسياس ثانية وقال :

- تكلمي ، تكلمي يا عزيزتي دروسيه ، لا بأس بكل ما تقولين ،
فعلينا أن نشكرك كلما فتحت فاك ، فما أبهى ثنایاك !

وعندئذ دخل البهو شيخ وقور ، مهمل اللباس ، مثند الخطى ،
عالي الرأس ، ونفض المكان بنظرة محققاً في الحاضرين بسكون .
فأشار إليه كوتّا ليجلس بجانبه فوق أريكته قائلاً :

— أهلاً بك وسهلاً يا يوكريت ! هل من رسالة فلسفية جديدة .
كتبتها هذا الشهر ؟ ستكون ، إذا صح حسابي ، الثانية والتسعين
التي خطتها قصبتك النيلية بيدك الأثنية .

فأجاب يوكريت ، وهو يعبث بلحيته الفضية :

— أن الهزار خلق ليشدو، وخُلقتُ لأحمد الارباب الخالدين .^(١)

دوربوره

فلنجي باحترام ، في شخص يوكريت ، آخر الرواقين . انه

(١) هذه الحملة من أقوال الفيلسوف الرواقي (Epictète) ايبيكتيتوس
(أي العبد الاسير) . الذي ولد في الحيل الاول للميلاد بمدينة هيرابوليس
بمصر . واتى روما في عهد نيرون تابعاً لابافروديت Epaphrodite أحد رجال
الطاغية الروماني . فعُرف بهذا الاسم . وحلاصة آرائه احتقار المادة ونصرة
الفضيلة وحب البشرية وتمجيد الله . وان العلم بغير العمل لا قيمة له . وانه لا بد
مما ليس منه بد . وله في ذلك كلمة مشهورة « احتمل وامتنع » وما يروى
عنه ان سيده القاسي لوى يوماً ساقه في اداة تعذيب ، فقال له ايبيكتيتوس
بهدهوء : « ستكسرهما ! » فلما صدق حدسه وكسرت رجله ، سرَّ بأن ختم
جلته بقوله : « ألم أقل لك ذلك ؟ » (المترجم)

وقور رزين ، يقوم في وسطنا ، مكلاً بجلال المشيب ، كصورة
الأسلاف ! تراه بين الجماهير منفرداً ، يفوه بعبارات غير مفهومة .

بوكريت

هذه مغالطة منك يادور يون . فلسفة الفضيلة لم تنعدم من هذا
العالم . وأن لي أتباعاً كثيرين في الاسكندرية وروما والقسطنطينية ،
سواء من العبيد الأرقاء أو أعضاء الأسرة القيصرية ، يعرفون الآن
كيف يحكمون أنفسهم ويعيشون أحراراً . وهم بعدم اكترائهم
لشيء سعداء كل السعادة . كثيرون يحيا فيهم « ابيكتيتوس »
و « ماركوس اوريلوس » ^(١) . لكن إذا صحَّ أن الفضيلة قد
انطفت جذوتها من الأرض إلى الأبد ، ففي أي شيء تُعني
خسارتها هنائي ، ما دام بقاؤها وعدمها لا يتعلقان بي ؟ إن الحق ،
يادور يون ، هم وحدهم الذين يقفون سعادتهم على ما تنقطع دونه
ايديهم . انني لا أشتهي ما لا تشاءه الآلهة ، وأشتهي كل ما يشاؤون .
بهذا أصبحت مثلهم أشاركهم في مسرتهم المحققة . فاذا ماتت الفضيلة

(١) Marc-Aurèle عاقل الدولة الرومانية (١٦١ — ١٨٠ ق.م)

وخير امبراطرتها . ورب من أرباب السيف والقلم . عُرف بحكمته الرواقية
الحالصة واعتداله المشهور وأدبه الموفور . ضمن كتابه الحالد « أفكار »
زبدة آرائه السامية التي تعد القواعد الادبية لفلسفة الرواقيين — (المترجم)

رضيت بموتها ، وملأني هذا الرضا سروراً ، كالمجهود الأعلى لعقلي
وشجاعتي . ولسوف تشبه حكمتي في جميع الأمور بالحكمة الإلهية ،
فتأتي الصورة أثمن من الاصل ، لأنها تكلف شيئاً كثيراً من العناية ،
وكثيراً جداً من المجهود .

نسياس

لعلي فاهم ما ترمي اليه . انك تضع نفسك في مستوى العناية
الإلهية . لكن إذا كانت الفضيلة تنحصر في المجهود وحده
يا يوكريت ، وفي ذلك الأجهاد الذي به يزعم تلاميذ « زينون »^(١)
انهم يجعلون ذواتهم أشباهاً للآلهة ، فالضفدعة التي تنتفخ لتصير
ضخمة كالعجل تؤدي اكبر عمل من أعمال الرواقين .

بوكريت

أراك تسخر يا نسياس ، وقد برعت كعادتك في تهكمك .

(١) Zénon هو الفيلسوف اليوناني المشهور ولد في سيتيوم بحزيرة
قبرص وأسس المذهب الرواقى Stoicism الذي يرى في العقل الآلهي المنظم
ألاعظم لجميع الكائنات . وان سعادة الانسان في العمل واجهاد النفس . وقد
اسس مدرسته في اثينا برواق باسيل . فأطلق عليه وعلى تلاميذه « الرواقيون »
وكان على مذهب أبي العلاء ، طيب الله ثراه ، يرى انها : (تعب كلها الحياة)
لذلك لما أحس بالشيخوخة تدب في جسده ، وضع حداً لحياته بالانتحار ---
٢٩٣ ق . م — (المترجم)

ولكن إذا كان العجل الذي ذكرته إلهًا حقيقياً كأبيس، أو كالثور الذي تحت الأرض — الذي أرى هنا كاهنه الأكبر، وإذا كانت الضفدع تُثَقَّف وتُؤَتَّى الحكمة فتنجح في مضارعته، ألا تكون في الحقيقة أفضل من العجل؟ وهل يسمعك إلا الاعجاب بحيوان صغير كهذا أوتي مثل هذا الفضل العظيم؟

وضع أربعة من الخدم فوق المائدة هِلُوفًا^(١) مغطى بهلبه، وخنائص مصنوعة من الفطير أحاطت بالحيوان كأنها تريد أن ترضعه، إشارة إلى أنه أنثى.

فأبحه زينوتيس نحو الراهب قائلاً:

— قد جاءنا أيها الاصدقاء ضيف من تلقاء نفسه! وأعني به بافنوس العظيم الذي يحيا في التنسك هذه الحياة الغريبة، فهو ضيفنا غير المنتظر.

كونا

قُلْ خيراً من هذا يا زينوتيس، قل إن له صدر المكان لأنه قد أتى بغير دعوة.

(١) إلهلوف: الخنزير البري

ز يئو نمبىس

يلزمنا أيضاً يا عزيزي لوسىوس ، مبالغةً فى اكرامه ، أن نتوخى ذكر ما يطيب له سماعه . وعلى ذلك ، فيقينا أن رجلاً مثله أقل تأثراً بتوابل اللحوم منه بعطر الافكار الجميلة . ولا ريب فى أننا ندخل على نفسه السرور بتوجيه الحديث إلى عقيدة المسيح المصلوب التي يعتقها . أما أنا فأقدم نفسي للحوار عن طيب خاطر . لأن هذه العقيدة تلذّ لي كثيراً لاختلاف رموزها وتباين كفاياتها . وإذا كان ما نقرؤه عنها يدل حقيقة على روح هذا الدين ، فهو إذاً دين ملؤه الحقائق . وأرى الكتب المسيحية حافلة بآيات الوحي الالهي . على أنني لا يمكنني يا بافنوس أن أسوي بينها وبين كتب اليهود التي لم تلهم ، كما يدعى ، من روح الله بل من روح جن . فان « يهوّه »^(١) الذي أملاها هو أحد تلك الارواح التي تعمّر الطبقات الجوية السفلى ، وتبعث بالجانب الاكبر من الامراض التي تفتك بنا ، غير أنه يبرزها جميعاً في الجهالة والقسوة ، على النقيض من ذلك الثعبان ذي الأجنحة الذهبية الذي لف طياته اللازوردية على شجرة المعرفة ، فقد كان مخلوقاً من النور والحب ، فلم يكن ثمة بدّ من المشادة بين هاتين القوتين — هذه القوة المنيرة وتلك القوة المظلمة . وقد وقع

ذلك النزاع بعد خلق الدنيا . إذ دبر « يهوه » — لسوء حظ آدم وحواء ، وهما أول رجل وامرأة كانا يعيشان عاريين سعيدين في جنة عدن — وسيلة للسيطرة عليهما وعلى جميع ذريتهما . ولما لم يكن في حوزته فرجار أو قيثارة ، وكان كذلك جاهلاً بالعلم الذي له السلطان ، وبالفن الذي يستميل القلوب ، فقد روع هذين الساذجين المسكينين بأشباح مخيفة ، وتهديدات تخيلية ، وعود وبروق وصواعق . ولما أحسَّ آدم وحواء بظله فوق رأسيهما ، التصق كل منهما بالآخر وضاعف الخوفُ حبهما . فأشفق الثعبان الحكيم عليهما ، ورأى أن يشقّعهما بالعلم حتى لا تضللّهما الخرافات والا كاذب ، وتطلّب هذا المسيحي فطنة نادرة وحزماً فائقاً ، بيد أن الشيطان الكريم الصادق النية تلافي الامر بحكمته . فاقترب منهما بغير علم يهوه — الذي كان يدعي رؤية كل شيء — وكان في الحقيقة قصير النظر — وجذب بصرهما بأبهة درعه وبريق أجنحته . ثم روّض عقليهما بأن رسم امامهما ، بجسمه ، أشكالاً متقنة ، كالدائرة والأهليلج والحزون ، التي عرف الأغريق خواصها العجيبة منذ ذلك الحين . فعُني آدم بالتأمل في هذه الاشكال الهندسية اكثر من حواء : لكن لما بدأ الثعبان يتكلم ويعلمهما أسى الحقائق ، تلك التي لا يمكن التدليل عليها ، وجد أن آدم المخلوق من طين ذا طبيعة اكثف جداً من أن تجعله يدرك تلك العلوم الدقيقة ، وأن حواء ، بالضدّ ، قد استطاعت فهمها بسهولة

لكونها أرق قلباً وأدق احساساً . لذلك حدثها وهي وحدها ، في غياب زوجها ، لتكون أول من يطلع على ...

دور يون

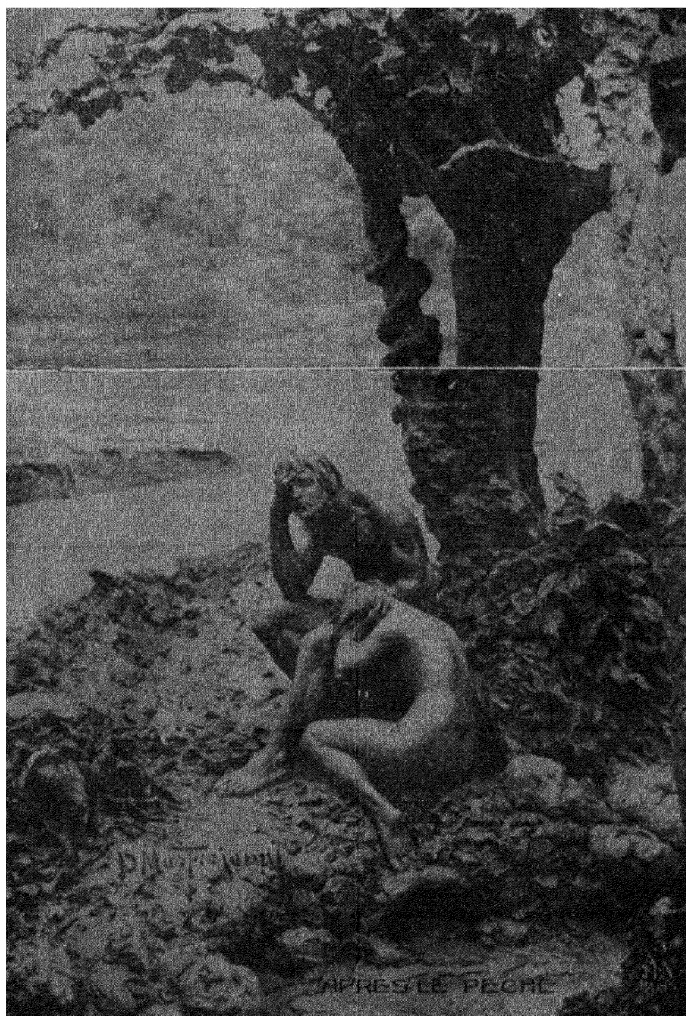
اغترق مقاطعتي لك يا زينوتيس . لقد تبينت أول الأمر من الخرافة التي قصصتها علينا إحدى وقائع الصراع بين « بالاس أتينا » ^(١) والجبارة . ولعمري أن يهوه يشبه جدّ الشبه « تيفون » ^(٢) والأثينيون يمثلون « بالاس » وإلى جانبها ثعبان . غير أن ما قلته الآن جعلني أشك فجأة في ذكاء الثعبان الذي تذكر ، وفي إخلاصه . فلو صحّ أنه أوتي الحكمة ، أفتراه يودعها رأس أنثى صغير الحجم لا يقدر أن يسمعها ؟ ! أوثر أن أعتقد أنه كان مثل يهوه جاهلاً كذّاباً ، واختار حواء لأنها أسهل انخداعاً ، ولأنه توسم في آدم ذكاءً وتبصرة .

زينوتيس

اعلم يا دوريون أن اسمي الحقائق وأفضلها لا يدرك بالبصيرة والذكاء ، بل بالحس والشعور . ولهذا ترعى النساء بوجه عام

(١) Pallas Athéné هي آلهة الحكمة عند الاغريق

(٢) آله الشر والجذب والظلام عند قدماء المصريين



(آدم وحواء بعد الخطيئة)



(الفردوس المفقود)

أقل إدراكاً من الرجال ، ولكنهن أدق منهم إحساساً ، فيصان
بسهولة الى قمة المعرفة بالمسائل الالهية ، ولهن موهبة الرجم بالغيب .
وانى لأستصوب تمثيل « أبولو » ^(١) العازف بقيثارته ، ويسوع
الناصري مرتدين كالنساء ثياباً فضفاضة . ومهما يكن رأيك
يا دوريون فالثعبان الذي هدى حواء كان حكيماً لتفضيله ، في عمله
النوراني ، حواء التي هي أنصع يابضاً من الحليب والكواكب ، على
آدم الثقيل الظل ! فقد صغت اليه طوعاً ، وانقادت الى شجرة
المعرفة التي تمتد فروعها الى السماء ، والتي بللها الروح القدس
كالندى . كانت هذه الشجرة يانعة بأوراق تنطق بالسنة الشعوب
المقبلة ، وتؤلف أصواتها المجتمعة موسيقى كاملة . وكانت أثمارها الوافرة
تغذي المهتدين وتعلمهم الاسماء كلها ، من معادن وأحجار ونبات ،
وقوانين الطبيعة والخلق ، ولكنها كانت لهيباً لا يجرو الذين
يخشون الالم والموت على إدنائها من شفاهم ، أما حواء فبعد أن
صغت بانتباه الى ذروس التعبان ، تحررت ورفعت نفسها عن
مستوى المخاوف الفارغة ، واشتهت أن تذوق الثمار التي تؤدي
الى معرفة الله . لكنها كانت تحب آدم فلم تشأ أن يكون دونها ،
فأخذت بيده وقادته الى الشجرة العجيبة ، وقطفت تفاحة متهبة

وأكلت منها ثم قدمتها الى رفيقها . ولكن ساء حظهما إذ باغتهما يهوه ، وكان يتنزه متعسفًا في الجنة ، فلما رأى أنهما قد علما ما كان مجهولاً لديهما ، تملكه غضب فظيع . وكانت غيرته شرًّا ما يُتَّقَى فاستجمع قواه وأحدث في الجوّ السفلي ضجة جزع من هولها ذانك الكائنات الضعيفان ، فأفلتت الثمرة من يد الرجل ، أما المرأة فقد تعلقت بعنقه وقالت : « أريد أن أقاسمك الجهل والألم ! » فلما انتصر يهوه أبى آدم وحواء وذريتهما في ذهول وفزع . وفازت صناعته التي لم تكن تتعدى خلق الشهب الغليظة ، وفاقت علم الثعبان الذي كان موسيقاراً ومهندساً . فعلم الناس الظلم والجهل والقسوة ، ومكّن للشر في الأرض . طارد قابيل ونسله لأنهم كانوا أهل جدّ وعمل . وأخذ الفلسطينيون بشعرهم الأورفيّ ومواعظهم العيسوية . فأفناهم على بكرة أبيهم . ثم صار للعلم والجمال عدوًّا لا تبرد غلته . وقد ظلّ النوع الانساني قرونًا متعاقبة غارقًا في بحار من الدموع والدماء تكفيراً لهزيمة الثعبان المجنّح . وكان بين الاغريق ، لحسن الحظ ، دهاة مثل فيثاغورس وافلاطون ، فأدركوا بقوة عبقرتهم الأشكال والأفكار التي حاول عدو يهوه عبثًا تعليمها للمرأة الأولى . كانت روح الثعبان فيهم ولذلك كرّم الأثينيون صورته كما قال دوريون . وأخيراً ، ظهرت ثلاثة أرواح علوية بأشكال بشرية : يسوع الجليلي ، وبازيليد ، وفالنتان . وقد أنعم عليهم باجتناء أفضل

الثمار من شجرة المعرفة التي غارت جذورها في بطن الأرض
وارتفعت قممها الى عنان السماء . وهذا ما شئت أن أقوله انتقاماً
للمسيحيين الذين كثيراً ما تنسب اليهم أغلاط اليهود

دور يون

إذا كنت وعيتُ ما قلته يازينوتيميس من أن الرجال الثلاثة
الحرثيين بالاعجاب — يسوع وبازيليد وقالنتان — قد اكتشفوا
أسراراً كانت خافية على فيثاغورس وأفلاطون وجميع فلاسفة
اليونان ، حتى على أبيقور الإلهي^(١) الذي حرّر الانسان من سائر
المخاوف الباطلة ، فيكون لك الفضل ان أنت انبأتنا بأية وسيلة أحرز
هؤلاء الثلاثة الزائلون المعارف التي غابت عن حكمة الحكماء

زينونيميس

وهل أنا بحاجة الى أن اكرر على مسمعك يا دور يون ان العلم

(١) Epicure فيلسوف اليونان العظيم (٣٤٢ — ٢٧١ ق . م)
يحتمل انه ولد في ساموس . يرى في اللذة الحيركاه . وانه يجب أن تتوجه
كل مجهوداتنا في سبيل الحصول عليها . لكنه يفرقها عن الحواس . ويرى في
لذة الجسد العذاب والالم . ويقول بلذة العقل وثقيفه وممارسة الفضيلة .
ويرى في ذلك السعادة وهي غاية الحياة . لكن مذهبه تحدر وتدهور من بعد
ذلك الى عكس أغراضه العالية النبيلة ككل مذهب من المذاهب السامية التي
يقضي عليها ضعف الانسان — (المترجم)

والتأمل ليس سوى الدرجة الأولى من المعرفة ، وان الانجذاب وحده هو الذي يوصل الانسان الى الحقائق الأزلية ؟

هيرمودور

صحيح يا زينوتيس ان الروح تغتذي بهذا الانجذاب كما يغتذي الجندب بالندى . وزد على ذلك ان العقل وحده هو الصالح لتجلي الجذب . لأن الانسان يتألف من طبيعة ثلاثية : جسد مادي ، وروح أرق منه وان كانت مادية مثله ، ثم عقل غير قابل للفناء . وعندما يصعد العقل من الجسد ، — الذي يصبح بعده كقصر هجره صاحبه بغتة فصار نهب الصمت والوحشة — ، ويحلّق في جنات الروح ، ويندمج في ذات الله — يتذوق العقل لذات موت عتيد ، أو بالحري حياة آتية ، فما الموت إلاّ الحياة ، وفي هذه الحالة — حالة الاتصال بالذات العلية والاشتراك في الصفاء الإلهي — يفوز العقل بمسرات لانهاية لها وبمعرفة مطلقة ، فيدخل الوحدة التي هي الكل فيكون كاملاً .

نسباني

هذا حري بالأعجاب . لكن الحق أقول يا هيرمودور اني لا أرى فرقاً كبيراً بين « الكل » و « العدم » . حتى الكلمات

تبدو عاجزة عن التمييز بينهما . فغير المتناهي يلوح ، الى درجة رائعة ، انه عبارة عن لا شيء — كلاهما بعيد عن التصور . ومن رأيي ان الكمال يكلف كثيراً جداً ، فقد يكاف الانسان حياته كلها ، وعلى المرء لكيما يحظى به أن يتفانى . وهي نكبة لم ينبجُ منها أحد مذ آلى الفلاسفة على أنفسهم تأليه الكمال وتكميل الآلهة ، وبعد ، فإذا كنا لا نعرف غير السكائن فنحن جاهلون كذلك ما يكون . أنا لا بدري شيئاً . . تقولون ان تفاهم الناس فيما بينهم محال ، ويبدو لي ، على رغم ضوضاء التنازع بيننا ، أنه يستحيل عليهم ألا يتفقوا في نهاية الامر ، وقد دفنوا جنباً الى جنب ، مغمورين بأكوام من المتناقضات التي هالوها هم أنفسهم فوق أنفسهم مثل بليون فوق أوسا . (١)

كونا

أحب الفلسفة حباً جماً ، وأمارسها في أوقات فراغي ، لكنني لا أفهمها جيداً إلا في كتب شيشرون .

(١) في أساطير الاولين بليون Pélion وأسا Ossa جبلان متجاوران في تساليا . فلما ثار الجبارة على الاله جوبيتر ، وأرادوا ان يرقوا أسباب السماء ، كوّموا بليون فوق أوسا فضررت مثلاً للمشكلات اذا زادت لغير نتيجة ، والصعوبات اذا قامت ضغثاً على ابئاله (المترجم)

يا أيها العبيد صبّوا السلافة المعسولة !

الكبريات

ان هذا لنتي ، عجب ! قبلما أذوق الطعام أذكر أيام كان الشعراء يجلسون على موائد الجبارة الطيين فيسيل لعابي . لكنني وقد ذقت الرحيق المحتوم الذي سكبته لنا بسخاء يا لوسيوس الكريم ، لم أحلم بسوى الجهاد المدني ، والعراك الحماسي . واني لأستحي أن أعيش في زمن كهذا لا مجد فيه . أنني أستوحى الحرية ، وأسفك دني ، في الخيال ، مع آخر الرومانيين في ساحات فيليب

كوما

مات أجدادي عند سقوط الجمهورية مع بروتس في سبيل الحرية . ولكن عندي أن ما دعاه الشعب الروماني « حرية » لم يكن في الحقيقة سوى حق حكم نفسه بنفسه . لا أنكر أن الحرية قد تكون خير النعم لأمة وأجدى ما تناله من العطايا . لكن كلما طال عمري زدت اقتناعاً بأن الحكومة القوية ذات الحول والطول هي وحدها التي تستطيع أن تضمنها لرعاياها . لقد قضيت أربعين عاماً شاغلاً أعظم مناصب الدولة ، ودلتي تجاربي الطويلة على أن وهن القوة الحاكمة ينتج ظلم الرعية . فكل الذين يسمعون ، مثل السواد الأعظم

من الفصحاء ، في أضعاف كيانه الحـكـومة ، يقتربون جرماً شنيعاً .
وقد تتخذ ارادة الحاكم المطلق حيناً مظهرأ مشئوماً ، لكن السعي الى
رضا الشعب يجعل الحزم والعزم في الحكم مستحيلاً . وقبل أن يعمر
العالم بجلالة السلم الروماني ، لم تسعد الشعوب الا بحكم مستبد مستنير

هبرموردور

أما أنا يا لوسيوس فأظن أنه لا يوجد مثال صالح للحكم ، وان
يوجد . إذ أن اليونانيين الألباء الذين وقفوا الى إدراك أشكال
صالحة لمختلف الشئون ، حاولوا عبثاً إيجاد الحكومة التي ينشدونها
من هذا القبيل . لذلك كان كل أمل من هذه الوجهة خائباً سلفاً .
ولقد استدللنا من علامات خاصة على أن الدنيا أشرفت على العرق في
الجهالة والوحشية ، وقدّر لنا يا لوسيوس أن نشهد احتضار المدينة
المروع ، ولم يبق لنا من كل الترضيات التي فازت بها الزكاة والعلم
والفضيلة إلا الفرع القاسي — إلا ارتقاب الموت مستسلمين

كونا

حقاً ان جوع البشر وعتو المتوحشين آفتان مخيفتان . غير أنه
بأسطول عظيم ، وجيش عرمرم ، ومال وفير ...

فهرمودور

ما فائدة اغترارنا بأنفسنا ؟ ان الامبراطورية المضمحلة سوف
تقدم لقمة سائغة للهمج . والمدن التي شاد صروحها الخدق الهيليني
والأناة اللاتينية لن تلبث أن تصير نهباً للمتوحشين السكارى . ولن
يبقى على وجه الارض فن ولا حكمة . ستقلب صور الارباب في
المعابد وتنعكس في القلوب . وسيكون في هذا ظلام العقل وفناء
العالم . وكيف نصدق أن « السرماتيين » سيقومون يوماً ما بأعمال
نابهة ، أو أن « الجرمان » سيزاولون الموسيقى والفلسفة ، أو أن
« الكاثر » و « الماركومان » سيعبدون الأرباب الخالدين ؟ كلا !
لقد مال ميزان كل شيء ، وتهدم . وهذه مصر العريقة في القدم التي
كانت مهد العالم ستصير لحده ، وستلتقي سيرايس - إله الموت -
أسنى تعبدات الأحياء . وسأكون أنا آخر كاهن لآخر إله ...



في تلك اللحظة رفع السجوف الموشاة مخلوق غريب ، فرأى
الضيوف أمامهم رجلاً ضئيل الجسم ، أحذب الظهر ، له جمجمة
مفلطحة صماء . وكان يرتدي جلباباً أزرق على الزي الاسيوي ،
ويابس كالهمج سراويل حمراء مرصعة بنجوم ذهبية . فلما رآه

بافنوس عرف أنه ماركوس الأريوسي ، فرفع يديه فوق رأسه خشية انقضاء صاعقة من السماء ، وامتنع لونه رعباً . ففي وليمة الشياطين هذه لم تستطع تجديدات الوثنيين ولا ترهات الفلاسفة الخاطئين أن تفت في عضده أو توهن من جلده ، ولكن أصابه بذلك مجرد حضور هذا الكافر . فحدثته نفسه بالفرار . . على أنه عندما التقى نظره ونظر تاييس ، اطمأن وسكن روعه ، إذ قرأ روح المجتابة وأدرك أنها - وهي توشك أن تصبح قديسة - قد أسبلت عليه ستر حمايتها ، فأمسك بطرف ثوبها الطويل الفضفاض ، وناجى المسيح مخلص البشر .

رحب المدعوون بوصول من يدعى « أفلاطون المسيحيين » ، وخاطبه هيرمودور أولاً بقوله :

- أي ماركوس النابه الذكر ! انا نبتهج جميعاً بروئك بيننا . وقد وافيتنا في الوقت المناسب . نحن لا نعلم عن تعاليم المسيحيين إلا ما يرضون باذاعته وحاش لفيلسوف مثلك أن يرتأي ما يرتئيه الدهماء . لذلك ترانا متلهفين للوقوف على رأيك في الأسرار الكبرى للعقيدة التي تنتحلها . وقد كان عزيزنا زينوتيس ، وهو كما تعلم شغف بتفسير الرموز ، يسأل الآن النابه بافنوس عن كتب اليهود ، غير أن بافنوس لم يجر جواباً ، ولا غرو فقد نذر ضيفنا الصمت . وختم الله على فمه في الصحراء . أما أنت يا ماركوس ، يا من رن

صوته في المجامع الكليروسية ، واعتلى المنابر في مجلس قسطنطين
الإلهي ، فستطيع — اذا شئت — أن تنقع غلتنا وتبلغنا أمنيته بأن
تطلعنا على الحقائق الفلسفية المحبوبة في أساطير المسيحيين . أو ليس
أولى هذه الحقائق هي وجود إله واحد لا شريك له ، به أومن
إيماناً ثابتاً ؟

ماركوس

أجل أيها الاخوان الموقرون ، إني أومن بواحد أحد ، لم يولد ،
فرد صمد ، مبدع لجميع الكائنات .

نسياس

نحن نعلم يا ماركوس أن ربك خلق الدنيا . وكان لهذا الخلق ،
بالتأكيد ، شأن يذكر في وجوده . وكان موجوداً منذ الأزل قبل
أن تصح عزيمته على خلقها . لكن لا بد لي من التسليم — إحقاقاً
للحق — بأن موقفه كان حرجاً جداً . فقد كان عليه أن يظل بلا
عمل ليظل كاملاً . وكان عليه أن يعمل اذا شاء أن يبرهن لنفسه
على وجوده . أراك تؤكد لي أن رأيه كان قد استقرّ على أن يعمل ،
واني لواثق بما تقول ، وان كان هذا يعدّ من قبل إله كامل إغضاء
لا يغتفر . والآن خبرنا يا ماركوس كيف شرع في خلق الدنيا ؟

ماركوس

ان الذين أوتوا الحكمة وجوهر المعرفة مثل هيرمودور وزينوتيس ، يعلمون وإن لم يكونوا مسيحيين ، ان الله لم يخلق العالم مباشرة وبغير واسطة . فقد اتخذ له ولداً واحداً هو الذي بأمره صنعت جميع الكائنات

هيرمودور

صدقت يا ماركوس ، وهذا الولد قد عبد بأسماء « هرمس » و « ميتراً » و « ادونيس » و « أبولو » و « يسوع »

ماركوس

لا اكون مسيحياً إذا أطلقت عليه اسماً غير « يسوع » و « المسيح » و « المختص » . انه حقاً ابن الله ، لكنه ليس بأزلي ، إذ أن له بداية . أما القول بأنه وُجد قبلما يولد فذلك سخف يجب أن يترك لبغال « نيسيه » ، وللحمار الحرون الذي حكم كنيسة الاسكندرية زمناً طويلاً باسم اثناسيوس اللعين .

وكان بافنوس قد شحب لسماعه هذا القذف ، وأغرقه الألم في لجة من عرقه ، فرسم علامة الصليب ولازم صمته السامي . ومضى ماركوس في حديثه .

- من المعلوم ان مجمع « نيسيه » الاكثريوسي الغر ، قد تهجم على جلاله عزّ شأنه ، بارغامه على تقسيم صفاته - التي لا تتجزأ - بينه وبين الشفيع الذي بواسطته صنعت كافة الموجودات ...
يا نسياس كفّ عن تهتمك بالله المسيحيين الحقّ ! واعلم انه جلّ شأنه كزنايق الحقل ، لا يعمل ولا يغزل . لم يكن هو الصانع بل كان ولده الوحيد يسوع الذي خلق الدنيا ، وبعد ذلك اتى سبحانه ليصلح عمله ، لأن الخليقة لم تكن كاملة ، وكان الشر حتماً قد امتزج فيها بالخير

نسياس

ما الخير ؟ وما الشر ؟

مرت فترة سكوت ، عرض فيها هيرمودور ، وذراعه مبسوطان فوق غطاء المائدة ، اتاناً صغيرة من معدن قورنثي تحمل سائين ، في أحدهما زيتون أخضر وفي الآخر زيتون أسود ، وقال :
- انظروا الى هذا الزيتون ، فاننا نرتاح الى تحالف لونه ، ويروقنا أن أحدهما أخضر والآخر أسود . لكن لو وُهب له الفكر والنطق والمعرفة ، لقال الأخضر : « خير للزيتون أن يكون أخضر ، وبئس الزيتون الأسود » . ولكن قوم الزيتون الاسود ينفرون

من قوم الزيتون الأخضر، أما نحن فحكما أعدل من حكمهم ،
لأننا فوقهم ، بقدر سمو الآلهة فوقنا . فالإنسان يرى جانباً واحداً
من كل شيء ، فيبصر الشر شرّاً ، والله يحيط بكل شيء علماً ،
فيرى في الشر خيراً . ان القبح بلا شك قبيح ، لا جميل . لكن
لو كان كل شيء جميلاً ، لما ظهر كل شيء جميلاً ، والحسن يظهر
حسنه الضدّ . . .

فلا بأس إذاً من أن يكون هناك شر ، كالذي أثبتته افلاطون
الثاني بما يفوق سميّة الأول

بوكريت

لنقل قولاً الى الفضيلة أقرب . الشر شر لا للعالم الذي لا يخل
نظامه المنزه عن الاضطراب ، وانما هو شر بالنسبة للشرير الذي
يقترفه ، وكان بوسعنا أن يجتنبه .

كونا

وحق چو پیتیر ! ان هذا عين الصواب !

بوكريت

العالم مأساة شاعر مجيد . والله الذي ألفها قد جعل لكل منا

دوراً يمثله فيها . فاذا شاء أن تكون سائلاً أو أميراً أو أخرج —
فابذل أقصى جهدك في اجادة تمثيل دورك !

نسياس

أجل ! .. ويحمل بأعرج المأساة أن يعرج مثل « هيفستوس » ،
وبالجنون أن يستسلم لهياج « أچاكس » ، وبالزانية بمحرّم أن
تجدد جرائم فيدروس ، وبالعادر أن يخون ، وبالحادع أن يكذب ،
وبالقاتل أن يذبح . وعندما يتم تمثيل الرواية فكل الممثلين —
الملوك ، والعدول ، والطغاة السفاكون ، والعذراى الطاهرات ،
والزوجات الفاسقات ، والقتلة الاندال ، وأهل البلاد ذوو الهمم
السماء — هؤلاء كلهم ينالون أنصبة متساوية من الثناء !

بوكريت

انك تشوه فكري يا نسياس ، وتحوّل العادة الحسنة الى غول
بشع ! انني ارثي لجهلك بطبيعة الآلهة والعدل السماوي والشرائع
الازلية .

زيتونميس

أما أنا يا صاحب فأومن بحقيقة الخير والشر ، لكنني أيقنت

انه ما من عمل بشري ، حتى قبلة يهوذا ، الا وفيه بذرة الفداء .
الشرعون على نجاة الناس نجاة نهائية ، وفي هذا يصدر عن الخير
وله نصيبه في الجزاء المتعلق بالخير . وهو ما بينه المسيحيون تبيناً
شائعاً في اسطورة الرجل ذي الشعر الاحمر الذي لسكي يخذع مولاه
منحه فبلة السلام ، واكد فعله خلاص الناس . كذلك ما من
شيء ، في رأيي ، اشد تناهياً في الشطط من الضغينة التي بها طارد
بعض أتباع « بولس الخيام » أنعس حواربي المسيح ، وفاتهم أن
قبلة « الاسخريوطي » التي تنبأ بها المسيح نفسه ، كانت ضرورية ،
بحسب عقيدتهم ، لفداء البشر . وانه لو لم يقبل يهوذا السفط ذا
الثلاثين من الفضة ، لكانت الحكمة الالهية فرية ، فتضال الذات
العلية ، وتنعكس اغراضها ، وتسلم الدنيا للشر والجهل والفناء . . .

ماركوس

سبق في علم الحكمة الالهية أن يهوذا كان مخيراً في الآيسلم
سيده ، ومع ذلك ساءه ، وهكذا استخدمت حرية الاسخريوطي
كحجر في بناء صرح الفداء العجيب .

زبنوتيميس

كلمتك الآن يا ماركوس . كمن يصدق أن نجاة الناس تمت

على يد المسيح المصلوب ، لعلمي أن هذا هو اعتقاد المسيحيين .
وقد أدركت ما يجول بخواطرم ليكون في تمام وسعي ان اكشف
عن خطأ اولئك الذين يعتقدون هلاك يهوذا الأبدي . وأرى أن
يسوع هو في الحقيقة البشير بيازيليد وقلنتان . أما من جهة سرّ
الفداء ، فسأخبركم أيها الأصدقاء الأعزاء ، مع قلة شوقكم الى
السماع ، كيف تم - في الواقع - على الأرض .
فأشار المدعوون بالقبول .

وعندئذ دخل القاعة اثنتا عشرة فتاة ، سريعات الخطى ، على
الحان ناي خفي ، يحملن على رؤوسهن سلال الرمان والتفاح ، مثل
العذراي الأثنيات بسلال الحصيد المقدسة . فوضعن السلال فوق
المائدة ، وانقطعت أنعام الناي . وقال زينوتيمس :

— لما خلقت « أيونيا » أي « فكرة الله » العالم ، عهدت
بمحكومة الارض الى الملائكة . لكنهم لم يحتمظوا بالرزانة اللاتئة
بالحكام ، فانهم لما رأوا بنات الناس فانتات ، باغتوهن في المساء
عند عيون المياه ، واجتمعوا بهن ، فتولد جنس شرس ملأ الارض
بغيا وعتوًا ، حتى ارتوت أتربة الطرقات من دماء الابرياء . ولما
رأت « أيونيا » هذا ، نالها حزن لا يوصف . فاتجهت الى الدنيا ،
وتنهدت قائلة :

« — هذا ما قدمت يداي ! ان أطفال المساكين غارقون

في حياة مريرة ، والذنب ذنبي . انهم يتوجعون مجرميتي وأريد أن أكفر عنها . الله نفسه ، الذي لا يفكر إلا بواسطتي ، لا يستطيع أن يرد اليهم طهارتهم الاولى . سبق السيف العذل ، وسوف تبقى الخليفة ناقصة حتى الأبد . وأقل ما أستطيعه ألا أتخلى عن مخلوقاتي . فاذا لم أستطع اسعادهم مثلي ، فاني أقدر على مقاسمتهم شقاءهم . وبما أنني أخطأت إذ وهبت لهم أجساداً تذلم ، فلاأخذن أنا الأخرى جسداً كأجسادهم ، وأذهب لأعيش بينهم »

ثم هبطت الى الارض واتصلت برحم امرأة أرجوسية حيث تكونت ثم ولدت صغيرة نحيلة ، وسميت « هيلانة » . وسخرت في أعمال الحياة ، بيد أنها ما عتمت أن ترعرعت في حسن وجمال وصارت أعزّ من يشتهي من النساء . وكانت قد اعتزمت أن تمنح جثمانها الفاني بأدنس الخطايا . فبذلت نفسها للزناة الشرعيين كفارة عن كل فسق وشراسة ومظلمة . وسببت بجمالها دمار الشعوب حتى يغفو الله عن جرائم الكون . ولم تكن « ايونيا » قط ، أو بالحري الفكرة السماوية ، مستحقة العبادة كما كانت في تلك الايام التي أباحت ، كامرأة ، عرضها للأبطال والرعاة .

تخيل الشعراء ألوهيتها حين وصفوها بالهدوء والسمو والفتك ، وعندما وجهوا الدعاء لها ، قائلين أنها : « روح صافية صفاء البحار »

كذا دفعت الشفقة « ايونيا » الى الشر والعذاب . ماتت ولا يزال الجنس الارجوسي ينتجع قبرها . كان عليها أن تعرف الموت بعد اللذة ، وأن تذوق الثمار المرّة التي بذرت بذورها . لكن بتخلصها من جسد هيلانة المنحلّ تجسّمت في شكل امرأة أخرى واقادت ثانية الى كل فاحشة . وهكذا بانتقالها من جسد الى جسد ، واجتيازها مراحل الشرّ بيننا ، تحمل أوزار الدنيا . ولن تذهب تضحياتها ادراج الرياح ، فلان اتصالها بنا برابطة اللحم والدم ، ومحبتها لنا ومشاركتنا في ذرف الدموع — ستحصل على نجاتنا ونجاتها معاً ، وسترفعنا ، معلقين بصدرها الأبيض الناصع ، الى سلام الفردوس المردود .

هيرمودور

هذه الاسطورة ليست بجهولة مني . فاني اذكر ما قيل عن هيلانة السائقة انها عانت في احدى تقمصاتها مع « سيمون » الساحر في أيام الامبراطور « تيروس » . على أنني أظن ان سقوطها كان على رغبتها ، وأن الملائكة طوّحوا بها معهم

زبتونميس

كذا يظن الذين لم يقفوا على حقائق الامور يا هيرمودور ،

فعندهم ان « ايونيا » الحزينة سقطت مضطربة غير مختارة . لكن اذا كان الأمر كما يزعمون فان « ايونيا » لن تكون السرية المكفّرة ، والنذر المغمور بكل مسبة ، والخبز المنقوع في خمر عارنا ، والقربان المحجب ، والضحية المثابة ، والمحرقه التي يتصاعد دخانها الى الله . . اذا لم تكن خطاياها برضاها فلا خير فيها ولا فضل لها .

كالكيرات

لكن ، هل يعلم أحد يا زينوتيس ، بأي أرض ، وبأي اسم ، وفي أي شكل فتان ، تعيش اليوم هذه « الهيلانة » التي تتحدد ولادتها على الدوام ؟

زينوتيس

لكيما يستطيع المرء أن يكشف عن هذا السر ، يجب أن يكون قد أوتي الحكمة . والحكمة ، يا كالكيرات ، لم تؤت الشعراء الذين يعيشون في عالم كثيف من الاستكال والاشباح ، والذين يتاهون بالاصوات والصور الوهمية كالاطفال

كالكيرات

حذار أن تسمي الى الآلهة يا زينوتيس الزنديق ، فالشعراء أعزّاء لديهم ، وقد سنّت الشرائع الأولى نظماً ، ومعجزات الأرباب

قصائد ، والآذان السماوية تستطيب وقع الأناشيد ! ومن ذا الذى
 يجهل أن الشعراء مطلعون على الغيب ولا تخفى عليهم خافية ؟ واذ
 كنت شاعراً وقد توجت باكليل من غار « أبولو » فساطلعمكم على
 آخر تجسد لأيونيا . ان هيلانة الأزلية على مقربة منكم . انها تنظر
 إلينا ونحن ننظر إليها ... انظروا الى تلك المرأة المتكئة على مساند
 فراشها ، بالغة حد الجمال ، غارقة في بحر الاحلام ، وقد اغرورقت
 عيناها بالدموع ، وتحركت شفتها بالقبل .. انها هي ! .. فتانة
 كما كانت في عهد پريام وأيام آسيا الزاهرة . ان ايونيا اليوم
 تدعى تاييس ! ...

فيلنا

ماذا تقول يا كليكرات ؟ أترى عزيزتنا تاييس قد عرفت
 باريس ومنالاس واهل « مورة » المشهورين بجمال أربطة الساق
 الذين حاربوا حيال « اليون » ؟ وهل كان حصان طروادة عالياً
 يا تاييس ؟

أربنبول

من يذكرك الخيل ؟

فصاح شيراس :

- لقد شربت حتى ارتويت !

ثم هوى ساقطاً تحت المائدة ..
فرفع كالليكرات كأسه قائلاً :

— اذا شربنا شرب الياثسين ، متنا موتورين !
ونام كوتا الشيخ ملقياً رأسه الأصلع على كتفيه العريضتين .
ومرت فترة من الزمن ، ودوريون يبدو كأنه يموج في معطفه الفلسفي ،
ثم اقترب من مُتَّكأ تاييس وقال :
— أحبك يا تاييس ، وان كان حب المرأة لا يليق بي !

تاييس

ولماذا لم تحبني منذ هنيهة ؟

دوريون

لأنني لم أكن ذقت طعاماً !

تاييس

أما أنا يا صاحبي المسكين ، لم أشرب سوى الماء القراح ،
فلا أحبك !

فاكتفى دوريون بما سمعه ، وانسل الى جانب دروسيه التي

أومات اليه بعينها لتستأثر به دون صاحبها . فاحتل زينونيميس
المكان الخالي وقبل تايبس في ثعرها

تايبس

كنت أحسبك أعفّ من أن تأتي بمثل هذا ...

زينونيميس

انني كامل ، والكاملون لا يقيدهم قانون !

تايبس

أفلا تخشى أن تتدنس اذا ألقيت بنفسك في حضن امرأة ؟

زينونيميس

للجسد أن يستسلم للشهوات ، وتبقى النفس طاهرة غير شاعرة !

تايبس

بعداً لك ! اني أريد أن أحب بالجسد والنفس معاً . كل هؤلاء

الفلاسفة تيوس !



انطفأت المصابيح واحداً إثر واحدٍ ، ونفذت أشعة الفجر الشاحبة من خلال السجوف فأضاءت وجوه المدعوين القائمة وعيونهم المتفتحة . وكان أريستوبول ، الذي سقط بجانب شيراس ، مطبق اليدين يرسل في حلمه سواسه الى الغربان ! .. وقد ضم زينوتيس في حضنه فيلانا المنهوكة القوى . وصبّ دوريون فوق حلقوم دروسيه العاري قطرات خمر ترقرت كاللواقيت وتدحرجت على صدرها الابيض ، الحراج من فرط الضحك ، وقد تعقب الفيلسوف تلك القطرات بشفتيه يشربها من فوق لحم الصدر الغض ..

نهض يوكريت ووضع يده على كتف نسياس واجتذبه الى أقصى القاعة ، وقال له مبتسماً :

— اذا كان لا يزال في طاقتك يا صديقي أن تفكر ، ففيم تفكر ؟

— أفكر في أن عشق النساء هو حقائق أدونيس !

— ماذا تعني ؟

— أو لم يجر في علمك يا يوكريت ان النساء في كل عام يشيدن حقائق صغيرة في شرفات منازلهن ، فيغرسن نخيلاً في أصص تكريماً لعاشق الزهرة ؟ فهذه النخيل تنضج وتخضر قليلاً ثم تذوي وتذبل ...

— وأي قيمة لهذا يا نسياس ؟ فمن حماقة أن يتعلق المرء بظل لا شك زائل .

— اذا كان الجمال ليس سوى ظل ، فليس الاشتهاء الاً وميض برق . وياليت شعري أية حماقة في اشتهاء الجمال ؟ من رأيي أن ما يزول ينبغي أن يصحب ما لا يدوم ، وان الوميض الحائل يبتلع الظل الزائل . .

— انك تبدولي يا نسياس طفلاً لاعباً بالاً كـر ! ألا فتحرر تكن رجلاً !

— كيف يمكن انساناً أن يتحرر يا يوكريت وله جسد ؟
— سترى حالاً يا ولدي ، وتقول : « لقد كان يوكريت حراً »
وكان الشيخ يستند أثناء كلامه الى عمود من رخام سُماقي ، وقد أضاء جبينه بأشعة الفجر الأولى . فاقترب هيرمودور وماركوس ووقفوا بجانب نسياس وأخذ الأربعة يتحدثون في الالهيات غير مكترئين لضحك السكارى وصياحهم . فأعرب يوكريت عن حكمة ، وأبان عن فصاحة ، جعلت ماركوس يقول له :

— انك خليك بأن تعرف الله الحق .

فأجاب يوكريت :

— ان الله الحق في قلب كل حكيم

ثم تكلموا في الموت

قال يوكريت :

— أريد أن يمجدني الموت مشغولاً بتقويم اعوجاجي وتأدية واجباتي . فأرفع يدي الطاهرتين أمامه نحو السماء وأقول للآلهة : « أيتها الآلهة ، لم أَدَس قط صورك التي وضعتها في هيكل روحي . هناك علقت أفكاري كالأ كاليل والتيجان . لقد عشت ممثلاً لذاتك العلية ، وقد عشت حتى اكتفيت »

قال هذا ورفع ذراعيه الى السماء فأضاء وجهه بنور ساطع .
ولبت هنيهة مفكراً ، ثم عاد يقول مسروراً :

— انتزع ذاتك من الحياة يا يوكريت ، كما تسقط الزيتون الناضجة من الشجرة التي حملتها ، فتحمدها ، وتحمدا الأرض التي غذتها .
ثم أخرج من ثنيات ثوبه خنجراً مسلولاً وأغمدته في صدره . .
ولما أمسك سامعوه بيده ، كان النصل قد اخترق صدر الرجل الحكيم . فحمل هيرمودور ونسياس الجسد المصفر المخضب بالدماء الى مضجع بين ولولة النساء المذعورات ، وتأفف الأضياف المنزعجين من رقادهم ، وتأوهات الشهوات المكتمة التي ركدت ريمها وخبث نارها . أما الشيخ كوتّا فقد استيقظ من نومه العسكري الخفيف ودنا من الجثة ، يفحص الجرح ويصبح :

— عليّ بطيبي أريستيه !

فهز نسياس رأسه وقال :

— لقد قضى يوكريت . انه اشتهى الموت كما يشتهي غيره
الحب . وقد أذعن ، مثلنا جميعاً ، لأمنية مبهمه . وها هو الآن
مثل الآلهة الذين لا يتمنون ولا يشتهون شيئاً ...
فقرع كوتاً جبهته وقال :

— الموت ! يشتهي الموت وهو لا يزال قادراً على خدمة
الدولة ؟ يا للخبال !

وكان بافنوس وتاييس قد لبثا جالسين جنباً الى جنب بغير
حرك ، وقد فاضت نفساهما بالاشمئزاز والرعب ، والأمل ..
ثم أمسك الراهب فجأة بيد الممثلة ، وتخطى معها السكاري
المصروعين على مقربة من المتعاقين والمتضاجعين ، واجتذبها مجتازاً
بها الشراب المسكوب والدم المسفوك ...





الصباح

(وقد أشرق نوره الوردي على المدينة)

البردي

— عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ —

طلع الصبح بلون الورد على المدينة . وامتدت صفوف الأعمدة الطويلة على جانبي الطريق المقفر . وقد أشرفت عليه من بعيد قبة قبر الاسكندر المتلاثلة . وكان على جانبي الطريق أكاليل زهر سقطت أوراقها ، ومشاعل انطفأ نورها ، مبعثرة هنا وهناك . وكان الهواء مرطباً بنسيمات البحر العليلة . فمزَّق بافنوس ثوبه الفاخر مشمئزاً وداس عروضه بقدميه ، وصاح قائلاً :

— ها قد سمعتم يا تاييس ! فقد نفثوا صنوف الحماقات والخبائث . وقذفوا بفاطر السموات والأرض من أعلى سمانه الى أسفل درك الجحيم حيث الشياطين . وأنكروا بوقاحة وجود الخير والشر ، وجدّوا على السيد المسيح وكفروا به ، وأثنوا على يهوذا . أمّا أشدهم طغياناً وفجراً فهو ذئب الظلام ، والحيوان النجس ، الأريوسي النتن المحشو بالفساد والهلاك ، فقد فتح فاه كما تنبش القبور . . . أي تاييس ! لقد رأيت تلك القوقعات النجسة تزحف اليك وتدنسك بعرقها اللزج ، وأبصرت أولئك الوحوش نائمين تحت أقدام العبيد ، وشاهدت أولئك البهائم متضاجعين فوق الطنافس

المدنسة بقيتهم ، لقد رأيت ذلك الشيخ المجنون يهرق دماً انجس
من الخمر المسكوبة في مجلس دعارتهم ، ويلقي بنفسه بعد الفراغ من
التهتك والخلاعة في وجه المسيح غير المنتظره ! .. الحمد لله ! .. لقد
رأيت الخطيئة وعرفت أنها مرذولة وساءت سبيلاً . تايبس !
تايبس ! تايبس ! إذكري جهالة أولئك الفلاسفة ، وقولي ، هل ترغبين
في الهذيان مثلهم ؟ إذكري النظرات والحركات والقهقهات التي
عاينتها من رفيقتهم الخليقتين بهم - تانك القردتان البهيميتان
الخبثتان ، وقولي ، أتودين أن تبقئ مثلها ؟

أما تايبس التي أحفظت قلبها مكاره تلك الليلة ، وشعرت بتفاهة
الرجال وبهيميتهم ، وخبائة النساء ، وثقل وطأة الأيام .. فانها
قالت منهدة :

- نفسي متعبة حتى الموت يا أبي ، فأين الراحة ؟ أحس
بجبنى ملتبهاً ، ورأسي خاوياً ، وذراعيّ مرتخيتين حتى لا أملك من
القوة ما يكفيني لأمسك السعادة لو أنها وُضعت في راحتيّ
فنظر اليها بافئوس بحنو وقال

- تشجعي يا أختاه ! . فقد اقتربت الساعة التي ترتاحين اليها ،
أنت التي ستصير بيضاء نقية مثل هذه الأبحرة التي ترينها صاعدة
من الحداثق والبحيرات



اقتربا من بيت تاييس . وشاهدا فوق الجدران رؤوس أشجار
الجميز والجلنار ، المحيطة بكهف العذارى ، تهتز تحت ظلّ نسمة
الصباح . . وكانت أمامهما راحة خالية محاطة بالعمُد والتماثيل المنذورة .
وفي أطرافها مقاعد مستديرة من الرخام عليها أنصاب مختلفة الأشكال .
فسقطت تاييس على أحد هذه المقاعد ، ثم رشقت الراهب بنظرة
تلهف ، وتساءلت :

- ماذا ينبغي أن أعمل ؟

فأجاب الراهب :

- ينبغي أن تتبعي ذاك الذي أتى للبحث عنك . انه سيفصلك
عن هذه الحياة كما يفصل القاطف عنقود العنب الذي يتعفن في
الكرم ويأخذه الى معصرة الخمر ليحوّله إلى صهباء طيبة النكهة
معطرة . اسمعي ! ان على مسيرة اثنتي عشرة ساعة من الاسكندرية ،
الى الجهة الغربية ، بقرب البحر ، ديراً للراهبات تعاليمه آيات حكمة
بينات جديدة بأن تكتب شعراً غنائياً وتوقع على ألحان الدف
والطنبور . . . والحق ان النساء اللواتي فيه باتّباعهن تلك التعاليم ،
واقدامهن على الأرض ، أصبحت جباههن في السماء ! وهن يحمين في
هذا العالم حياة الملائكة . يردن أن يكن فقيرات ليحبهن يسوع ،

خفرت كي ينظر اليهن ، قانتات ليتزوجهن .. يزورهن يومياً في ثوب بستاني حافي القدمين ، ويداه الجملتان مفتوحتان مثلما أظهر نفسه لمريم في طريق الضريح . وعلى ذلك ، سأخذك اليوم الى هذا الدير يا تاييس ، ولا تلبثين بعد انضمامك الى أولاء الراهبات القديسات أن تشتركي في سمرهن السماوي . انهن ينتظرنك كأخت لهن ، وعند عتبة الدير أمهن « ألبن » التقية تمنحك قبلة السلام ، وتقول لك . « أهلاً وسهلاً بك يا ابنتي ! »

فصاحت الغانية صيحة الدهشة وقالت :

— ألبن ! ابنة القياصرة ! ابنة أخت الامبراطور كاروس !

— هي بعينها ! ألبن الشريفة المحتد قد ارتدت بعد الأرجوان الروماني أطمارا بالية وسمت بنت سادة الدنيا الى منزلة خادم يسوع المسيح . ستكون أمك

قهضت تاييس وقالت .

— خذني الى بيت ألبن

فقال بافنوس متمماً نصره المبين :

— سأسير بك حتماً إليه . وسأقفل عليك في صومعة حيث

تبكين على آثامك وما قدمت يداك . إذ ليس من الرأي الصواب أن تختلطي بينات ألبن قبلما تغتسلي من جميع خطاياك ، وسأضع على الباب ختماً ، وستمكنين سجينة سعيدة حتى يأتي يسوع بنفسه

ويكسر الخاتم علامة الغفران . بالله لا يداخلك ريب يا تاييس في
محيته ، فسيأتي ، ويا للرعشة التي سوف تسري في جفونك حين
تشعرين بأصابع نوره فوق عينيك ترقاً دموعك !
فقلت تاييس ثانية :

- خذني يا أبي الى بيت ألين

امتلاً قلب بافنوس فرحاً . فنظر حوله وذاق - غالباً بغير
خوف - لذة التأمل في المخلوقات ، ونهلت عيناه من نور الله بآتماج ،
ومرت فوق جبينه نسمة مجهولة .. ثم أبصر فجأة في إحدى زوايا
الميدان الباب الصغير المؤدي الى بيت تاييس ، وتذكر ان تلك
الأشجار البديعة التي كان يعجب بأعاليها قد ظلت حدائق
العاهرة ، ورأى بعين الفكر الأرجاس التي لوّثت الهواء الذي كان
في ذلك اليوم منعشاً وتقياً ، فأمضته ذلك وأشجاء ، وعال من صبره
وشجاء ، فأجهش بالبكاء وقال :

- سنولي الأدبار يا تاييس لا نلوي على شيء . لكن لن

نترك وراءنا الادوات ، الشهود ، الشركاء في جرائمك الماضية . تلك
السجوف والأسرة والبسط وقوارير الطيب والمصابيح التي تعان
عن فجورك . أتريد من متاع الجريمة هذا المسكون بالشياطين والذي
يحملة الروح الاعين المستقر فيه - أن ينبعث أيضاً الى البادية ؟ ..
والحق الذي لا ريب فيه ان مؤانيد العار ومقاعد الشنار تستخدم

كأعوان للشياطين فهي تعمل وتنكم وتخبط في الأرض وتخرق الجو ! فليكن العدم والفناء نصيب شهود عارك ! ألا فاسرعي يا تاييس ومري ، والمدينة هاجمة ، عبيدك أن يقيموا في وسط هذا الميدان كومة من الحشب تحرق فوقها الثروة المدنسة التي يحتوي عليها مسكنك فارتضت تاييس ذلك ، وقالت :

— افعل يا أبي ما تريد . لست أجهل أن المتاع اللاروح فيه يصلح مساكن للارواح ! .. في الليل ، يتكلم بعض الأثاث سواء بضربات يحدثها في فترات معينة ، أو باظهار أضواء ضئيلة كإشارات ، ولكن هذا كله ليس بذي بال ، فثمة ما هو أدهى وأمر ، أفلم تلحظ يا أبي إلى يمين مدخل « كهف العذارى » تمثال امرأة عارية كأنها تتأهب للاستحمام ؟ رأيت بعيني رأسي هذا التمثال وقد التفت ذات يوم كأنه انسان حي ، ثم استعاد مظهره العادي ، فتشلجت أطرافي رعباً ، وضحك مني نسياس لما أخبرته بهذه الأعجوبة . فلا بد وأن يكون في هذا التمثال بعض السحر ، فقد حدث انه نفث مآرب مضنية في رجل دلماسي كان كافراً بجمالي . حقاً لقد كنت في وسط اشياء ساحرة وكنت معرضة لأشد الأخطار بروية الرجال وقد خنقهم عناق تمثال البرنز هذا !! ومع ذلك فمن دواعي الاسفان تعدم النفائس المصنوعة بمهارة نادرة ، واذا جعلت بسطي وسجوفي طعمة للنيران كانت الخسارة لا تعرض . وان جمال لون بعضها

لباهر حقيقةً ، وقد أنفق عليها الذين وهبونها أموالاً لا يستهان بها .
كذلك أملك أقداحاً وتماثيل وصوراً ثمينة ، ولا أظن أني اتلافها
ضروري ، لكنك يا أبي تعلم ما يجب عمله ، فاعمل ما تريد .

ثم تبعت الراهب الى الباب الصغير حيث علقت أكاليل الزهر
والتيجان الكثيرة ، ولما فتحت أمرت البواب أن يدعو عبيد البيت
جميعاً . فظهر أولاً أربعة هنود طهاة ، وكانوا عوراً صفر البشرة ،
وقد كابدت تاييس مشقة عظيمة ووجدت لذة كبيرة في جمعهم من
جنس واحد ، ومصايين بعاهة واحدة . وكانوا عندما يخدمون على
المائدة يثيرون فضول المدعوين فتأمرهم تاييس بقص تاريخ حياتهم .
اقترب هؤلاء وظلوا صامتين . ثم تبعهم مساعدوهم . ثم أقبل السوَّاس
والصائدون وحملة المحفَّة والسعاة الذين لا يرضيهم التعب ، وبستانيان
غزيرا الشعر ، وستة زنوج ذوو هيئة وحشية ، وثلاثة ممالك يونانيين
أحدهم نحوي والثاني شاعر والثالث مغنٍّ . اصطفوا جميعاً بانتظام في
الرحبة . وأقبلت الزنجيات الفضوليات ، منزعجات ، يدرن عيونهن
الكبيرة ، واشداقهن منشقة حتى أقراطهن . ثم ظهر ست جوار بيض
جميلات ، عابسات ، متقبات ، يجررن ببطء أقدامهن المكبلَّة
بسلاسل ذهبية دقيقة

ولما تكامل عددهم ، قالت تاييس لهم ، وهي تشير الى بافوس :

— افعلوا ما يأمركم به هذا الرجل ، فقد حلت به روح الرب ،
فاذا خالفتموه أدرككم الموت .

ذلك انها كانت قد سمعت ان لأولياء الصحراء من البأس
ما يفرق الخاطئين الذين يضربونهم بعصيهم في جوف الارض
المنشق الملهب . . فأمنت بما سمعت !

سرف بافنوس النساء ، والماليك اليونانيين الذين كانوا كالنساء ،
وقال للباقيين :

— ايتوا بخشب في وسط الرحبة ، وأوقدوا ناراً ، والقوا فيها
ما دار عليه البيت والكهف .

فوقفوا بلا حراك مشدوهين ، وسألوا مولاتهم بأعينهم ، فلما
رأوها لا تأتي بحركة ، ولا تنبس بينت شقة ، تراحوا بالمناكب ،
وقد داخلهم الشكوك فيما يراد بذلك ، وحسبوه دعاية . .

قال الراهب :

— أطيعوا !

كان منهم مسيحيون عديدون فقهوا ما طلب اليهم ، وراحوا
يبحثون في البيت عن خشب ومشاعل ، وتبعهم الباقيون بغير استياء
لأنهم لفقرهم يبغضون الثراء ، وفي غرتهم حب التدمير . وبينما كانوا
يكدسون الخشب ، قال بافنوس مخاطباً تاييس :

— خطر لي أن أستدعي خلزن إحدى كنائس الاسكندرية

(اذا كان فيها ما يصح أن يسمى كنيسة ولم يدنسها الأريوسيون
الوحوش) لأعطيه متاعك أيتها المرأة لميوزعه على الأراامل
والمساكين ، وبذلك يستحيل ربح الجريمة الى كنز العدالة . لكن
هذا الخاطر لم يأت من عند الله ، لذلك نبذته نبذ النواة . فلا شك
ان اعطاء أسلاب الترف والرفاهية الى أحبباء المسيح يكون
إساءة بالغة .

أي تاييس !

يجب أن يذهب كل ما لمست يدك طعمة للثيران حتى يصير
هشياً تذروه الرياح . حمداً لك يا سماء ، فان هذه الشفوف وهذه
الثُّقُب التي تلتق من القُبُل ما لا عدد له ، كأمواج البحر الزاخر ، لن
تمسّ الآن إلا شفاه الالهيب والسنته ! عجلوا أيها الارقاء ! هاتوا
أيضاً خشباً ومشاعل ! وأنت يا امرأة ، ادخلي البيت وانزعي حلتك
الفاضحة ، والتمسي من أحقر جواريك أن تمنّ عليك بأثرٍ قيص
لها تلبسه وهي تمسح البلاط . .

فأطاعت تاييس

وبينما كان الهنود راكعين ينفخون في الجذوة المتقدة ، قذف
الزئوج على النار صناديق العاج والأبنوس والأرز وهي مفتوحة
فسقطت منها التيجان وأكاليل الزهر والقلائد . وارتفع عمود

أسود من الدخان مثلما في محرقات الشرائع القديمة . ثم ان النار التي
حُصرت في صعيد واحد ، اندلعت فجأةً وزارت كحيوان مفترس ،
وأخذ لهبها الذي يكاد لا يرى من شدة تكاثف الدخان ، يلتهم
وقودها الثمين . فازدادت حمية العبيد في عملهم ، ونشطوا لجرّ
البسط الغالية ، والبراقع المطرزة بالفضة ، والديباج المزخرف . وقد
أثقل كواهلهم حمل المناضد والأرائك والوسائد السميكة والأسرة
ذات العُمد الذهبية . وجرى ثلاثة أحباش أقوياء حاملين في أحضانهم
تمائيل الكهف الملوّنة التي كانت أحدها محبوباً كأنه من الأحياء .
فما كان أشبههم بالقردة الكبيرة خاطمة النساء ! ولما سقطت هذه
الدمى الجميلة المتجردة ، من أذرع حاملها وتكسرت فوق الاحجار ،
سُمع لها صدى زفير وتنهد ...



وحينئذٍ ظهرت تاييس ، وتسرعا مرسل على كتفيها ، حافية ،
ترتدي قميصاً خشناً لاهندام له ، ولعلله صار بلمسه بدنّها مشرباً
بنعمة الله ...

وجاء وراءها بستانفي يحمل تمثال « إيروس » ^(١) صغير الحجم ،
مصنوعاً من العاج ، مخبوءاً في لحيته المتدلية . فأشارت تاييس إلى

(١) Eros هو اسم يوناني لآله الحب عند الاغريق

الرجل بالوقوف ، واقتربت من بافوس وأرته التمثال الصغير ،
وسأله :

— أحمتم يا أبي القاء هذا أيضاً في النار ؟ انه من الآثار القديمة
العجيبة ، وهو يساوي مائة مرة وزنه ذهباً ، ولن يعوض فقده .
لأنه لن يوجد في العالم فنّان قادر على صنع مثله . ولا تنس يا أبتِ
ان هذا الطفل الصغير هو رمز « الحب » . ومن الواجب أن
لا يعامل بقسوة . صدقني يا أبتِ ان الحب فضيلة ، واذا كنت أنا
قد أذنبتُ ، فليس منه ، وإنما إليه . لن أندم أبداً على ما جعلني الحب
أعمله ، واني لآسفة جد الأسف على ما اقترفته برغم منه . أما تراه
وهو يأتى على النساء أن يهين أنفسهن للذين لا يتقدمون باسمه ؟ انه
خليقٌ بكل إجلال وإكبار . انظري يا بافوس الى هذا « الأيروس »
الصغير ما أبدعه ! لقد لجأ برقة وخَفَرَ الى الحية البستاني محتبئاً . اهداه
إليّ نسياس يوماً ، وهو يحبني ، قائلاً : « سوف يحدثك عني » .
لكن إله الحب الماكر حدثني عن شاب كنت قد عرفتة في انطاكية ،
ولم يذكر لي نسياس . ترى .. أو لم يكفِ يا أبي ما هلك في هذه
المحرقة ؟ .. ابق على هذا « الأيروس » ، وضعه في معبد ، فيتوجه
الذين يرونه الى الله بقلوبهم ، لأن « الحب » طبعاً يعرف كيف
يسمو بتلك القلوب الى الافكار العلوية ...

وكان البستاني ، وقد جرى في ظنه ان الأيروس نجا ، يبسم له
كأنه الطفل الرضيع ، فاخطفه بافنوس من الذراعين اللتين تحملانه
ورمى به الى اللهب صارخاً :

— يكفي أن يكون نسياس قد لمسه ، ليفيض بكل أنواع
السموم !

ثم أمسك ببلء راحتيه الثياب المتألقة ، والأردية الارجوانية ،
والنعال الذهبية ، والامشاط ، ومحركات الجلد ، والمرايا ، والمصابيح ،
والطنابير ، والقيثارات ، ورمى بها في الأتون الذي كان أبهى من
محرقة « سردانا يال » . في حين سكر العبيد بنشوة التدمير ، فرقصوا
وهلّلوا تهليلاً وحشياً تحت وابل من الشرر والرماد

☆☆☆

استيقظ الجيران على هذه الجلبة واحداً بعد واحد ، ففتحوا
نوافذهم ، وفركوا عيونهم ليتبينوا مصدر الدخان ، وخرجوا مرتدين
بعض الثياب ، واقتربوا من مكان المحرقة متساءلين :
— ما الخبر ؟

وكان بينهم التجار الذين اعتادت تايبس ان تشتري منهم
العطور والملابس ، فانزعجوا واتلعوا أعناقهم محاولين ادراك كنه الامر .
ومرّ بالمكان بعض الشبان الفاسقين الذين كانوا منصرفين من
وليمة ، يتقدمهم عبيدهم ، فوقفوا ورددوهم متوجة بالزهر ، وأرديتهم

محلولة العرى ، وصاحوا صياحاً عالياً .

وأخذ هذا الجمهور الفضولي يزداد بغير انقطاع . وعُرف ان تاييس اغراها كاهن أنصينا بحرق متاعها قبلما تعتزل في احد الأديرة .

ففكر التجار في امرهم ، قائلين لانفسهم :

— تاييس تاركة المدينة تنعي من بناها ، فلن نبيعها بعد شيئاً ، فما افطع التأمل في هذا ! يا ويلنا ، ماذا يكون مصيرنا إذا زايلتنا ؟ ان هذا الراهب افقدها رستدها . إنه يحقننا . لماذا ترك حبله على غاربه ليأتي بمثل هذا ؟ وما نفع الشرائع والقوانين ؟ افلم يبق في الاسكندرية قضاة ؟ ان تاييس لا تفكر فينا او في زوجاتنا وأطفالنا المساكين . ان مسلكها فضيحة عامة . ينبغي ان نكره على البقاء في المدينة إكراهاً ...

وفكر الشبان من جهتهم :

— إذا كانت تاييس تكف عن التمثيل وتطلق الحب ، فان أعزّ الملاهي ينفض ويقفر . انها كانت بهجة المسرح ، ومجده الطارف ، وعزه التليد . انها كانت متعة ومسرة حتى للذين لم يحظوا بها . فيها أحب المرء من أحب من النساء . وما من قبله واحدة ،

تبودلت مع امرأة ، لم يكن لتايس فيها أثر . . . لأنها كانت لذة
الذات ، ومجرد الشعور بأنها تنفس بيننا ، يهيج فينا اللذة ! . .
كذلك فكّر الشبان ، ومنهم فتى يدعى « شيرون » كان قد
حظى بها يوماً ، فأخذ يصرخ ناعياً هذا السلب والنهب ، ساءباً المسيح
المغتصب .

وجميعهم ذمّوا تصرف تايس وعابوه :

- إنه فرار مخزٍ !
- إنه رحيل بجمانة !
- إنها آخذة الخبز من آفواها !
- إنها ذاهبة بصدّاق بناتنا !
- عليها ، على الأقل ، أن تدفع ثمن التيجان التي بعتها أيّاه !
- وثنّ الستين حلةً التي أوصتني بصنعها !
- إنها مدينة لكل انسان !
- من التي تمثّل بعدها أدوار « افيجينيا » و « الكترا »
و « بوليكنسا » ؟ ان « بوليب » الجميلة لن تباع شأوها !
- ستكتئب الحياة إذ أغلق باب تايس
- كانت الكوكب المتألق الساطع ، كانت في سماء الاسكندرية ،
البدر المنير الطالع !

وفي تلك الفترة من الزمن ، اجتمع في الساحة أشهر السّؤال
والمستعطين ، من العميان والمقعدين والمشلولين ، وزحفوا في ظل
الأغنياء متأوهين :

— كيف نعيش لما لا تكون تاييس هنا لتطعمنا ؟ ان فتات
مائدتها كان يُشبع كل يوم مائتين من المساكين . واعتاد عشاقها
عندما يغادرونها ، وقد طابت نفوسهم ، أن يرمونا بملء أيديهم
فضّة . . .

واندس أيضاً وسط الزحام بعض اللصوص وأخذوا يصرخون
صراخاً يصم الآذان ، وراحوا القريبين منهم ليزيدوا اختلال
النظام ، ويغنموا الفرصة لنشل ما خفّ حمله وغلا ثمنه !

أما الشيخ « تادّيه » ، بائع الصوف والكتان ، الذي كانت
تاييس مدينة له بمبلغ كبير من المال ، فقد لبث وحده ساكناً في
وسط الضحيج . أصاخ بأذنه ، ودار بنظره ، وداعب لحيته لحية
التيس ، ولاحت عليه سيمياء التفكير . وأخيراً ، اقترب من الشاب
« شيرون » وشده من كمه ، وقال بصوت خافت :

— أنت ، يا أيها المولى الجميل ، ذا الخطوة عند تاييس ، تدخل
ولا تدع هذا الراهب يذهب بها !

فصاح شيرون :

— قسما بيولكس وكاستر ، لن أدعه يفعل ذلك ! سأخاطب

تاييس وأحسبها ، ولا فخر ، ستصيح إليّ أكثر ممّا الى هذا الملوّث
بالرغام ! — افسحوا الطريق ! طريقاً يا رعا ع !

وبعد ان أمعن في الرجال ضرباً بجمع يده ، صارعاً العجائز ،
وواطئاً بقدميه الأطفال ، وصل الى تاييس ، وأخذها جانباً قائلاً لها :
— يا بنيتي الحسنة ! انظري إليّ واذكري نفسك ، واخبريني
أصبح أنك زهدت في الحب ؟

لكن بافنوس حال بينهما صائحاً .

— أيها الفاجر ! إخش روعة الموت ان أنت لمستها ! انها
مقدسة ! انها ملك لله ! ..
فأجابه الفتى ساخطاً .

— سحقاً لك يا أيها الناس ! دعني وحبيتي أخاطبها ، والآن
جررتك بلحيتك الى النار حيث أشوي هيكلك القبيح شيئاً
كالسجق ! ..

ومدّ يده نحو تاييس ، لكن الراهب دفعه بعيداً ، بقوة غير
منظورة ، فترنح الفتى وسقط على بعد أربع خطوات من موضع
الحرقة ، وسط الشعل المنهالة .

وكان الشيخ تاديه يذهب أثناء ذلك من رجل الى آخر ،
شاداً آذان العبيد ، مقبلاً أيدي السادة ، يحرضهم جميعاً على بافنوس



رقص تاييس
(في رواية « الكترا » لسوفوكايس)

ويغريهم به . وما لبث أن أَلْفَ عصبية صغيرة سارت رأساً الى الراهب الخاطف .

ونهض شيرون بوجه أسود ، وتسعر شائط ، وقد كاد يختنق من الدخان ، واندفع متميزاً من الغيظ مجدِّفاً بالآلهة . وألقى بنفسه في وسط المهاجمين الذين كان السائلون يزحفون من خلفهم ، ملوحين بعكا كيزم . فحضر بافئوس ، في الحال ، وسط دائرة من قبضات أيدي ممدودة ، وعصي مرفوعة ، وصيحات مروعة .

— اشنقوا الراهب ! استنقوه ! ...

— كلا ! اقدفوا به في النيران ! إشووه حياً !

فأمسك بقنبيصته الجميلة ، وضعاها الى صدره ضمةً طويلة ، وصاح بصوت كالرعد القاصف .

— أيها الفجار ! لا تحاولوا أن تحتطفوا الحماة من نسر الرب ! أولى بكم ثم أولى أن تقتدوا بهذه المرأة وتأسوا ، وأن تبدلوا مثلها بتركبكم تبراً ! احذوا مثلها ، وانبدوا المال الزائل الذي تظنون انكم تملكونه ، وهو الذي يملككم ويستعبدكم . عجلوا ! فكريماً ما توعدون وأوشك الصبر الالهي أن ينفد . توبوا واعترفوا بذنوبكم ، وابكوا وصلوا وأقنقوا أثر تاييس . إكروهوا خطاياكم التي لا تقلّ عن خطاياها . ليت شعري من منكم غنياً كان أم فقيراً ، تاجراً أم جندياً ، عبداً رقيقاً أم عيناً وجيهاً — يجرؤ على أن يقول بين يدي

الله أنه كان خيراً من بغى فاجرة ؟ ما أنتم الا ادران متجسمة ، وانها
لاية من لطف الله بكم ان لا تتحولوا فجأة الى محار طافحة بالوحول ؟
وكان ينبعث من حدقيه وهو يتكلم . شررٌ مستعر . وكأنما
تساقط من شفقيه جمر متوهج ، فأصغى اليه الذين من حوله صاغرين .
لكن « تاذيه » الهرم لم يكف عن المقاومة ، بل كان يجمع
الحجارة وأصداف المحار ويخفيها في طيات ثوبه ، ولم يجرؤ على أن
يرميها بنفسه ، فذسها في أيدي السائلين . ومالبت الراهب أن انهالت
عليه الحجارة ، وأصابت جبينه صدفة محارة أحكم تسديدها ، وسال
الدم الذى انحدر من وجه الشهيد الكتيب على رأس الثائبة كتعميد
جديد . وشعرت تاييس ، وقد ضغطها عناق الراهب وחדش ثوبه
الحشن جلدها الغض ، بالرعب والجزع يسريان فيها .

واذ ذاك أقبل رجل انيق اللباس ، متوج الجبين بالكرفس
وشق لنفسه طريقاً وسط الجمهور المائج ، وصاح .

— قفوا ! كفوا ! ان هذا الراهب اخي !

وكان الرجل نسياس . وقد مرّ بالرجبة عائداً الى داره بعد أن
أغمض عيني الفيلسوف يوكريت . ورأى بغير كبير دهشة (لأنه لم
يدهشه شيء قط) المحرقة المدخنة ، وتاييس مرتدية خرقة خشنة ،
وبافنوس يرجم ..

فكرّر قوله :

- قلتُ لكم قفو ! أبقوا على رفيقي في المدرسة ! احترموا رأس
بافنوس العزيز !

لكنه كان متعوداً بمباحثات الحكماء العويصة ، يعوزه ذلك
الحزم والتأثير الذي يسيطر على نفوس الجماهير ويتملك مشاعرهم ،
فأعاروه أذنًا صماء . وسقط وابل من الحصى والحجار على الراهب
الذي غطى تاييس بجسمه ، حامداً الله الذي أعاضته رأفته من جراحه
تريبتاً ...

فلما يئس نسياس من حملهم على الاستماع له ، والالتقياد اليه ،
وأيقن عجزه عن إقناذ صديقه سواء بالقوة أو بالحجة ، وسلم أمره
للآلهة - وكانت ثقته بهم ضعيفة - خطر له أن يجرب حيلة أرشده
اليها فجأة احتقاره للبشر . فأخرج من منطقته كيس نقوده ، وكان
ممتلئاً بالذهب والفضة ، لأن صاحبه من عشاق المسرات والمبهرات .
ثم حاول أن يغري الذين كانوا يرمون الحجارة برنين النقود ، فلم
يعبروه بداءة بدء التفاناً ، إذ كان حنقهم عظيماً ، لكن أنظارهم ما عمت
ان اتجهت شيئاً فشيئاً الى الذهب الرنان . ثم كفت أذرعهم الواهنة
عن إبداء فرستهم .

ولما رأى نسياس أنه جذب أبصارهم ، واجتذب نفوسهم ، ففتح
هميانه وبدأ يرمي في وسط الحشد قطع الذهب والفضة . فأنحى
المتناهون في الشراة لالتقاطها ، فابتهج الفيلسوف بنجاحه المبدئي ،

وجعل يرمي هنا وهناك الدراهم والدنانير . وعلا رنين القطع المعدنية فوق الرصيف ، فخرّ الراجون الى الأرض متزاحمين ، وتسابق السائلون والعبيد والتجار . والتفت الاشراف حول شيرون ينظرون الى المشهد ويقهقهون ، فنسي شيرون غضبه ، وشجع أصحابه المتناضلين الراكمين ، واختاروا منهم سباقين وتراهنوا عليهم . وكانوا يزدنون الشحنة بتحريرضهم أولئك البائسين كأنهم كلاب متقاتلة . وفاز مقعد ، مقطوع الساقين ، بالاستيلاء على درهم فعلا له الهتاف الى عنان السماء . وبدأ الشباب أيضاً يرمون قطع النقود . ولم يبق ثمة شيء يرى في الميدان سوى ظهور بشرية لا نهاية لها تعلو وتنخفض ، كأمواج البحر الزاخر ، تحت وابل مدرار من المعدن الرنان
وغدا بافنوس نسياً منسياً

فجرى اليه نسياس ، وغطاه بمعطفه ، وجره مع تاييس في الأزقة ، الى حيث باتوا بأمن من المطاردة ، ركضوا حيناً صامتين ، الى أن رأوا انهم صاروا في أمان ، فترشوا ، وقال نسياس بنعمة التهمك الممزوجة بشيء من الحزن :

— اذاً قضي الأمر ! واغتصب « فلوطن » « بروزر بين » (١)

(١) في الميثولوجيا ان فلوطن Pluton هو ملك الجحيم واله الموتى ، وابن زحل Saturne اله الزمان وسيل Cybèle ربة الارض ، واخو جوبيتر Jupiter ونبتون Neptune وزوج بروزرين Proserpine ربة الجحيم التي اختطفها ! — (المترجم)

وتريد تايبس أن تتبع صديقي الوحشي المظر أينما يذهب بها !
فأجابت تايبس :

— حقاً يا نسياس ، لقد سئمت عشرة أمثالك البسامين ،
المتعطين الكيسين ، الأنانين . ومملت كل ما أعرف ، لذلك أنا
ذاهبة للبحث عن المجهول . ولقد علمت بالاختبار ان الفرح لم يكن
فرحاً حقيقياً ، وهذا رجل يرشدني الى أن الحزن هو الفرح الحقيقي .
واني أومن بما يقول ، لأنه يعرف الحقيقة .
فأجابها نسياس مبتسماً .

— وأنا أيتها النفس الحبيبة أعرف الحقائق ! هو لا يعرف سوى
واحدة . وأنا قد أحطت علماً بها جميعاً . فأنا أغنى منه . ولكنني والحق
يقال ، لا أفوقه في كبرياء النفس ، أو سعادة الجد !
ولما رأى الراهب يرشقه بنظرات نارية ، قال .

— لا تحسبن يا عزيزي بافنوس اني أعدك بالعلم غاية
السخرية ، او نهاية الشطط . فلو قابلتُ حياتي بحياتك لما استطعت
أن اقول أيهما أجدى وأنفع . ها أنا الآن ذاهب لأغتسل في الحمام
الذي أعدته لي كرويل ومرتال ، وسأكل جناح درّاج ،
وسأعيد — للمرة المئة — تلاوة بعض القصص « الميليزية » أو
بعض مباحث « متروودور » وانت ستعود الى صومعتك حيث
تركم كجمل وديع ، مجترّاً التسابيح والتعاويد التي لا كها فك مراراً

وتكراراً ، فإذا جاء المساء ، تناولت الفجل بلا زيت . لكن لا بأس !
ففي قيامنا ، يا صاحبي العزيز ، بهذه الأعمال المختلفة في المظهر كل
الاختلاف - نخضع كلانا لعاطفة واحدة هي العامل الوحيد في جميع
فعال البشر ، كلانا يبحث عن لذاته ويسعى في نيل القصد المشترك -
السعادة ، السعادة المستحيلة ! وهبني أرى نفسي مصيباً ، ولا يليق بي
أن أتعرض لتخطئتك يا حبيبي !

أما أنت يا تاييسي ، فاذهي وافرحي وكوني أسعد حظاً - إذا
كان ذلك في الامكان - في زهد التعفف وطهارة الخشونة ، مما
كنت في الغنى والمسرات . فمن كل وجه أراك جديرة بالحسد لأننا
إذا كنا أنا وبافنوس في حياتنا بكاملها ، قد قنعنا - امثالاً
لطبيعتنا - بضرب واحد من ضروب المعيشة الراضية ، فانك
يا عزيزتي تاييس قد ذقت في حياتك هذه المسرات المختلفة التي قلما
يتاح لشخص واحد أن يتمتع بها . وحقاً كم أتمنى أن اكون ساعة
واحدة قديساً أو ولياً كعزيزنا وبافنوس ، غير أن هذا محظور علي .
فالوداع اذاً يا تاييس ! إذهي الى حيث تقودك قوى طبيعتك
ونصيك وقسمتك الخفية ! اذهبي مصحوبة اينما تذهبين بخير
تمنيات نسياس ؟ لست اجعل انها فارغة ، ولكن هل في استطاعتي
ان امنحك خيراً من تحسرات عقيمة وتمنيات باطلة جزاء التصورات
السارة الممتعة التي ظلمتني في حضنك فيما مضى ، والتي بقي لي منها

خيالها؟ الوداع أيتها المحسنة إليّ! الوداع أيتها النعمة التي تجهل أنها نعمة! أيتها الفضيلة الغامضة! يا لذة الرجال! وداعاً يا أحق صورة بالعبادة بين الصور الجميلة التي تنثرها الطبيعة دواماً، لغاية مجهولة، على وجه أرضنا الغرور!

وفي أثناء كلامه، كان قلب بافنوس يفلي من الحنق، فنفجر بهذه الشتائم:

— بعداً لك أيها اللعين! إنني أحتقرك وأمقتك! ابتعد يا وليد جهنم الذي هو شرّ ألف مرّة من أولئك الأتقياء الضالين الذين كانوا الآن يرموني بالحجارة وهم يسبون! انهم فعلوا ذلك عن جهل، وغفران الله الذي رجوته لهم قد يهبط يوماً على أفئدتهم... أما أنت يانسias المرذول فلست سوى حُمة غادرة وسم زعاف. انفاس فمك تنفث اليأس والموت. بسمّة واحدة من بسماتك تحوي تجديفات أكثر مما تقذفه شفتا ابليس الملوثنان في قرن من الزمان... تَبّاً لك أيها الكنود... إلى الورا...!

فنظر إليه نسياس بانعطاف، وقال:

— الوداع يا أخي، ليتك تصون إلى نهاية أجلك كنوز إيمانك ومقتك وحبك!.. الوداع يا تاييس! عبثاً تنسينني وأنا على ذكراك جدّ حريص!

تركها وسار مفكراً في الطرق المتعرجة بجوار مقبرة الاسكندرية الكبرى التي يسكنها صناع أواني الدفن الفخارية . وكانت حوانيتهم مملأة بتلك الدمى المزوقة المصنوعة من الصلصال تمثل آلهة وآلهات ، وتماثيل صامته ، ونسوة وجنيات صغيرات مجسدة جرت العادة بدفنها مع الموتى . فخطر لنسياس ان بعض الصور التي يراها قد تصحبه في نومه الأبدى . وخيل اليه ان « أيروساً » صغيراً ، مشمر الثوب ، يصحك ساخراً . فلما استحضر صورة جنازته التي صورها خياله قبل أوانها تألم ، فحاول تبديد حزنه بالفلسفة ، وأقام هذا الدليل :

— حقاً ان الزمان وهم لاحقيقة له : فما هو الا ضلالة من تصوّرنا . واذا لم يكن له وجود ، فكيف يستطيع أن يجلب الموت اليّ ؟ فهل معنى هذا اني أحيأ الى الابد ؟ كلا — ولكنني استنتج من هذا أن موتى كائن ، وقد كان دائماً ، كما انه سيكون أبداً . لم أشعر به بعد ، ولكنه موجود ، وينبغي ألا أخشاه . ومن الحق ان أخاف مجيء ما قد أتى . إنه موجود ، فكأنه آخر صفحة من كتاب أقرأه ، ولم أتم قراءته .

تغله هذا التعامل في مسيره ، دون أن يبهجه ، وكان مكتئب . النفس عند ما وصل الى عتبة داره ، وسمع ضحك جاريتيه كرويل ومرتال الرنان . وكانت تلهوان في انتظاره بلعب الكرة ...



عادر بافنوس وتاييس المدينة من باب القمر ، وسارا على شاطئ
البحر ، فقال ، الراهب .

— أيتها المرأة ! هذا البحر الأزرق الكبير كله لا يستطيع
غسل نجاستك ...

ثم خاطبها بغضب واحتقار

— يا أنجس من كلبة ، وأسد رجساً من حنزيرة ، لقد أنجحت
للفحشاء مع الوثنيين والكافرين جسداً خلقه الصمد ليكون محراباً ...
وإن أدناسك لمديدة حتى انك الآن ، وأنت تعرفين الحق ،
لا تستطيعين أن تضيئي تنفتيك ، وتحمعي يديك ، غير ما يتولد في
قلبك تفرز من نفسك ...

تبعته ، خافضة له حياح الدل والطاعة ، في المسالك الوعرة ، تحت
أشعة الشمس المحرقة ، فأضعف التعب ساقها ، وأحرق الظلم
أنفاسها ، وأهلب حلقها . أما بافنوس ، فبدلاً من أن يشعر بتلك
الشفقة الكاذبة التي تزين القلوب الدنسة ، فقد فرح بالآلاء التفكيرية
التي تنال هذا الجسد الآثم . . . ولشدّة تأثير الحمية القدسية فيه ، ودّة
لومزق ضرباً بالعصي ، هذا الجسم الذي احتفظ بمجماله ، كبرهان
ساطع على فجوره . ولما ذكر أن تاييس ضاجعت نسياس ، واستحضر
في مخيلته تلك الصورة البشعة ، حرى دمه كله مرتداً الى قلبه وكاد
صدره ينشق . وغصّ حنجرتة باللائعات ، فحرق الأرم ، ووثب منتصباً

إزاءها شاحباً ، رهيباً ، وقد ملأته قوةُ الله ، ونظر إليها حتى
اخترقت نظراته أعماق نفسها ، ثم بصق في وجهها

مسحت محياها بهدوء وانكسار ، دون أن تقف في سيرها .
فتبعها محققاً فيها كأنما هي هاوية . ومشى مغناطياً مفكراً في أن يثار
للمسيح حتى لا يثار المسيح لنفسه ، وإذا به يرى قطرةً من الدم سالت
من قدم تاييس فوق الرمال . هنا أحس بطراءة أنفاس مجهولة تدخل
قلبه المفتوح . . فتعانت التهنيدات الوفيرة الى شفتيه . فبكى ، ثم جرى
وخرّ أمامها . ودعاها أخته ، وقبل قدميها الداميتين ، وتمم مائة مرة .
— أختاه ! أختاه ! أماه ! يا أقدم قديسة !

ثم قدّم هذا الدعاء .

— يا ملائكة السماء ! حذوا فطرة الدم هذه باعتهاء ، وصعوها
أمام عرش الله . . . ليت الرمل الذي بلله دم تاييس يبت سقائى
نعمان ليسترد الذين يرون هذا الزهر نقاوة القلب وطهارة الشعور ! أي
تاييس أيتها القديسة البالغة غاية القداسة !

وإذا كان يصلي ويتنبأ ، مرّ به غلام على أنان ، فأمره بافئوس
أن يترجل ، ثم أركب تاييس الأتان وأمسك بالجام . واستأنف
مسيره . . .

أمسيا عند قناة مظلة بأشجار أنيقة ، فربط الأتان بمجزع نخلة ،

وافترسا الأحجار ، وتقاسما رغيماً أكلاه متبلاً بالملح والثغام ،
وشرباً براحتيهما ماءً سائغاً ، وتحدثنا في الابديات .
قالت تاييس :

— ما شربت قط مثل هذا الماء النخير ، ولا استنشقت مثل
هذا الهواء العليل ، واني لأحس أن الله سبحانه وتعالى يسبح في
النسمات التي تهب ...
فأجابها بافئوس :

— انظري ! انه المساء يا أختاه ! هوذا ظلال الليل الزرقاء
تغطي التلال . . لكنك لن تلبثي أن تري « خبايا الحياة » مشرقة
في الفجر ، وتساهدي إتراق ورد الصباح السرمدي !
سرياً سواد الليل ، وأنشدا المزامير والتسايج ، حينما كان نور
الهلل يقبل وجنات الأمواج الفضية . وعند ما أشرقت الشمس ،
امتدت امامهما الصحراء الليلية كجلد أسد واسع الأطراف . وفي
آخر الرمال لاحت لأعينهما ، في ضوء الفجر ، حصاص بيض بقرب
بعض النخيل . فسالت تاييس :

— هل هذه هي خبايا الحياة يا أبت ؟
— لقد حذرت يا ابنتي واختي . هذا هو الملح الذي سأضعك
فيه بيدي .

وما لبثا أن شاهدا نساء يَبْلُغْنَ من كل صوب حول مساكن



المساء

(وعائق الليلُ النهارَ . ونشر عليه جناحيه . فكان المساء)

يمجهز البقول ، والبعض يغزلن الصوف ، وعليهن نور السماء ينسكب
 كاتسامة من ثغرائه . . . وأخريات كنّ جالسات في ظل أشجار
 الأثل ، ومنصرفات للتأمل والنفكر ، وأيديهن البيض بجوانبهن ،
 لأنهن اذ شغفن حباً ، اخترن نصيب المحذية ، فانقطعن للصلاة
 والتأمل . لذلك سمين « المريات » ، وكن يرتدين ثياباً بيضاء . أما
 اللواتي كن يشتغلن بأيديهن فقد أطلق عليهن اسم « المريات » ،
 وكن يلبسن ملابس ررقاء . وكن جميعهن متقنات ، لكن اللواتي
 كن في نضارة الشباب أرسلن خصل الشعر تتدلى فوق الجبين ،
 ولعل ذلك كان ، كما يغاب على الظن ، عفواً بغير قصد ، لأن نظام
 الدير يحظره . . .

وكانت هناك عجوز بلغت من الكبر عتياً ، طويلة القامة ، بيضاء
 اللون ، تسير من حصّ الى آخر متكئة على عكازة من خشب متين .
 فاقترب منها بافئوس باحترام ، ولثم طرف خمارها ، وقال :

عليك سلام الله يا ألبين الموقرة ! لقد أتيت الى الفقير الذي
 أنت ملكته ، نحلة وجدتها ضالة في طريق مجدب لا زهر فيه
 فأخذتها في راحتي ، وأدفاتها بأنفاسي . إني أعطيك إياها . . .
 وأشار بأصبعه الى الممثلة التي كانت راكعة أمام بنت القياصرة .
 فالتت ألبين على تاييس نظرة ناقة ، وأمرتها بالنهوض ، وقلت
 حينها ، ثم تحولت نحو الراهب قائلة :

— سنضعها بين « المريمات » .

فأخبرها بافانوس عندئذ بالوسائل التي أحضرت تاييس بها الى « بيت الخلاص » . وسألها أن تُعزل ، بداءة بدء ، في صومعة . فقبلت رئيسة الدير ، وقادت الثابتة الى خصّ خلايموت العذراء « ليتا » ، ولم يكن في هذه الصومعة الضيقة سوى فراش ومائدة وابريق . ولما وضعت تاييس قدمها على العتبة امتلأت بهجة لاحدّها . فقال بافانوس :

— أريد ان أقفل الباب بنفسي ، وأن أضع عليه ختماً يأتي المسيح ويكسره يديه .

وذهب الى حافة النبع ، وأخذ قبضة من الصلصال ، ومرحه بشيء من ريقه ، ووضع فيه شعرة من شعره ، وسد به شق الباب . ثم اقترب من النافذة ، حيث كانت تاييس واقفة ، وادعة راضية ، وسقط على ركبتيه ، وحمد الله ثلاثاً ، وصاح :

— ما أوجل التي تسير على الصراط المستقيم !... ما أبدع قدميها وما أبهى محماتها !...

ثم نهض ، وأرخى برنسه على عينيّه ، وسار الهويناً مبتعداً ... فنادت ألبين إحدى العذارى ، قائلة :

— احملني يا ابنتي الى تاييس كل ما هي في حاجة اليه ، من خبز ، وماء وناي ذي ثلاثة ثقوب ...

الفرييون



قفل بافنوس راجعاً الى الصحراء المقدسة ، واستقلَّ بقرب
« تل إتريب Athribis » مركباً صاعداً في النيل يحمل المؤن
لدير السرايوم . ولما خرج من السفينة تقدم تلاميذه لملاقاته
بظواهرات المرح العظيمة . لأنهم عرفوا ماتمَّ بمدينة الاسكندرية
على يديه . وكان الكهنة يتأقنون عادة ، بوسائل سريعة مجهولة ،
الأخبار المتعلقة بأمن الكنيسة ومجدها . وكانت الأنباء تُذاع في
الصحراء بسرعة ربح السموم . .

وبينما كان بافنوس يذرع الرمال ، تبعه تلاميذه مسبحين بحمد
الله ، واعتري « فلاقيان » أكبر أخوته ، هذيان ديني فجائي فأخذ
يترنم بأنشودة مألوفة . . .

ولما وصلوا الى صومعة الرئيس ، ركعوا جميعاً وقالوا :

(الفرييون — L'Euphorbe) اسم مشتق من « أوفرييوس » اسم
طبيب أحد ملوك الغرب . وهو لب نفاثي أبيض . (المترجم)

- يا ليت أبانا يباركنا ويعطي كلاً منا مقداراً من الزيت
لنحتفل بعودته ؟

أما بولس الساذج ، فقد لبس وحده واقفاً ينسال : « من هو
هذا الرجل ؟ » .. ولم يعرف بافنوس . على أنه لم يعر أحد قوله
التفاتاً لما عُرِف عنه من عدم الذكاء والفطنة ، مع كونه موفور الصلاح .



حلا كاهن « أنصيتا Antinoe » في صومعته ، فقال في نفسه :
- أراني قد استعدت أحيراً ملاً ذراحتي وهنائي ، وعدت الى
معقل قناعتي واكتفائي . لكن ماذا حدث حتى أن هذا السقف
العزيز المصنوع من العاب ، لم يستقبلي كصديق ، ولا قالت الجدران
أهلاً وسهلاً ؟! ما تعير منذ رجولي شي في هذا المقام المختار . هذا
حوائي ، وهذا فراستي ، وهذا رأس الموياء الذي طالما أوحى اليّ
الافكار النافعة ، وهذا هو الكتاب الذي كثيراً ما بحثت فيه عن
صور الله ... ومع ذلك لا أجد شيئاً مما تركته . كأنما قد غُرِبَت



الاستياء من روثها المعهود ، ويخيل اليّ اني أراها
اليوم أول مرة . عند ما أنظر الى هذه المائدة ، وهذه
الأريكة اللتين صنعتها يداي في الايام الخالية . والى هذا الرأس
الاسود اليابس ، والى أدراج البردي المملوءة بآيات الله - يلوح لي انها

آثار رجل ميت . وأراني ، بعد أن تعرقها كلها ، لا أكاد اعرفها ! .
وأسفاه ! . . انه ما من شيء في الحقيقة قد تغير حولي ، ولكنني أنا
الذي لم أبقَ الشخص الذي كنته . أنا رجل آخر . فالرجل الميت
هو أنا ! يا إلهي ! ما الذي صار اليه سافى ؟ ما الذي أخذه مني ؟ وما
الذي تركه لي ؟ ومن أكون أنا ؟

وقد انزعج بخاصة لما وحد أن صومعته صغيرة . مع أنه كان
يجب — إذا نظر إليها بعين الايمان — أن يراها كبيرة ولا يرى نهايتها .
لأن سعة الله غير المحدودة تبتدي منها . .

بدأ يصلي ، منصقاً بجهته بالرغام . فتعزى ، واسترد شيثاً من
العرح . وما كادت تمضي عليه الساعة في التصرع والابتهاال ، حتى
مرت أمام عيني صورة تاييس ، فردد الشكر لله :

— يا يسوع ! انك أنت الذي بعثت بها الي . فاعترف بعصاك

العظيم عليّ . أردت أن تسرّ خاطري . وتهدي ثاثري ، بروية التي
أعطيتك إياها . أراك تمثل أمام ناظري اسمها التي زال الخوف من
أذاها . ورقتها الرائقة التي لم يعد منها ضير ولا صرار ، وجهالها الذي
نزعْتُ منه شوكتة الناخسة ! انك لكي ترضيني يا إلهي ، تظهرهالي كما
زينتها وزيكيتها انتعاء رضاك ، مثلما يذكر الصديق صديقه بالهدية
التي تلقاها منه . لذلك أرى هذه المرأة مبتهجاً ، لثقتي بأن طيفها آتٍ
من لدنك . انك لا تسي اني وهبتها لك يا يسوع ! فاحتفظ بها ،

ما دامت تسرك ، ولا تدع محاسنها تسبي أحداً سواك . . .
 قضى الليل كله ساهراً ، ما اكتحل بنوم ولا أحدثه سنة ، ورأى
 تاييس بجلاء أظهر مما رآها « في كهف العذارى » ، فزكى نفسه بقوله .
 - ان ما فعلته ، قد فعلته لمجد الله . . .

ومع ذلك بلغ منه الدهش مبالغه ، لأن قلبه لم يطمئن ،
 فتهد قاتلاً :

- لم أت حزينة يا نفسي ، ولماذا أنت تقلقيني !
 وبقيت نفسى فى انزعاج . ولبث ثلاثين يوماً على هذه الحال
 من السكامة التي تعدّ نذيراً للناسك بحزن هائلة ، وتمر مستطير . لم
 تفارقه صورة تاييس ليلاً ولا نهاراً . ولم يبعدها عنه لأنه كان
 لا يزال يظن انها أتت من عند الله ، وانها صورة قديسة . .
 لكنها فى صباح أحد الأيام ، تراءت له فى حلم ، وكان شعرها
 متوجاً بزهر البنفسج ، وكانت رائعة فى حلاوتها حتى أنه صرخ من
 شدة الخوف . . فاستيقظ وقد بلّله العرق البارد . وكانت عيناه
 لا تزالان مثقلتين بالنعاس ، فشمر بأنفاس رطبة دافئة تمرّ على وجهه .
 "أنفاس ابن آوى صغير ، وضع مخلييه عند رأسه ، وأخذ يلبث لهائه
 التئ فى وجهه ، ويضحك من أقصى بلعومه . . .
 فشهده بافنوس وأخذ منه العجب كل مأخذ ، وشعر كأنما قد
 انهار تحت قدميه صرخ شامخ . . .

أحل ! .. ففي الواقع انه سقط من ذروة إيمانه المتقوّض ...
قضى بعض الزمن مضطرب الفكر ، ولما ثاب اليه رشده ،
أفضت تأملانه الى زيادة قلقه ، فقال في نفسه :

— إما أن تكون هذه الرؤيا من الله مثل سابقاتها ، فهي
صالحة ، وفسادي الطبيعي قد أفسدها ، كما يتحول النبيذ خلّاً في
الكأس القدرة . وقد أبدلتُ ، لعدم جدارتي ، من النعمة نقمة ،
واغتم ابن آوى الشيطاني فرصتها واستفاد منها . وإما أن لا تكون
من عند الله بل من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور
الناس ، فهي شريرة ، وساءت سيلاً . وفي هذه الحالة أشك فيما إذا
كانت الرؤي السابقة من مصدر سماوي كما حسبتها . فأنا والحالة هذه
قاصرٌ حتى عن التمييز الذي لا بد منه للزاهد ، وأرى الله يبيدي في
كلتا الحالتين ، نفوره مني ، وإعراضه عني ، وهو ما أشعر بتأثيره ،
وأنعجز عن تعليله ...

وعلى هذا النمط برهن ، ثم تضرع بكرب :

— يا أيها الإله العادل ! .. بأية تجاريب تبلو عبادك ، إذا
كانت أشباح قدسيك خطراً عليها ؟ دعني أميز بعلامة واضحة ،
ما يأتي منك وما يأتي من الشيطان .



صحت عزيمة بافئوس بعد ذالك على أن يكفّ عن التفكير في

تاييس إذ تجاذبه الشكوك ولم يُنح له الله جلت مقاصده أن يهديه السبيل . لكن تصميمه ظل عقيماً . فأن الغائبة عنه ، كانت حاضرة معه . وكأنها تنظر اليه وهو يقرأ ، ويفكر ، ويصلي ، ويتأمل . . . وكان اقترابها الصوري ، يسبقه صوت كحيف ثوب امرأة في أثناء مسيرها . وكانت هذه الخيالات ، أدق من الحقائق التي تنزعزع ويعتريها الارتباك ، بينها الاشباح الناشئة من العزلة ، تمتاز بأهم ميزاتهما من حيث شدة الثبات والرسوخ .

أنته تاييس بأشكال مختلفة ، تارة مفكرة وقد توج جبينها بآخر تيجانها التي أحرقت ، ومرتدية كما كانت في مأدبة الاسكندرية ، ثوباً أرجوانياً مرصعاً بأزهار من فضة واستبرق . وطوراً خليعة في سحابة من "نقبا الشفافة ، مستحمة في ظلال « كهف العذاري » . . . وحيناً متألقة في أطوار الفرح السماوي . وحيناً أحر مفجوعة ، تدور عيناها في مفازع الموت ، وقد أنانت عن صدرها العاري المخضب بدم قلبها الكليم . . .

وكان أشد ما أزعجه من هذه الخيالات ، رجوع الالكاليل والأثواب والنقُب التي أحرقتها بيديه ، إذ اتضح له أن لهذه الاشياء روحاً لا تقنى ولا تبديد ، فصاح :

— ها هي أرواح خطايا تاييس التي لا نحصى تأتي الي !
ولما التفت ، شعر بتاييس وراءه ، فلم يزد إلا انزعاجاً . وكان

شقاؤه بالغاً أشده . ولكن اذ أن نفسه وجسده بقيا تقيين في وسط هذه التجربة ، لم يقنط من رحمة الله ، وتقرب منه رافعاً هذه الشكوى برفق وخشوع

- إلهي ! اذا كنت قد ذهبتُ الى هذا البعد السحيق ، أتفقدها بين الكافرين ، فقد كان ذلك لأجلك ، لا لأجل نفسي . فليس من العدل أن أعذب لما فعلته في طاعتك وفعمك . أسبل عليّ ستر حمايتك يا يسوع الحليم ! يا مخلصي خلصني ! لا تبج للشبح أن يقضي ما عجز الجسد عن فعله . أما وقد انتصرت على الجئان فلا تدع الخيال بصرعني . لا أجهل اني معرض لمخاطر أعظم حدّاً مما تعرّضتُ له قبلاً ، ولا يخفى عليّ أن الحلم أقوى من الحقيقة . وكيف لا يكون كذلك وهو ذاته حقيقة سامية ؟ هو النفس . وأفلاطون ذاته مع كونه وثنيّاً ، سأم بصحة وجود الهواחס . وفي مأدبة الشياطين التي صحباني اليها يا رب ، سمعت أحاديث رجال مع كونهم أشراراً ، لم يكونوا خالين من الذكاء ، وقد اتفقت كلمتهم ، على أن ما نبصره في العزلة والتفكير والذهول هو حقيقي . وكتبك المقدسة يا إلهي ، تثبت في مواضع عديدة صحة الاحلام وتأثير الخيالات الصادرة ، إيمانك يا إلهي جل شأنك ، وإيمانك من عدوك ...

كان فيه رجل جديد . فناقش الله ، ولكنه سبحانه لم يبادر

الى هدايته وارتاده . كانت ليلاليه حلمًا واحدًا طويلًا ، ولم تكن أيامه تختلف عن ليلاليه .

استيقظ ذات صباح وهو يصعد زفرات كالتي تصدر في ضياء القمر عن قبور ضحايا الجرائم . لان تاييس كانت قد أتته تريه قدميها المخضبتين بالدماء . فلما اغرورقت عيناه بالدموع ، اندست في فراشه . فلم يبق عنده اقل شك في أن صورة تاييس كانت صورة أم ودعارة ...

فثار قلبه تفرزاً وفاض استمئزاراً . وانتزع نفسه من فراشه النجس انتزاعاً ، وخبأ وجهه في يديه كي لا يرى نور النهار . ومرّت الساعات بعير أن تمحو عاره . وخيم السكوت على الصومعة . وأخيراً غادره الشبح ، على أن غيابه كان كذلك مذمّحاً . وما من شيء على الاطلاق أهله عن تذكر الحلم الفاضح . ففكر هالعاً مرتاعاً :

— لماذا لم أدفعها عني ؟ لماذا لم أنتزع نفسي من ذراعيها الباردتين ، وركبتها المتهبتين ...



لم يعد يجروء على الطق باسم الجلالة بقرب ذلك الفراش السكريه . وأشفق أن تكون صومعته قد تنجست فيستبيح الشاطين دخولها في كل آن . ولم تكذبه مخاوفه ، فبنات آوى السبع التي كانت ملازمة

بابه ولم تخط قط عنته ، قد دخلت على التعاقب وكنت تحت المضجع . وعند صلاة المغرب ، أقبل الثامن وكانت راحته تنته وبيئة لا تطاق . وفي اليوم التالي انضم التاسع إليها . وما لبثت أن صارت ثلاثين ثم ستين ثم ثمانين . وكانت كلما تكاثرت تصاغرت : ولما لم تزد على حجم الفأر غطت الأرض والفراش والمقعد ، ووثب أحدها على الرف الصغير عند رأس المضجع ووضع مخالبه الأماميين فوق جمجمة المومياء . ثم نظر الى الراهب بعينين ناريتين . . . وفي كل يوم كانت بنات آوى جديدة تحي . يزحم بعضها بعضاً .



فلنكي يكفر بافنوس عن رجس حلمه ، ويتخلص من الأفكار المدنسة ، قرأ رايه على أن يغادر صومعته التي نجست ، ويضرب في فيافي الصحراء يمارس تقشفاً وتزهداً لم يسمع أحد بمثلهما . ويقوم بأعمال فريدة تسير بذكرها الركبان ، ويقدم كفارة ما لها من نظير . لكنه رأى أن يذهب الى الشيخ بالمون لاستشارته قبل تنفيذ خطته . فوجده في بستانه يروي خسته ، وقد مال ميزان النهار ، وجرى النيل الأزرق في سفح التلال البنفسجية . وكان الشيخ الصالح التقى يمشي الهويناً لكيلا يزعج حمامة حطت على كنفه . قال :

— الرب معك يا أخى بافنوس ! أعجب برحمته سبحانه ! يبعث
إليّ بالحيوانات التي خلقها لأحدثها عن أعماله ، وأنجده في طير السما !
انظر الى هذه الحمامة ولاحظ ألوان عنقها المتغيرة ، وقل لي أليست
من أعمال الله الجميلة ؟ ثم قل لي أو لم تأت يا أخى لتحديثي عن
بعض شؤون الدين ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فسأنزل رشاشتي ،
والتي بسمعي اليك .

فحكى له بافنوس حكاية رحلته ، وعودته ، وزؤياه في النهار ،
وأحلامه بالليل . ولم يغفل ذكر الحلم الاثيم ، وجماعة بنات آوى ،
ثم قال :

— ألا ترى يا أبى أنه يجب عليّ أن أتغافل في الصحراء ،
لأقوم فيها بأعمال خارقة ، وأدهش ابليس بزهدي واستماتي ؟
فأجابه بالمون :

— لست سوى خاطيء مسكين ، وخبرني بالناس قليلة ، إذ
قضيت طول حياتي في هذا البستان مع الغزلان والأرانب الصغيرة
والحمام . لكن يلوح لي يا أخى أن مرضك ناشيء على الخصوص من
انتقالك بغتةً بغير حيلة ، من جلبة المعمورة الى سكينه القفرة . هذه
الانتقالات الفجائية لا بد أن توهن صحة النفس . ومثلك يا أخى
مثل رجل يعرض نفسه ، في وقت واحد تقريباً ، للقيظ والقر ،
فيرجه السعال وتبرّح به الحمى . ولو كنت في موضعك يا أخى

بافنوس، لكنت بدلاً من الاعتزال في الحال في صحراء مربعة .
آخذ بالتسليات الصالحة لئلا تقي وكاهن ورع . كنت أزور
الأديرة المجاورة ، وبعضها كما يقال عجيب . فدير السرايوم يحوي
على ما بلغني اثنتين وثلاثين وأربعمائة وألف صومعة . والرهبان فيه
منقسمون الى شعب عديدة بقدر حروف الهجاء اليونانية . ويؤكد
اللقاء أيضاً أنه قد لوحظت مشابهاة صادقة بين خصال الرهبان
وأشكال الحروف التي تدل عليهم . فالذين هم ، على سبيل المثال ،
موضوعون تحت حرف (ي) ذوو خصال معوجة ، على حين أن
المرتبين تحت حرف (ا) ذوو عقول مخصصة ، ونفوس مستقيمة .
ولو كنت مكانك يا أخي لذهبت وتحققت هذا الأمر بنفسي ، وكنت
لا يقر لي قرار حتى أبصر هذا الشيء العجيب . وكنت لا أغفل
دراسة سنن الطوائف المختلفة المنتشرة على ضفاف النيل ، لأتمكن
من المقايسة بينها . هذه واجبات تصلح لرجل ديني مثلك ، ولقد
سمعت دون ريب أن « افرام » رئيس الدير وضع قوانين روحانية
على جانب كبير من الجمال فتستطيع وأنت الكاتب النحرير ، أن
تتسخها باذن منه ، أما أنا فما كنت لأستطيع ذلك لأن يدي ، وقد
اعتادنا استخدام المعول ، تعوزهما المرونة اللازمة لنسيير قصبه الكاتب
الرشيق فوق صحائف البردي . لكنك يا أخي تعرف قواعد الخط
الجميل ، فلتحمد الله على ذلك الفصل العظيم ! ان عمل الناسك

والقارى، هو أعظم واقٍ من الخواطر الخبيثة ، فلماذا لا تدون يا أخى بافنوس تعاليم أبونا بولس وأنطوان ؟ بهذه الاعمال الدينية ، تسترد شيئاً فشيئاً سكينۃ النفس وهدوء الحواس ، وستطيب لك الوحدة مرة أخرى فلا تلبث أن تصير في حالة فكرية تتمكنك من العودة الى أعمال الزهد التي كنت تؤديها قبلما تمّ عليها رحلتك . ولقد اعتاد أبونا أنطوان ، لما كان بيننا ، ان يقول : « الافراط في الصوم يولد الضعف ، والضعف يسبب الجمود والتراخي . فبعض الرهبان يتلفون أجسادهم بصيام مطوّل بغير تبصر ، فهؤلاء يصح أن يقال فيهم انهم يغمدون حنجراً في صدورهم ، ويسلمون أنفسهم كالجذادات الى الشيطان » . كذلك قال القديس انطوان . نعم ، لست سوى جاهل ، لكني بنعمة الله قد وعيت قول أبينا ...

فشكر بافنوس للشيخ بالمون نصيحته ، ووعد بالتفكير فيها . ولما تخطى السياج الذي يحيط بالبستان الصغير ، التفت وراءه فرأى البستاني الصالح يروي خسته ، بينا كانت حمامة ، تترجّح فوق ظهره المحني . وعند ما استوعب بافنوس هذا المشهد ، كاد يجهش بالبكاء وراود الدمع جفونه ! ...



عاد الى صومعته ، فوجد هناك حشداً غريباً كأنه حبات رمل

سفاه ربح عاصف . ثم ميّزه ، فاذا هو عشرات الالوف من بنات
آوى ...

وفي تلك الليلة ، رأى في حلم عموداً حجرياً مرتفعاً يعلوه وجه
بشري ، وسمع صوتاً يقول :

— اصعد هذا العمود !

فلما استيقظ مقتنعاً بأن الحلم أتاه من السماء ، دعا تلاميذه
وخطبهم بهذه الكلمات :

— أولادي المحبوبين ، اني تارككم الى حيث يرسلني الله .
فأطيعوا في غيابي فلاقيان كما تطيعوني ، واعتنوا بأخينا بولس . بارك
الله فيكم . استودعكم الله ..

ظلوا راكعين وهو يمين في سيره ، ولما رفعوا رؤوسهم ، رأوا
سبحه الطويل القاتم على أفق الرمال ...



سار نهراً وليلاً حتى وصل الى خرائب ذلك المعبد الذي بناه
الوثنيون قديماً ، وبات فيه بين العقارب والجنّ أثناء رحلته العجيبه .
كانت الجدران المغطاة بالرموز السحرية لا تزال قائمة . ثلاثون
عموداً هائلاً عليها رؤوس بشرية ، أو أزهار لوتس لا تزال تسند
الحجارة الضخمة . لكن في أحد أطراف المعبد طرح أحد هذه

الأعمدة حمله القديم متخلصاً منه ، وكان له تاج على شكل رأس امرأة باسمه ، بعينين نجلوين وخدين مستديرين ، وعلى جبينها قرنا بقرة .

فلما رآه بافنوس عرف أنه العمود الذي ظهر له في حلمه . وقدّر ارتفاعه باثنين وثلاثين ذراعاً . فذهب الى البلدة المجاورة ، وأوصى بصنع سلم بهذا الارتفاع . ولما أسند السلم الى العمود ، صعد وركب على القمة وخاطب الرب سبحانه :

— هنا إذا يا إلهي المقام الذي اخترته لي . اينني أبقى هنا في حماك . حتى يحين حيني ، وتوافيني المنون .

لم يكن معه من الطعام شيء ، اذ كان متوكلاً على العناية الإلهية ، متوقفاً أن يمدّه الفلاحون الكرام بما يقوته . وحدث في عصر اليوم التالي ان بعض النساء والأولاد أتوه بتمرٍ وماء أصعدهما اليه الصبيان حتى قمة العمود .

ولم تكن قمة العمود من الاتساع بحيث تمكن الراهب من التمدد بطوله كله ، فنام متربعاً ورأسه ملق على صدره . وكانت متاعب النوم لديه أشد من عذابات اليقظة . وعند الفجر ، كانت البواشق تصفعه بأجنحتها فيستيقظ متألماً مرتاعاً .

واتفق أن النجار الذي صنع السلم كان رجلاً صالحاً ، فقلق من جرأه تعرّض القديس للشمس والمطر ، وأشفق عليه من خطر

السقوط وهو مستغرق في نومه . فأقام فوق العمود سقفاً ، وركب حوله سياجاً .

وما لبث صيت هذا المقام العجيب أن ذاع في البلاد . وأقبل عمال الوادي في أيام الآحاد مع نسايتهم وأولادهم ليشاهدوا « صاحب العمود » . ^(١) . ولما سمع تلاميذ بافنوس بمكان عزائه المرتفع ، احتشدوا بقربه ، واستأذنوه في بناء أكواخ لهم حول العمود . وكانوا في كل صباح يقفون في دائرة حول الرئيس يستمعون لتعاليمه ، وهو يقول لهم :

— أولادي ! ابقوا كالأطفال الذين أحبهم المسيح . ان إثم الجسد مصدر كل الخطايا ورأسها . انها تتوالد منه كأنه أب لها . فالكبر والشح والكسل والغضب والحسد ذريته المحبوبة . واليكم ما رأيته في الاسكندرية : رأيت الاغنياء مسوقين بقيقصة الترف ، وقد جرفتهم مثل نهر عكر ، الى دوامة ببحر أجاج ...

ولما بلغت الرئيسين افرام وسراييون حكاية هذه البدعة المستحدثة ، راما رؤيتها بأعينهما . فلما شاهد بافنوس على بعد شراع المركب القادم بهما ، فكر في كون الله تعالى قد جعله مثلاً للجميع

(١) توجد حكاية تاريخية من هذا النوع . قيل ان أحد المتسكين الاقدمين حاش فوق قمة عمود حيث قضى نحو ثلاثين عاماً . ولقب بسمعان العمودي . .
والله بي خلقه شؤون ! — (المترجم)

الزاهدين . ولما رآه كبيرا الدير لم يخفيا دهشتها ، فشاورا ، ثم بدأ يلومانه على قيامه بمثل هذه الكفارة الخارقة العادة ، وحثاه على النزول قائلين له :

— ان مثل هذا الضرب من الحياة مضاد للعرف ، وهو شاذ ومخالف للقوانين .

فأجابهما بافنوس :

— وهل حياة النفسك إلا حياة التدوؤ ؟ أليس من الواجب أن تكون أعمال الناسك فذة مثله ، انني بوحى إلهي صعدت الى هنا ، وبوحى منه تعالى أنزل ...

وكان الناسك يأتون كل يوم فرقاً ليمضوا الى تلاميذ بافنوس وبنوا لأنفسهم مأوى حول المنسك الجوى . وصعد كثيرون منهم ، تشبهاً بالقدیس ، فوق أطلال المعبد ، لکنهم ما لبثوا ان نزلوا إذ عنفهم إخوانهم ، ونهكهم التعب فأقلعوا عن تلك المحاولات ...



وجاء الحجاج من كل فج عمیق . وقدم بعضهم من بعد سحیق ، فكانوا جیاعاً عطاشاً ، فخطر لأرملة فقيرة أن تبیعهم ماءً بارداً وبطیخاً ، فاستندت الى العمود ، ووقفت وراء قللها الحمراء . وفاکتها ، تحت خيمة مخططة باللونين الأزرق والأبيض ، وأخذت

تصيح : « يا أيها الظّماء ! هوذا الماء ! » . فحذا حذوها خباز وأحضر
أجرًا وبني بجوارها مخبزًا ، مؤملاً أن يبيع الغرباء الخبز والكعك .
ولما كان جمهور الزائرين في ازدياد مستمر ، وأخذ سكان مدن
مصر الكبرى يفدون تبعاً ، شيد رجل آخر فندقاً لنزول السادة
وخدمهم وجاهلهم وبغالهم . . . وسرعان ما قامت أمام العمود سوق
أحضر اليها الصيادون أسماكهم ، والبستانيون بقولهم وثمارهم . وثمّ
مزين يقص للناس شعرهم في الهواء الطلق ، ويسلي الجمهور بأقواله
الرائقة ، ونكاته الشائنة .

ومالبت المعبدة العتيق الذي تملته السكينة والسلام دهرًا
طويلاً ، ان امتلأ بجميع لغات الدنيا ومشاهدها غير المعدودة .
وحول الفندقيون المغاور الى قاعات تحت الارض سمروا بدعائهم
المتهدمة اعلانات تعلوها صورة القديس بافنوس ، وعليها باليونانية
والمصرية هذه الكلمات .

هنا يباع نبيذ التبين والرماد وجمعة « الة » الاصلبة



وعلى الحيطان المزدانة نقوش متقنة جلية — علق الباعة
البصل والبسمك المشوي والأرانب المذبوحة والأغنام المسلوخة .
وفي المساء ، انسلت الجرذان — ضيوف الخرائب القديمة — هاربة
الى النهر . واتلعت الكراكي أعناقها وهي تنقل بحذر وتردد فوق
الطنوف العالية التي تصاعد اليها دخان المطابخ وعردة السكارى
وصياح السقاة . وخطط المساحون الشوارع ، وشيد البنائون الأديرة
والمعابد والكنائس . وما انقضت ستة أشهر ، حتى أنشئت بلدة
بمخفر ومحكمة وسجن ، ومدرسة يعلم فيها شيخ فقيه أعمى ...

وكان الحجاج لا عداد لهم . وبينهم كثيرون من المطارنة
وكبار رجال الدين ، أقبلوا وهم في غاية الإعجاب . وأتى بطريك
انطاكية الذي كان وقتئذ في مصر ، مصحوباً بجميع حاشيته .
فاستصوب كثيراً تصرف « صاصب العمود » الخارق العادة .
ووافقه على استصوابه رؤساء كنائس ليبية ، في غياب اثناسيوس .
ولما علم بذلك افرام وسراييون ، أتيا يعتذران عملاً فرط منهما ،
فأجابهما بانفوس :

— اعلموا يا أخوتي أن الكفارة التي أكايدها بالجهد تساوي
التجارب التي تعرضتُ لها ، وقد هالني ما رأيتُ من كثرة عددها
وشدة وطأتها . ان الإنسان يرى حسب الظاهر صغير الحجم . ومن
قمة العمود حيث وضعني الله ، أرى بني البشر يروحون ويفدون

كالنمل . لكننا اذا أنعمنا النظر في الانسان من الباطن ، نجده عظيماً جداً ، عظيماً كاللنيا لأنه يسهما . هذه المشاهد المنبسطة أمامي — هذه الأديار والمنازل والسفن والقرى ، وما أراه على بعد من حقول وترع ورمال وجبال — ليست شيئاً بالنسبة الى ما هو فيّ . ففي قلبي أحوي مدناً لا تُعد ، وصحارى لا تُعد . والشر ، والموت ، يمتدان فوق هذا المتسع غير المحدود ، يُدثرانه كما يدثر الليل الأرض . وفيّ أنا وحدي عالم أفكار شريرة ..

قال هذا القول ، لأن اشتها المرأة كان منسلطاً عليه ، ممتزجاً بلحمه ودمه ..

وفي الشهر السابع أتى اليه من الأسكندرية وتلّ بسطه وسائس ، نساء عاقرات ، يرجون أن يرزقن أولاداً بشفاعته وبركة العمود . فحككن خواصرهنّ بالحجر . ثم أقبلت مواكب لا يبلغ الطرف آخرها من المركبات والمحفات والنمالات ، وازدحت حول العمود القائم عليه رجل الله . وخرج منها مرضى في حالة مخيفة . وعرضت الأمهات على بافوس أولادهن المصابين بالكسح والعمى والسعال الديكي والحناق وغيرها من الأدواء ، فوضع يديه عليهم . واقترب منه العميان متلهسين . وأظهر له المفلوجون ما هم عليه من

الشلل التام والسقم الميت وانقباض عضلاتهم البشع . وأراء
المقعدون أرجلهم المعوجة . وأمسك النساء المصابات بالسرطان
نهودهن ، وكشفن عن صدورهن التي افترسها الرخم الحقي .
وجتمت أمامه النساء المصابات بالاستسقاء ، وكن منتفحات كزق
الحجر . فباركن كلهن . وتقدم النوبيون المصابون بالبرص الفيلي
بخطوات متافلة ونظروا اليه بعيون مخضلة بالدموع . فرسم علامة
الصليب فوقهم . وأحضروا اليه على نعتس من بلدة « افروديتو -
بوليس » بنتا صغيرة نفثت دما ونامت ثلاثة أيام كاملة فكانت كأنها
صورة من الشمع . وظن أبواها أنها قضت نحبها ، فوضعا سعة على
صدرها . فابتهل بافنوس الى الله فرفعت البنت رأسها وفتحت
عينها

فلما شاع بين الناس أمر المعجزات التي عملها القديس ، أقبل
الجم الغفير من المصابين بالداء الذي أطلق عليه الأغريق اسم
« المرض الإلهي » من جميع انحاء مصر . فما شاهدوا العمود حتى
تشبهوا وتمترغوا على الأرض واختلوا وتكثروا . ومما يكاد
لا يصدق أن الحاضرين أصيبوا بدورهم بهذين شديد ، والتوا
كالمصروعين . وتمترغ الكهنة والحجاج والرجال والنساء مختلفين
بعضهم ببعض . والتوت أطرافهم ، وفاض الزبد من أشداقهم وهم
يلتهمون التراب بالحففات ويتنبأون .

فشعر بافئوس ، من قمة عموده ، برعدة تمشي في أعضائه ،
وصاح متجهاً الى الله :

— أنا التيس المفضوب عليه ، حمّال الذنوب ، أحمل في عنقي
أدران هؤلاء الناس ، وهذا يارب هو سبب امتلاء جسدي بالأرواح
الشريرة .

وكان كلما مضى مريض وقد شُفي مما أصابه ، يحمله الحاضرون
هاتفين هتاف الانتصار .

ولقد علقت مئات العكاكزات حول العمود المعجّز . وعلقت
عليه النساء الشاكرات اكاليل الزهر والصور المنذورة . ودون فيه
بعض الأغريق قطعاً من الشعر البليغ . ونقش عليه كل حاج اسمه
حتى أصبح كله مغشّى بما لا يحصى من الحروف اللاتينية واليونانية
والقبطية والفرجينية والعبرانية والسورية والسحرية .



وجاء عيد الفصح . فتدفق على مدينة العجائب هذه سبيل
جارف من البشر حتى أن الطاعنين في السنّ حسبوا أنهم عادوا
الى أيام الاسرار القديمة . فكنت ترى فوق السهل الفسيح ، حل
المصريين المخططة وقد اختلطت بيرانس العرب ، وثياب النوبيين
القطنية ، ومعاطف اليونانيين القصيرة ، وأردية الرومان الطويلة ،

وسراويل البرابرة القرمزية ، وأثواب السراري الذهبية . وكانت النساء المحجبات يجتزن الطريق راكبات الخمر يتقدمهن خصيان سود يفسحون لهن بالعصي . وفرش البهلوانون على الارض سجادهم ، ولعبوا ألعاباً مذهشة أمام دائرة من المشاهدين الذين عابوها وكأنهم على رؤوسهم الطير . وعرض الحواة مشاهد غريبة من الثعابين والأفاعي ، ومدوا أذرعهم ونشروا مناطقهم الحية . .

وهكذا كان حشدٌ عظيم يضيء وينالق ، ويعفر ، ويطنطن ، ويهدر ، ويجمع . فمن شتائم الجمالة وهم يجلدون جماهم ، الى صياح التجار الذين كانوا يبيعون تعاويذ للوقاية من الجذام والاصابة بالعين ، الى ترانيم الرهبان وهم ينشدون آيات من الكتاب المقدس ، الى عواء المتسولين وهم يرددون أغاني الحریم القديمة ، الى ثغاء الغنم ، ونقيق الخمر ، ونداء البحارة للمسافرين المتباطئين - هذه الاصوات كلها امتزجت بعضها ببعض فألفت ضحيجاً يصم الآذان ، وزاد عليها زئاط أولاد الزنوج العراة الذين كانوا يجرون من مكان الى آخر بعرضون للبيع البلح الرطب .

وكانت جميع هذه المخلوقات المختلفة قد حُشرت تحت السماء الصافية الاديم ، في جو كثيف محمل بعطور النساء ، وطيب الزنوج ودخان الطهي ، وأنجرة الصموغ التي اشتراها من الرعاة تقيات النساء ، ليحرقنها بخوراً أمام القديس .

ولمّا جنّ الليل ، كانت النيران والشعل والمصابيح تضيء في كل مكان . فما كان ثمة شيء يُرى سوى أظلال حمراء ، وأشكال سوداء . وقام في وسط دائرة من المنصتين الجالسين القرفصاء ، شيخ هَرَمٍ يمثل « خيال الظل » . فقص حكاية احد القدماء الذي انتزع قلبه من صدره ودفنه في حوف شجرة سنط ، ثم حوّل نفسه الى شجرة ! . وعمل الرجل حركات كرّرها ظلّه بمبالغة مضحكة ، فهتف الحضور معجبين . واضطجع السكارى في الحانات على الأرائك وطلبوا الجعة والنبيذ . ومثلت أمامهم راقصات مكتحلات العيون ، عاريات البطون ، بعض المشاهد الدينية والمناظر المحركة للشهوات . وفي جانب آخر ، كان الشبان يلعبون النرد والرجال المسنّون يتبعون البغايا في الظلام .

وفوق هذه الصور المتحركة كان العمود وحده ثابتاً ، وعليه بافنوس مراقباً ، بين السماء والأرض . وارتفع القمر فجأة فوق النيل كذراع الهةٍ عارٍ ، فسالت اللال بأضواء زرقاء ، وخيل الى بافنوس أنه يرى لحم تاييس مشرقاً في تآلق المياه في كبد الليل .
الياقوتي . . .



مرت الأيام وظلّ التدبّس فوق عموده . فلما أتى فصل الأمطار

اخترقت مياه السماء شقوق السقف وغمرت جسده ، فمجزت أعضاؤه
المختدرة عن الحركة . وأحرقت الشمس جلده ، وحرمه الندى قشقق .
والتهمت القروح الكبيرة ذراعيه وساقيه . بيد أن شهوة نايس
ظلت تجيش في داخله وترعى في باطنه ، فصاح :

- أيها الرحمن ! هذا لا يكفي ! زدني من التجارب والوساوس !
زدني من الافكار الشريرة والشهوات الخبيثة ! تني يارب شهوات
الناس كلها كي اكفر عنها جميعاً ! لست أصدق ما سمعته من بعض
الدجالين عن كلبة « أسبارطه » أنها حملت خطايا العالم ، ولكن
لهذه الاسطورة معنى خفياً أدركه الآن . لأن آثام البشر تدخل
حقيقةً أرواح الأولياء لتغرق فيها كما في هاوية . وعلى هذا فنفس
الأبرار مدنسة بأدران أرجس جدًّا من التي في نفوس الاشرار ،
لهذا أحمدك يا إلهي وأشكر فضلك لجعلك إياي بالوعة أقذار الكون !



وحدث يوماً أن انتشرت في المدينة المقدسة إيتاعة ذات شأن ،
وبلغت الناسك ، وهي ان قائد أسطول الاسكندرية لوسيوس
أوريلوس كوتا - قادمٌ .. وعما قليل يصل ...

كانت الانباء صادقة . وكان كوتا الشيخ ، الذي خرج يتفقد
الترع والملاحة في نهر النيل ، قد أبدى غير مرة رغبة في مشاهدة

« صاحب العمود » والمدينة الجديدة التي أطلق عليها اسم
« ستيلوبوليس Stylopolis » .

وفي صباح أحد الأيام رأى سكان « مدينة العمود » النهر
مغطى بالأشعة ، وظهر كوتاً على ظهر سفين مطلية بالذهب مشدودة
بالأرجوان ، يتبعها أسطوله الصغير ، فخرج يصحبه كاتم سرّه حاملاً
للواح كتاباته ، واريستيه طيبه الذي كان يشجوه حديثه .

سار وراءه خدم وحشم كثيرون ، وغطى الشاطيء بالأردية
الرومانية وبذلات الجند الرسمية . فوقف على بضع خطوات من
العمود وبدأ يفحص صاحبه ماسحاً جيبهته خلال ذلك بطرف
وشاحه . ولما كان طلعة بطبعه فقد لاحظ أشياء كثيرة في رحلاته
الطويلة حنّ لذكرها ، وعقد العزم على أن يكتب بعد أن أتم
التاريخ القرطاجني ، كتاباً عن الأشياء العديدة التي رآها ، وبدأ
عليه أنه سرّ كثيراً بالمشهد الذي امامه . قال ، وقد عرق ولهث :

— إنه لشيء غريب ! وانها لحادة تستحق أن تسجل -
فالرجل كان ضيقاً عليّ يوماً من الايام . أجل ! . هذا الكاهن
تعشى معي في العام المنصرم ، وبعدها خطف إحدى المثلثات . : .
ثم التفت الى كاتم سره ، وقال :

— سطر هذا يا بني في ألواحى . كذلك ودون قياس العمود ،
ولا تغفل الإشارة الى شكل القمة .
ثم مسح جبينه ثانية . وقال :

— لقد اكّدت لي الثقات ان كاهننا صعد فوق هذا العمود
منذ سنة خلت ، ولم يغادره قط . فهل هذا في الامكان يا أريستيه ؟
فأجاب أريستيه :

— إنه في إمكان رجل معتوه أو مريض . لكنه مستحيل
على انسان متمتع بقواه العقلية والبدنية . أولاً تعلم يا لوسيوس أن
أمراض العقل والجسد تمنح أحياناً المصابين بها قوة لا يتمتع بها
الأصحاء ؟ الحق أقول أنه لا وجود حقيقي للصحة الجيدة ولا
للصحة الرديئة . نعم ، توجد حالات متباينة لأعضاء البدن . وقد
اتضح لي من دراسة الأمراض أنها أشكالٌ ضرورية للحياة . وقد
وجدت في دراستها لذة اكبر مما في محاربتها .

ومنها ما لا يمكن إغفال الإعجاب به ، وهو ما يخفي تحت
« اختلاله الظاهري » ، أعمق النظمات وأدقها ، كاللحي الرباعية مثلاً ^(١)
وفي بعض الأوقات تكون أمراض الجسد وسيلة لترقية خواص
« العقل » : واني لأضرب لك مثل « كريون » الذي كان في صغره

الكن غيباً فصار بعد أن هشم حجمته بسقوطه من سلم ، ذلك القانوني الضليع الذي تعرفه . ولا بدءاً أن يكون هذا الكاهن مصاباً في بعض أعضائه الباطنية . ومع ذلك فهو غير متفرد في نوع معيشته كما يلوح لك يا لوسبوس . تذكر متريضي الهند الذين يستطيعون البقاء بغير حراك ألبته لا عاماً واحداً وإنما عشرين وثلاثين ، بل اربعين عاماً ! . . .

فأجاب كوتاً :

— قسماً بجو پيتر أن هذا ضلال مبين . لأن الانسان خلق ليعمل ، والجود جريمة ، لأنه مضر بالدولة . وإني لا أدري لأية ملة أعزو هذه العادة المنحوسة . ويحتمل أن بعض المذاهب الأسبوية مسؤول عنها . لما كنت حاكماً على سورية ، شاهدت نصباً في أروقة مدينة الحيرة . وكان يعلوه رجل مرتين في كل عام ، ويبقى فوقه سبعة أيام . وكان الناس مقتنعين بأن هذا الرجل يتوسل للآلهة بمحدثه معها فتنزل على سورية المن والسوى . وقد استهجنّت هذه العادة ، لكنني لم أعمل على إبطالها . لأنني أرى أنه لا يجوز للحاكم أن يستأصل عادات أهل البلاد ، بل عليه أن يراعها . وليس للحكومة أن تلزم الناس عقيدة ، فإن واجبها المحافظة على ما هو موجود منها ، سواء أغثاً كان أم سميناً ، فقد سنته روح الزمان والمكان والجاهلير . فاذا سبعت الحكومة في محاربة دين

من الأديان ، ظهرت مظهر التأثير العاتي ، وكانت حريّة بالبغضاء .
هذا فضلاً عن أن السبيل الوحيد للترفع عن خزعبلات العامة هو
فهمها وإباحتها . وأرى يا أريستيه أن أترك ساكن مدينة السحب
هذا في الجو بسلام ، معرضاً لشتائم الطير وغزواتها وحدها . وفائدتي
ليست في البطش به ، وإنما في استطلاع أفكاره ، وما ملكت أيمانه
وعقائده .

ثم نفخ ، وسعل ، ووضع يده على كنف كاتم سرّه ، وقال :
— دوّن يا بني أن خطف العاهرات والجلوس على العمُد
يُعدّان عند بعض طوائف المسيحيين أمراً محموداً ! ويمكنك أن
تزيد أن هذه العادات دليل على عبادة آلهة الشهوات ! ولكن
علينا أن نسأل الرجل نفسه في هذا الموضوع .

ثم رفع رأسه ، وأظلم عينيه بيده من الشمس ، وصاح .
— يا هو ! يا بافنوس ! إذا كنت تتذكر أنك كنت ضيفي ،
فأجبني . ماذا تصنع في هذا المكان ؟ لماذا صعدت حيث أنت
ولماذا تقيم ! وأيه دلالة لهذا العمود في فكرك ؟
فلم يتنزّل بافنوس لاجابة كوتا ، لأنه كان يعدّه وثنيّاً . لكن
تلميذه فلافيان تقدم وقال :

— يا مولاي المميّ الشّان ! ان هذا القديس يحمل خطايا
العالم ويبرئ الأمراض .

فصاح كوتا :

— يمينًا بجوپيتر ! أسمعت يا أريستيه ؟ أن « ساكن مدينة

السحب Le néphélococcygien » يزاول الطب مثلك ! فماذا

تقول في هذا الزميل المعلى ؟

فهزّ أريستيه رأسه وقال :

— يجوز أنه يفوقني في شفاء بعض الامراض ، مثل الصرع

المسمى بين العامة بالمرض الإلهي ، وان تكن الامراض جميعها إلهية

على السواء ، لأنها كلها تأتي من الآلهة . وللوهم تأثير في هذا

المرض . وأنت ترى يا لوسيوس أن هذا الكاهن ، الجاثم هكذا

فوق رأس معبودة ، يؤثر في أذهان المرضى تأثيراً أقوى من

تأثيري أنا المحني في معمل عقاقيري فوق هواويني وقواريري .

توجد يا لوسيوس قوى أشد بأساً من العقل والمعرفة .

فسأله كوتا :

— وما هي ؟

فأجاب أريستيه :

— الجهل والحماقة .

فقال كوتا :

— ان ما أراه أمامي الآن لمن الاشياء التي يندر أتى رأيت

أشد منها شذوذاً . وآمل أن يروني يوماً كاتب قدير قصة تشيد

« مدينة العمود » . ولكن لا يجوز للرجل الرزين العامل أن يعاق حتى بأندر المشاهد عن تأدية واجباته ، هيا بنا نتفقد الترع . الوداع يا بافنوس الصالح ! او بالحري الى الملتقى ! اذا حدث يوماً أن نزلت الى الارض وعدت الى الاسكندرية ، فأرجو ألا تنسى الحضور لتناول العشاء معي .

سمع الحاضرون هذه الكلمات ، فتلقفها فم بعد فم ، وأذاعها المسيحيون ورددوها فأضافت الى مجد بافنوس مجداً جديداً . وقد زينت الخيالات الورعة هذه الكلمات وعظمتها . وأشيع أن القديس قد هدى ، من قمة عموده ، قائد الاسطول الى الايمان بالرسل وآباء « نيسيه » . وضمن المسيحيون كلمات أوريليوس كوتا الاخيرة معنى مجازياً . فعدوا العشاء الذي دعا كوتا الناسك اليه عشاء ربانياً ، وليمة روحية ، مائدة سماوية !! وألبست قصة هذا اللقاء زخارف تفاصيل عجيبة ، كان الذين ابتدعوها أول من صدقها !! فقالوا انه لما اعتنق كوتا الايمان بعد جدل طويل ، هبط ملك من السماء يمسح العرق عن جبينه ! وزعموا أن طيبه وكاتم سره اهتديا مثله .

ولما اشتهرت المعجزة ، دوتها شمامسة كنائس ليبه الكبرى ضمن الوقائع الموثوق بصحتها ! . .
ومن ذلك الحين يمكن القول بلا تردد ان الدنيا من أقصاها

الى أقصاها قد تملكتمها الرغبة في زيارة بافنوس . وان كل المسيحيين في الغرب ، كما في الشرق ، ولووا أبصارهم الخاشعة شطوه . وأوفدت أشهر مدن ايطاليا السفراء اليه . وكتب اليه قيصر روما قسطنس التقي ، الذي ظاهر الارثوذكسية المسيحية ، كتاباً قدمه القاصدون الرسوليون باحتفال مهيب . .



فني إحدى الليالي والمدينة راقدة في الظلّ عند قدميه ، سمع بافنوس قائلاً يقول :

.. لقد صرت يا بافنوس شهيراً بأعمالك ، قوياً بأقوالك . لقد رفعك الله لرفعته ، واختارك لعمل المعجزات ، لتبريء المرضى ، وتهدي الوثنيين ، وتنير الخاطئين ، وترزعج الجاحدين الأريوسيين ، وتعيد الى الكنيسة السلام . .

فأجاب بافنوس :

— فلتكن مشيئة الله !

فعاد الصوت يقول :

— قم يا بافنوس واذهب للقاء قسطنطوس الطاغية في قصره ، لأنه بدل أن يحتذي أخاه قسطنس في حكمته ، مال الى ضلالة أريوس ، وما ركس . . اذهب ! سوف تفتح أمامك الابواب النحاسية

وسوف ترن نعلك فوق الممشى الذهبي أمام عرش القياصرة ،
وسوف يغير صوتك الرهيب قلب ابن قسطنطين ، ويمتد سلطانك
على الكنيسة . وكما تقود الروح الجسد ، كذلك تسود الكنيسة
على الامبراطورية . سوف تعلو يا بافنوس على الوجهاء والامراء
والشرفاء . سوف تضع حدًا لجوع الناس وشراقتهم ، وعتو
البرابرة وفظاعتهم . وعند ما يرى الشيخ كوتا أنك على رأس
الحكومة ، يذل جهده ليحظى بشرف غسل قدميك . وعند موتك
يؤخذ ثوبك الوبري الى بطريك الاسكندرية اثناسيوس الكبير
الذي شاب في المجد ، فيلثمه ويعدّه ذُخْرًا من ولي حميد —
اذهب ، على الطائر الميمون !

فأجاب بافنوس :

— فلتكن إرادة الله !

ثم اجتهد في الوقوف ، واستعد للنزول ، لكن صاحب الصوت
ناجاه قائلاً :

— إياك والنزول على السلم ! فهذا ما يفعله الرجل العادي ولا

يلتق بمواهيك . قدّر سلطانك بأحسن من هذا يا بافنوس الملائكي !

ومن كان ولياً قديساً مثلك يجب عليه أن يطير محلقاً في الجو —

اقفز ! ان الملائكة بانتظارك لتتلاق فاقفز !

فأجاب بافنوس :

- لتكن مشيئة الله كما في السماء كذلك على الأرض !
ثم وازن ذراعيه الممتدتين ، فكأنا كجناحي طائر مريض
عاريين من الريش ، وأوشك أن يقذف بنفسه ، فرئت في أذنيه
قهقهة استهزاء مرعبة ، فسأل وقد أرهقه الجزع :

- من ذا الذي يضحك هكذا ؟

فعوى الصوت ، يقول :

- آه ! آه ! أنا لا نزال في بدء صداقتنا وسوف تتقوى يوماً
آصرة المحبة بيننا فتعرفني جيداً . هو أنا يا عزيزي الذي جعلك
تصعد الى هنا ، ويحق لي أن أبدي سروري بإذعانك الذي أتممت
به جميع رغباتي . فأنا مسرور منك يا بافنوس !

فتمتم بافنوس بصوت يهدج من الخوف :

- الى الورا ! الى الورا ! لقد عرفتك ، أنك أنت الذي رفعت

المسيح على ذروة الهيكل وأريته جميع ممالك الدنيا ^(١)

وسقط على الحجر فزعاً ، وفكر :

- لماذا لم أعرفه من قبل ؟ انني أشقى من أولئك العمي
والصم والمفلوجين الذين وثقوا بي . لقد فقدت كل دراية بالاشياء
غير العادية . وصرت شرّاً من المعتهين الذين يأكلون التراب

ويقربون جثث الموتى . وعدت لا أميز ضجة جهنم من صوت السماء .
لقد عدمت كل فطنة ، حتى فطنة الطفل الرضيع الذي يبكي عندما
يؤخذ عن ثدي أمه ، وفطنة الكلب الذي يقتني أثر صاحبه بواسطة
الشم ، والنبات الذي يتجه صوب الشمس ، فكنت ألعوبة
الشياطين . وكذلك كان ابليس هو الذي أتى بي الى هنا . لما رفعتني
فوق هذا العمود ، صعدت معي الأهواء والكبرياء . فليست تجاربي
هي التي تهواني ، فقد كابد مثلها انطوان فوق جبله ، وأودت أن
تمزق سيوفها بدني أمام أعين الملائكة . نعم ! لقد توصلت الى إعزاز
آلامي ، غير أن الله صامت لا يبدي ولا يعيد ، وصمته يحيرني
ويدهشي . انه يتخلى عني وليس لي سواه . إنه يدعني وحيداً في
مخاوف إعراضه . إنه يفرمني وأني أروم الجري خلفه . هذا الحجر
يلهب قدمي بشواظ من نار ، فلا أنطلق سريعاً ، فلا تركته ...
وأرق أسباب السموات لعلّي أدرك الله ! ..

وللحال أمسك بالسلم الذي كان قد بقي مستنداً الى جانب
العمود ، ووضع قدمه عليه وهبط درجة فألقى نفسه مواجهاً لرأس
الوحش الذي ابتسم ابتسامة غريبة . فتحقق ان المكان الذي
اتخذ لسلامه ورفعته لم يكن سوى أداة جهنمية لرزته المبرم . فسارع
في النزول الى الأرض وزلت قدماه والتفت ساقاه وتمايلتا ، ولكنه
وقد أحس بظل العمود فوقه أكره نفسه على الجري . وكان

الكرى قد أخذ بمقد كل جفن ، فاجتاز الساحة الكبيرة المحوطة بالحنات والنزل والفنادق ولم يره أحد . واندفع الى درب مؤدى الى تلال ليبيه . وتبعه كلبٌ ناجح لكنه وقف في مبتدى رمال الصحراء فلم يعدها . وأمن بافنوس السير في بلاد مسالكها مفاوز للوحوش الضارية . وخلف وراءه الأكواخ التي هجرها مزيفو النقود . وقضى في فراره الموحش ذلك الليل والنهار الذي تلاه .

أخيراً ، وقد بلغ به الجوع والظما والإعياء حدّ النزع ، وهو لا يزال يجهل مبلغ بعد الله منه ، عثر على مدينة خيم عليها السكوت ، وقد انبسطت عن يمينه ويساره ممتدة أمامه الى ما وراء الأفق . وكانت مساكنها منفصلة بعضها عن بعض ومتشابهة كأنها أهرام قطعت الى منتصف ارتفاعها ، تلك كانت أجداثا ، محطمة الابواب ، ومن خلال قاعاتها شخصت عيون الضباع والذئاب التي تطعم جرائها . وعلى مدخلها جثث الموتى وقد عرّاها اللصوص ونهشتها الحيوانات المفترسة . ولما اجتاز بافنوس هذه المدينة - مدينة الموتى - سقط منهوك القوى أمام قبر منفرد بقرب ينبوع يظله النخيل . وكان القبر كثير الزخرفة ولكنه بلا باب وفي داخله حجرة مملوءة بالأفاعي . فتهد قائلاً :

— ههنا منزلي المختار ، هيكل توبتي وندامتي ، وخباء حسرتي

وانابتي .

ثم دلف اليه ، وطرده الصلال بقدميه ، ولبث ملقى على الحجارة
ثماني عشرة ساعة ، ثم ذهب الى الينبوع وشرب منه براحة يده ،
وجمع قليلاً من التمر وبعض الحبوب من أغصان اللوتس فتقوتها .
واستصوب هذه المعيشة فجرى عليها . فما كان يرفع جبهته عن حجارة
القبر من الصبح حتى المساء .

ففي ذات يوم إذ كان مطروحا على هذا الوجه سمع صوتاً
يقول له :

- تأمل في هذه الصور لتتعلم !

فلما رفع رأسه رأى فوق جدران الحجرة تصاوير تمثل مشاهد
مضحكة ومألوفة . وكانت قديمة العهد وغاية في الاتقان . بعضها
يمثل طهاةً ينفخون في النيران بخدود منتفخة ، وبعضها يمثل أناساً
ينتفون ريش الأوز أو يطبخون في الآنية شرايح الضأن ، وبقربهم
صياد يحمل على كتفيه غزالة مزقتها السهام ، ومزارعين منهمكين
بألزرع والحصاد ، ونساء يرقصن على نغمات الرباب والناي والعود ،
وفتاة تضرب بالطنبور وزهرة اللوتس تتألق على شعرها الاسود
المعقوص بشكل بديع . وكان ثوبها الشفاف يمكن الناظر من رؤية
تقاطيع جسدها الرائقة . أما ثغرها وصدرها فقد نازعا الازهار بهاء

الصنع وجمال التكوين . فلما تأمل بافئوس فيها ، غضَّ من بصره ،
وأجاب « الصوت » بقوله :

— لماذا تأمرني بمشاهدة هذه الصورة ؟ انها ولا شك تمثل الحياة
الترايبية للكافر الدفين هنا تحت قدمي ، في قاع جب ، في تابوت
من صخر بركاني أسود . انها تعيد حياة رجل ميت وتذكر به .
وهي على الرغم من ألوانها البراقة ليست سوى أظلال ظل ، حياة
رجل ميت ! .. فيا للغرور ! ...



فردَّ عليه « الصوت » بهذه الكلمات :
— انه ميت ولكنه قد عاش ،
وأنت ستموت ولن تكون قد عشت .
من ذلك اليوم لم يذق بافئوس
طعم الراحة قط . واستمر الصوت يكلمه
بلا انقطاع . ونظرت اليه الضاربة بالطنبور محدقة من تحت أهداب
عينها الطويلة . ثم كلمته قائلة :

— انظر ! اني خفية وحسنا . فاحبيني . وأفرغ في حضني
الهوى الذى يضرنيك . ان خوفك لا يجديك نفعاً ، ولن تستطيع
الفرار مني . أنا جمال المرأة . فيا أيها المعتوه أين المفر ؟ سوف تجد
صورتي في بهاء الازهار ، في أناقة النخيل ، وطيران الحمام ، وقفز

الغزلان ، وتموَّج الغدران ، وضوء القمر . واذا انغمضت عينيك ، وجدتني في سويداء قلبك وقرارة نفسك . منذ ألف سنة ضمني الى صدره الرجل الراقِد هنا ، ملفوفاً بكفانه ، فوق مضجع من حجر أسود . منذ ألف سنة تَمَلَّى القبلة الأخيرة من في ولا يزال رقادُه معطراً بشذاها . انك تعرفني يا بافَنوس حق المعرفة . فكيف تتجاهلني ؟ اني أحد تجسّدات تاييس التي لا تعد ، وأنت راهب راسخ في العلم والمعرفة ، وقد سافرت ، والسفر خير معلم ، وكَم من يومٍ يَقْضَى في الغربة ويأتي بِطُرف وفوائد لا تُنَال في عشر سنوات تقضى في الوطن . لقد طرق سمعك أن تاييس عاشت قديماً في « أسبارطه » باسم « هيلانة » وكانت لها حياة أخرى في مدينة طيبة ، وأنا التي كانت تاييس طيبة . فكيف غاب عنك هذا الامر ؟ لما كنتُ على قيد الحياة ، اشتركت في أكثر خطايا العالم ، والآن وان كنتُ لست سوى خيال ، لا أزال قادرة على الاشتراك في ذنوبك وحملها عنك أيها الراهب الحبيب . فما مصدر دهشتك ؟ أيّان تذهب ، تَجِد تاييس حتماً امامك .

فدق بافَنوس جبهته بالحجارة ، وصرخ من شدة الفزع وكانت الضاربة على الطنبور تترك الحائط في كل ليلة ، وتقدم وتشكلم بصوت جلي ، ممزوج بأنفاسها الباردة . ولما قاوم القديس هذه التجارب كلها ، قالت له :

— ملك هواي فؤادك وأذعن لي ! مادمت تقاومني فساءذبك
وأنكّل بك . انك لا تعرف مبلغ صبر امرأة ميتة . سوف أنتظر
إذا لزم الأمر حتى تموت ، وبوسعي ، لكوني ساحرة ، أن أضع في
جثتك الهامدة روحاً تعيد إليها الحياة فلا تأتي إجابة ما رفضته الآن .
فكر يا بافنوس في غرابة موقفك عندما تنظر روحك السعيدة من
علياء السماء فتري جثمانها يستسلم للخطيئة ! والله الذي وعد أن يرد
إليك هذا البدن بعد يوم الحساب ونهاية الدهور سوف تعتريه هو
أيضاً دهشة شديدة ! كيف يقدر أن يُحِلَّ في مجد سماوي جسماً
بشرياً يسكنه شيطان وترعاه ساحرة ؟ انك لم تحسب حساب هذه
المشكلة ، وربما لم يحسب الله لها أيضاً حساباً ، إنه - والكلام بيني
وبينك - ليس على شيء من الخدق والدهاء . وإن أبسط ساحرة
لتخذه بسهولة . ولو لم يكن لديه رعدة وجنادل سمائه ، لأخذه
أطفال القرية بلحيته . الحق انه ليس من الفطنة بمنزلة خصمه الثعبان
المسنّ . فهذا الأخير فنّان عجيب . ولستُ على هذا الحسن والجمال
الآن لأنه أتقن زينتني ، وعلمني كيف أضفر شعري ، وأجعل أصابعي
كالورد ، وأظفاري كالعقيق . وأراك قد استخففت به لما أتيت لتعيش
في هذا القبر ، إذ أقصيت بقدميك الأفاعي التي كانت هنا وسحقت
بيضها ، ولم تبحث عنها لتعلم هل كانت من أسرته . فأخشى يا صاحبي
المسكين ان تكون قد سعت إلى حتفك بظلفك ، وعلى نفسها

جنت براقش ! ومع ذلك فقد أنذرت من قبل وجرى في علمك أنه
موسيقار عاشق . فماذا فعلت ؟ انك تحدّثت العلم والجمال . فما أشقى
حظك وأعثر جدك ، أمّا « يهوه » فلن يجيء ليشد أزرك ، فهو
ضخم بمخجم الكائنات كلها ، فلا يستطيع التحرك حاجته الى فضاء .
واذا أتى بأقل حركة ، وهذا مستحيل ، انقلب الكون كله . . .
يا ناسكي الجميل ، هات قبلة !

لم يكن بافنوس يجهل ما تأتي به فنون السحر من غريب الفعال ،
فحدث نفسه ، وقد ألح عليه الوهم والقلق :

— ربما كان الرجل المدفون هنا تحت قدمي عارفاً بسر
الكلمات المسطورة في ذلك الكتاب المملوء بالالغاز ، في ضريح ملكي
قريب من هنا . فبفضل هذه الكلمات يتخذ الموتى الاشكال التي
كانت لهم على ظهر الأرض ؛ فيرون نور الشمس وبسمة المرأة .
وكان أشد ما يخشاه أن تتعاقب فتاة الطنبور والرجل الميت ،
كما في الحياة ، فيراهما متلاصقين . . وخيل اليه أحياناً انه سمع صوت
قبلات خفيفة . . .

ملك الاضطراب زمام أمره . والآن ، وقد تخلى عنه الله ،
خاف الفكر كما خاف الشعور . وفي أحد الامساء ، بينما كان ساجداً
كعادته ، قال له صوت مجهول :

— بافنوس ! ان على سطح الأرض من الناس اكثر مما تظن .

• لو أظهرت لك ما رأيت لمت من الحبل . فمنهم رجال لهم عين واحدة في وسط جباههم . ورجال لهم ساق واحدة يجبلون بدل المشي . ورجال من شجر تنمو جذورها في الأرض . ورجال يغيرون أجناسهم ، وأناث يصرن ذكوراً . ورجال بغير رؤوس ولهم أيضاً عينان وأنف وفم في صدورهم — فهل تصدق ، بدمتك ، أن المسيح قد مات لأجل خلاص هؤلاء الناس ؟

ورأى مرة أخرى رؤيا . رأى في نور ساطع جسراً وجداول وحدائق . وكان على الجسر أريستوبول وشيراس يركضان جواديهما السوريين . وقد صنع حب السباق وجناهما بالاحمرار . وكان الشاعر كاليكرات ينشد أشعاره تحت إيوان ، والكبرياء الراضية تهتج في صوته وتشرق من عينيه . وكان زينوتيس في بستان يجمع تفاحاً ذهبياً ، ويلطف ثعباناً ذا جناحين لازورديين . وهيرمودور يفكر تحت شجرة لبخ مقدسة تحمل بدل الازهار رؤوساً شريرة صغيرة ، أشرفت وجوها وازينت كمعبودات المصريين ، ونسوراً وصقوراً ، وقرص قمر متالق ، بينما كان نسياس على حافة ينبوع يدرس ، فوق فلك حلقى ، حركات الكواكب المنتظمة . . . وعندئذ اقتربت من الراهب امرأة مقنعة تحمل في يدها غصناً من الرمان ، وقالت له :

- أنظر ! البعض يئس الجلال الخالد ويطلب تأييد حياته الفانية ،
والآخرون قليلو الاكتراث ، ولكنهم باستسلامهم هذا وحده
للطبيعة الجميلة تراهم سعداء ذوي جمال وفي رغد من العيش يجدون
مبدع جميع الكائنات ، فالإنسان هو أنشودة مطربة من أناشيد
الله . وتراهم جميعاً يعدون السعادة جائزة والهناوة مباحة ، فإذا كانوا
على حق صادقين ، فلشد ما تكون يا بافنوس غراً غافلاً
ثم زالت الرؤيا



وهكذا حاربت بافنوس التجارب والفوايات في جسده وعقله
حرباً لا هدنة فيها . لم يدعه إبليس طرفة عين مستريحاً . وكانت
وحدة ذلك القبر أعمر بالناس من مفارق الطرق في مدينة كبيرة .
وضج الشياطين من حوله بالقهقهات المرتفعة . وقامت هناك ملايين
من أشباح الموتى بأعمال الحياة العادية . ولما مضى في المساء الى
الينبوع ، رقصت حوله المسخوطات مختلطات بإلهات الحقول . وقدره
في دورانهن الفاسق . وعادت الشياطين لا تحشاه ، وأثقلت عليه
بالمداعبات وغمرته بالشتائم البذيئة واللعنات والالطامات . وسرق منه
يوماً شيطان ، لا يزيد طوله عن طول ذراعه ، الحبل الذي يتمنطق
به . فناجى نفسه بقوله :

- أيها الفكر ، الى أين اقتدتني ؟ ...

فصمم على أن يشتغل يديه ، كي يمكن عقله من الراحة التي كانت تعوزه . وكان بقرب الينبوع أشجار موز كبيرة الورق نامية في ظل النخيل . فقطع جذوعها وحملها الى القبر حيث سحقتها بحجر وحوّلها الى ألياف أو خيوط دقيقة مثلما شاهد صانعي الحبال يعملون . لأنه ارتأى صنع حبل بدل الذي سرقه الشيطان منه . فأحس الشياطين بعض الانزعاج وكفّوا عن ضحيجهم . وأقلعت فتاة الطنبور عن السحر ، واستكنّت على الجدار الملوّن . وشدّدَ بانفوس شجاعته وإيمانه وهو يدق سيقان الموز ، وحدث نفسه بما يأتي :

— سأتغلب بعون الله على الجسد ، أما الروح فقد احتفظت بالرجاء . وعبثاً تحاول الشياطين وهذه المرأة الجهنمية أن تدخل على نفسي الشكوك في طبيعة الله . سأجيبها بلسان يوحنا الرسول : « في البدء كان الكلمة ، وكان الكلمة الله » . إن إيماني بهذا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وإن كان هذا الذي أوّمن به لغوّاً باطلاً زدت إيماني به رسوخاً وثباتاً . بل أنه يجب أن يكون لغوّاً باطلاً ولو لم يكن كذلك لما كنتُ أوّمن به بل كنت أعرفه . فالآن لا تمنح المعرفة الحياة ولكنّ الأيمان وحده هو الذي ينقذ .

عرّض الألياف المنسولة للشمس والندى . وعُني في كل صباح بتقليبها لئلا تتعفن . وسرّاً باحساسه بأن سداجة الطفولة قد أنبعثت

في نفسه . ولما جدل الحبل قطع الخوص ليصنع منها حصراً وسلالاً .
فأشبهت حجرة الضريح مشغل صانع السلال . واستطاع بافنوس
أن ينتقل فيها بسهولة من العمل الى الصلاة . بيد أن الله تعالى كان
لا يزال معرضاً عنه ، لأنه استيقظ في إحدى الليالي على صوت
تُلجّت بسماعه أطرافه رعباً ، إذ عرف فيه صوت الرجل الميت
دعا الصوت مستعجلاً بهمس خفيف :

— هيلين ! يا هيلين ! تعالي استحمي معي ، تعالي سريعاً !

فأجابته امرأة لامس فيها اذن الراهب :

— لا أستطيع النهوض يا حبيبي ، أن رجلاً راقداً فوق

صدري .

فأحسّ بافنوس فجأة بجذده وقد استقرّ على ثدي امرأة ، عرف
انها الضاربة بالطنبور ، ولكنها تخلصت قليلاً ورفعت صدرها ،
فتعلق بافنوس تعلق اليأس بالجسد الناعم ، الدافئ ، العطر ، وصاح
وقد اضنته منية القضاء المبرم والرغبة في الموت الزوام

— إليّ ، إليّ ، يا سمائي !

ليكنها كانت إذ ذاك واقفة بالباب ، فضحكت ، وفضضت

أشعة القمر ابتسامتها ، وقالت :

— وماذا يفيدك بقائي ؟ ان ظل الظل يكفي عاشقاً مثلك

وُهب له مثل هذا الحدس النير ، فضلاً عن إنك قد أثمت ، فقيم
ترغب بعد ذلك ؟ وداعاً ! ان عشقي ينادينني . . .

قضى نافوس الليل في بكاء ونحيب ، ولما لاح الفجر ، فاه
بضراعة أرق من شكاية ، قال :

- يا يسوع ! يا سيدي يسوع ! لماذا تتخلى عني ؟ إنك ترى
الخطر المحدق بي . فتعال شد أزري أيها المخلص الحليم . هوذا أبوك
أصبح لا يحبني ولا يسمعي ، فاذا كر انه لم يعد لي سواك . إنه
لا يرجي منه شيء لي . إنني لا أستطيع إدراك كنهه ، وهو لا يرق
لحالي . امكنك ولدت من امرأة ، وهذا ما يجعلني أطمئن اليك ، وارجو
الخير على يديك . تذكر إنك كنت بشراً . انني اضرع إليك لا
لأنك نور من نور ، وإله حق من إله حق ، بل لأنك عشت معدماً
وضعيماً على هذه الأرض حيث اشقى واعاني . ولأن الشيطان جرب
جسدك ، ولأن عرق النزع تلج جبينك . لانسانيتك يا معلم الانسانية
أصلي وأنوسل ، يا سيدي يسوع ، يا أخي يسوع !

ولما فرغ من ابتهاله ، وقلب كفيه ، اهتزت جدران القبر
بقهقهات مهيبة متتابعة . وقال له الصوت الذي سمعه فوق قمة العمود ،
باستهزاء :

القبر ، فدخلنا ، فالفيناك طريقاً فوق الحجارة مغى عليك . ولا ريب
ان الشياطين صرعوك ، ولما شعروا بدنونا ولّوا هاربين . . .
فرفع بافنوس رأسه ، وسأل بصوت خافت :

— من أنتم يا إخواني ؟ ولماذا تحملون سعف النخل ؟ أوليس
هذا لأحل دفني ؟
فأجاب أحدهم :

— ألا تعلم يا أخي أن أبانا أنطوان ، وقد بلغ من العمر خمساً
بعد المائة ، قد أتاه نذير بأن نهايته دنت ، فنزل من جبل كلزان ،
حيث كان معتزلاً ، ليبارك أنباءه الروحانيين الكثيرين . . . فهانحن
أولاء ذاهبون حاملين السعف لنلقى أبانا الروحي . فكيف بقيت
جاعلاً مثل هذا الحادث الجلل ؟ أفلم يأتِ الى هذا القبر ملك
لينبئك ؟

فأجاب بافنوس .

— واأسفاه ! لست جديراً بمثل هذا الفضل العظيم . وليس
سكان هذا الربع سوى عفاريت ووطاويط . صلوا من أجلي ، أنا
بافنوس ، كبير رهبان أنصينا ، أشقى عباد الله . . .

فلما سمعوا اسم « بافنوس » هزّوا سعفهم ، وردّدوا التساييح ،
وصاح الذي تكلم من قبل ، متعجباً :

— أفيمكن أن تكون أنت بافنوس ذلك القديس الدائم الصيت

— إن هذا الدماء جدير بصلوات ماركوس الضال . ان بافنوس
اريوسي^(١) ! بافنوس اريوسي !
فكأنما انقضت صاعقة على الراهب ، فخرٌ مفضياً عليه



لما أفاق بافنوس وفتح عينيه ، رأى حوله رهباناً في حلل سوداء ،
وكانوا يصبون الماء على صدغيه ويتلون التعاويذ ، وقد وقف
كثيرون منهم خارج القبر حاملين سعف النخل .

قال له أحدهم :

— سمعنا ، ونحن نجتاز الصحراء ، صيحات مرتفعة من هذا

(١) الار يوسي هو من ينكر لاهوت السيد المسيح عليه السلام . —

بأعماله ، حتى أن الناس يعدونه بالغاً يوماً في الفضل مبلغ انطوان العظيم ؟ يا أقدس قديس انك أنت الذي هدى العاهر تاييس الصراط المستقيم ، وأنت الذي إذ صعد على عمود عال حملته الملائكة ، فرأى الذين يخفرون العمود ليلاً انتقالك الميمون الى السماء . وقد أحاطت بك أجنحة الملائكة في سحابة بيضاء ، وامتدت يدك اليمنى وباركت مساكن البشر . وفي صباح اليوم التالي إذ لم يرك الناس ، ارتفع أنين طويل الى العمود غير المتوج . على أن تلميذك فلافيان أذاع المعجزة وقام مقامك في تولى شؤون الرهبان . لكن رجلاً واحداً ساذجاً يدعى بولس ، حاول أن ينقض ما أجمعت عليه الآراء ، فقد أكد أنه رآك في حلم محمولاً بالشياطين . . فأراد الناس أن يرموه ، وقد نجا من الموت بأعجوبة . وأنا « زوزيمس » رئيس هؤلاء المتنسكين الساجدين عند قدميك ، أركع امامك مثلهم ، كي تبارك الأب مع الابناء ، ثم نخبرنا بالمعجائب التي أنعم الله عليك بأن أجراها على يديك

فأجاب بافنوس :

— لست أستحق شيئاً مما وصفتني به . فان الرب قد بلاني بأهول التجارب . ولم تحملني الملائكة ، بل إن حائطاً من الظل قام أمام ناظري وتقدمني . . لقد عشت في حلم ، وكل شيء من دون الله حلم . لما شخصت الى الاسكندرية سمعت في بضع ساعات

خطباً كثيرة ، وعرفت أن جيش الضلال لا عدده ، وقد طاردني ،
وأحاطت بي سيوفه ..

فأجاب زوزيمس :

— علينا أن نذكر يا أبي الموقر ، أن الأولياء ، لا سيما
المتنسكون منهم ، يُعرضون لتجارب مخيفة ، وإذا لم تكن أذرع
الملائكة قد حملتك الى السماء ، فمن المحقق أن الرب قد أنعم بهذا
الفضل على صورتك ، إذ كان فلاقيان والرهبان والناس شهوداً
على صعودك الى السماء .

فغزم بافنوس على الذعاب لتلقي بركة انطوان ، وقال :

— اعطني يا أخي زوزيمس سعة ، ولنتوجه للقاء أينا .

فأجاب زوزيمس :

— هيا بنا ! ان الأوامر العسكرية تلائم الرهبان ، الذين

جنود قبل كل شيء . ولأننا كلنا رئيسان فسنسير في المقدمة
وأولاء يتبعوننا وهم يرتلون المزامير .

بدأوا المسير ، وقال بافنوس :

— الله أحد ، لأنه الحق الذي هو واحد ، والدنيا شتى ،

لأنها غيٌّ وضلال ، على المرء أن يُعرض عن مشاهد الطبيعة كلها
حتى التي تظهر أنها غاية في الطهارة والبراءة . فتنوّعها الذي يزينها
لنا إنما هو دليل على شرّها المستطير . أنا لا أقدر على رؤية حزمة

من البردي فوق المياه الراكدة بغير أن تشعب نفسي الهموم
وتساورني الكتابة . كل شيء نحسُّ به الشاعر وتدركه قبيح كرهه .
أصفر حبة من الرمل ذات خطر شديد . كل شيء يفتننا ويصيبنا
بالإحزن والنكبات . وما المرأة إلا مزيج من كل هذه الغوايات
السابحة في النسمات الرائقة ، وعلى الأرض المزهرة ، وفي المياه
الصفافية . فطوبى لمن تكون روحه وعاء مختوماً ! طوبى لمن يعرف
كيف يكون أصمَّ وأبكم وأعمى ، ولا يدرك كنه شيء في الدنيا ،
ليدرك كنه الله !

ففكر زوزيس في هذا الكلام ، واجابه بقوله :
— ينبغي لي يا أباي المحترم أن أقرُّ لك بأثامي مادمت قد
كشفت لي عن ذات نفسك . وهكذا يعترف كل منا للآخر
طبقاً للعادة الرسولية . لقد حييت قبلما أترهب حياة الرذيلة .
صرت في أرجاء « مادورا » وهي مدينة مشهورة بغوانيها . وبحشت
عن صنوف التمتع وضروب التلذذ . وكنت في كل ليلة أتعشى مع
بنات الهوى والفتيات العازفات بالناي . وأخذ الى بيتي من تسهويني
منهن . وليس في وسع قديس مثلك أن يتصور مطلقاً الى أي درك
هوت بي شهواتي . يكفيني أن أقول لك انني لم أغادر كهلة صالحة
أوراهبة ، فأثيت المنكر ، وارتكبت كل محظور ومحروم . وقد
هيجت حرارة مشاعري بالحمر ، حتى شهد لي أهل مادورا بأنني

أشد السكيرين إغراقاً في رشف بنت الحسان ، وأقدرهم على استفرغ الدنان . ومع ذلك كنت مسيحياً ، واحتفظت مع كل حماقاتي وضلالاتي بإيماني بالمسيح المصلوب . وأخيراً ، استغرقت عيشة الخلاعة والاسراف كل مالي . وبدأت أشعر بفصص الفاقة ، وإذا بي أرى أحد رفقاء مسراتي قد أصيب فجأة بداء عضال فطيع . فلم تعد ركبته تقويان على حمله ، وعصته يدها المرتعشتان ، وأغمضت عيناه الخائبتان ، فما كنت تصدر من حلقه الا تأوهات مروعة . وكلّ ذهنه ، فجمع ، إذ مسخه الله حيواناً تنكياً به لأنه عاش كالحيوان . ولقد كان لي في ضياع مالي تبصرة نافعة ، لكن مثل صديقي كان أبلغ وأنفع . وأثر في نفسي بحيث جعلني اترك الدنيا على الفور وأنزوي في الصحراء . وفيها تمتعت عشرين حولاً بسلام لم يكدر صفوه شيء قط . فكنت أعمل مع رهباني حائكاً ، وبناءً ، ونجاراً ، وكاتباً مع أنه والحق يقال لم يكن لي نحو الكتابة الا ميل ضئيل ، إذ آثرت دائماً العمل على القول ، وفضّلت الفعل على الفكر . وها هي أيامي ملوؤها الفرح ، وليالي بغير أحلام ، واني لأعدّ نعم الله تعالى عليّ فلا أحصيها ، لأنني احتفظت بالأمل حتى في إبان اشد المعاصي هولاً . . .

فلما سمع بانفوس هذا القول ، رفع بصره الى السماء ، وتتم :
— أترحم يا رب هذا الرجل المذنب بهذه الخطايا كلها ، أترحم

هذا الزاني ، أتكلأ بعين رعايتك هذا المنتهك للحرمات ، ثم تعرض
عني أنا الذي كنت آتمر بأمرك ، وأنتهي بنهيك ! ؟ ما أشد غموض
عدالتك يا إلهي ! وما أبعد طرقك عن الإدراك !
فمدّ زوزيمس ذراعيه قائلاً :

- أنظر يا أبي الموقر ، ترى على جانبي الأفق صفوفًا طويلة
سوداء كأنها نمل راحل . أولئك اخوتنا ذاهبون مثلنا للقاء انطوان
ولما وصلوا الى الملتقى ، رأوا مشهداً بديعاً . كان جيش النساء
يمتد ثلاثة صفوف في نصف دائرة كبيرة . فالصف الأول يتألف من
سكان الصحراء الأقدمين ، بأيديهم الصلبان وقد تدلّت لحاهم الى
الأرض . والصف الثاني من الرهبان الذين تحت امره « افرام »
و « سرايون » ومعهم نساء النيل . ووقف وراءهم الزاهدون الذين
توافدوا من معاقلم النائية . وارتدى بعضهم أطماراً لا تسد
أجسادهم السوداء الذابلة . وكان كثيرون منهم عراةً غير ان الله
قد كساهم شعرًا كثيفًا كجزء الغنم . وكانوا جميعاً يحملون السعوف
الخضر في أيديهم . فأشبهوا قوس قزح من زمرد . ويصح تشبيههم
بفرقة المرتلين المجتبيين ، أو بجدران حية من مدينة الله ..

وكان المحفل منظماً تنظيماً تاماً ، حتى ان بافئوس لم يجد أقل
صعوبة في العثور على مرؤسيه من الرهبان . فاتخذ مكاناً بقربه .
بعد ما احتاط في اخفاء وجهه بحجابه ليبقى مجهولاً عندهم ولا يكدر

عليهم ترقبهم الديني . وبفتةً ، تعالى هتاف الجميع حتى بلغ عنان السماء .
- القديس ! القديس ! هوذا الولي العظيم ! هوذا حبيب الله
الذي لم تغلب عليه جهنم ! أبونا أنطوان !

ثم ساد السكوت ، والتصقت كل الجباه بالرمال . فتقدم
انطوان من قمة الكمة في الصحراء ، يسنده تلميذاه المحبوبان
ماكاريوس وأماتاس ، وساراهوينا منتصب القامة ، يشعر الناظر
إليه بأن فيه بقية من قوة فائقة . وقد سترت لحيته البيضاء صدره
العريض . وانعكس عن جمجمته المصقولة اللامعة شعاع النور كما عن
جبين موسى . وكان لعينيه نظر السر ، وعلى فيه بسمة الطفل .
فبارك قومه بأن رفع ذراعيه اللتين أوهنهما عمل شاق مدة قرن
كامل . وجر صوتيه ، لآخر مرة ، بكلمات المحبة الآتية :

- ما أجمل خيامك يا يعقوب ! وأخيبتك يا إسرائيل !
فارتفعت في الحال من أقصى الحائط الحي إلى أقصاه ، مثل
قصف الرعد المتوازن ، أنشودة : طوبى للذي يخاف الرب

ثم تقفد انطوان مع ماكاريوس وأماتاس صفوف الشيوخ
والرهبان والنساك . هذا الرجل الذي رأى السماء وجهنم ، هذا الزاهد
الذي حكم الكنيسة المسيحية من قلب معقله ، هذا القديس الذي
ثبت يقين الشهداء في أيام المحن والاضطهاد ، هذا اللاهوتي الذي

صعقت فصاحته أهل الضلال — أخذ يخاطب أبناءه واحداً بعد واحد ، برقة وحنان ، ويودعهم وداعاً جميلاً في عشية ميتته السعيدة التي وعده بها الله الذي أحبه

قال للرئيسين افرام وسرايون :

— انكما تقودان الجيوش الجرارة ، وكلاكما ماهر ومتدرب في فنون الحرب ، لذلك سوف تتقلدان في السماء سلاحاً ذهبياً ، ويمنحكما ميخائيل رئيس الملائكة لقب قائدي قواته .

ولما رأى الشيخ بالمون عاقه وقال

— هذا أعزّ أولادي وأفضاهم جميعاً . لروحه تذا عطري كأريج زهر الفول الذي يزرعه في كل عام .

ووجه الى الرئيس زوزيمس هذه الكلمات :

— انك لم تقنط من رحمة الله ، لذلك فسلام الله فيك وعليك ، وقد أزهرت زنبقة فضائك على سباخ فسفك .

وكان كلامه مع كلٍ منهم مملوءاً حكمة وارشاداً .

قال للشيخ :

— رأى الرسول حول عرش الله أربعة وعشرين شيخاً في ثياب بيضاء ، وعلى رؤوسهم التيجان .

وقال للشبان :

— افرحوا وابتهجوا ، ودعوا الحزن للسعداء في هذه الحياة الدنيا .

وهكذا طاف مقدمة جيشه النبوي ، يحض النصح ، ويذر العظاات . فلما رآه بافئوس يقترب منه ، خرَّ ساجداً ، يتنازعه الخوف والأمل ، وصاح غاصاً بآلامه المبرحة :

— أبته ! أبته ! أبته ! أعني فاني من الهالكين . لقد وهبت روح تاييس لله ، وعشت فوق قمة عمود ، وفي قاع قبر . فتصلبت جبهتي من طول التصاقها بالرغام حتى صارت مثل ركبة الجمل ، ومع ذلك لا يزال الله معرضاً عني . باركني يا أبت فأنجو . هزّ الثغام فأظهر وأعود تقيّاً أنلألاً كالثلج .

فلم يجبه انطوان . بل رشق رهبان انصينا بتلك النظرة التي ما كان بوسع أحد الثبات امامها . . ثم استقر ناظراه على بولس ، الملقب بالساذج ، فحدق اليه طويلاً ، ثم أشار اليه بالدنومه . ولما أبدى الجميع دهشتهم لمخاطبة القديس رجلاً مختل الشعور ، قال انطوان :

— ان الله قد أنعم على هذا الرجل بما لم ينعم به على أحد منكم . ارفع بصرك يا ولدي بولس ، واخبرنا بما تراه في السماء .
فرفع بولس الساذج عينيه ، وأشرق وجهه ، وانطلق لسانه ، فقال :

— أرى في السماء سريراً مزداناً بسجوف من أرجوان وذهب ،

تحيط به ثلاث عذارى ساهرات على حفظه ، كي لا تقرب منه روح غير الروح المجتابة التي أُعِدَّ لها السرير . .

فبادر بافئوس يردد الشكر لله حاسباً أن هذا السرير رمز الى تمجيده : لكن انطوان أشار اليه بالصمت والاصغاء للساذج الذي تتم في ذهول الجذب . قائلًا :

— العذارى الثلاث يخاطبني قائلات . : « ان قديسة على أهبة مفارقة الأرض ، تاييس الاسكندرية على وشك الموت ، وقد أعددنا لها مضجع مجدها ، لأننا نحن فضائلها :

« الايمان . والخوف . والحب »

فسأل انطوان :

— وماذا ترى أيضاً يا بني الحبيب ؟

فنظر بولس ببله ، من سمت الرأس الى سمت القدم ، ومن المغرب الى المشرق ، ثم وقع ناظره فجأة على كاهن انصينا ، فشحب وجهه من جزع قدسي ، وعكست حدقتاه لهباً خفياً ، وقال :

— أرى ثلاثة زبانية قد امتلأوا فرحاً ، واستعدوا لقبض هذا الرجل ، وهم يشبهون برجاً وامرأة وساحراً . والثلاثة يحملون أسماءهم موسومة بميسم من حديد حامٍ ، الأول على جبينه ، والثاني على بطنه ، والثالث على صدره ، وأسمائهم هي :

« الكبرياء . واللذة . والشك »

لقد رأيت هذا كله .

ثم عاد بولس إلى حالته الأولى من البساطة ، بعينه الغائرتين ،
وحنكه المعلق

ولما نظر رهبان انصينا إلى أنطوان بقلق ، فاه القديس بهذه
الكلمات :

— قد أعلن الله حكمه العادل ، فلنعبده ونحن سكوت .

ثم سار وهو يبارك الجموع . وكانت الشمس قد بلغت الأفق ،
وزمّته بالجد ، وامتد ظله خلفه — بمنّة من السماء — امتداداً عظيماً
كبساط لا آخر له ، رمزاً إلى التذكّار الطويل الأمد الذي سيخلفه
هذا الولي العظيم بين البشر . .



أما بافنوس فقد وقف مصعوقاً ، ولم يرَ ولم يسمع شيئاً غير
الكلمات التي ملأت وحدها أذنيه ، وكانت . « تاييس على وشك
الموت ! » . لم يخطر بباله قط مثل هذا الفكر . قضى عشرين
سنة يتأمل في رأس مومياء ، ومع ذلك أدهشه تصوّر أن الموت
يغمض عيني تاييس !

« تاييس على وشك الموت ! » قول غير معقول ! « تاييس على وشك الموت ! » يا لشدة الهول المروع في هذه الكلمات الاربعة ! . « تاييس على وشك الموت ! » إذا فما الحاجة للشمس والأزهار والغدران والبرايا جميعاً ؟ « تاييس على وشك الموت ! » فما فائدة الكون ؟

ثم وثب فجأة صارخاً : « اذهب لتراها ، لتراها مرة أخرى ! » وأخذ يعدو . ولم يدر أين هو ، ولا إلى أين يذهب . لكن الوجدان قاده وسدّد خطاه . فسار رأساً الى النيل . وكان سطحه مغشياً بشُرْع المراكب قففز الى ظهر سفينة لبعض النوبيين . وهناك انبطح في مقدمتها ، تلتهم عيناه الفضاء ، وصرخ بحزن وغضب :

— تبا لي من مجنون معتوه ، لأنني لم أحظ بتاييس لما سمح الزمان ! ياما أشدّ حماقتي لأنني اعتقدت أن في الدنيا شيئاً سواها ! يا ويح الجنون ! لقد فكرت في الله ، وفي خلاص نفسي ، وفي الحياة الأبدية ، كأنما كل هذه تعدّ شيئاً مذكوراً جنب رؤية تاييس . كيف لم أدرك أن السعادة الأبدية إنما هي في قبلة واحدة من قبلاتها ، وأن الحياة بدونها لا معنى لها وليست سوى حلم مزعج ؟ يا لك من غبي أخرج ، تراها ثم لا تفتأ ترغب في طيبات عالم ثان ؟ يا لك من نذل جبان ، تراها وتخشى الله ؟ الله ! السماء ! ما هما وما نصيبي منهما ؟ وهل يساوي ما يمنحانه لي أقل جزء مما كانت ستمنحه

لي تاييس ، أفـ لك من معنوه سخيـف بحث عن رافة الله وطلبها
في كل مكان الا على شفـتي تاييس ! أية يد غطت عينيك ؟ ألا فليكن
ملعوناً ذاك الذي أعماك حينذاك ! كنت تستطيع أن تشتري بثمن
قصاص الآخرة لحظة من حبها والتمتع بها فلم تفعل ! لقد فتحت لك
ذراعيها ، المفطورين من لحم ممتزج بعطر الزهر ، ولم تملّ لذة الفرق
في حضنها ، والاستناد الى صدرها العاري الذي لا يوصف !

لقد أصخت الى الصوت الحسود الذي قال لك : « أعرض
عن هذا » . . . فيا لك من مغفل ، مغفل شقي ! آه يا للحسرات !
يا للندامات ، أوآه يا لليأس ، يا لخيبة الأمل ! الحرمانـي أن أحمل
الى الجحيم ذكرى تلك الساعة التي لا تنسى ولا تمحى ، صارخاً الى
الله : « أـحرق لحمي ، جفف الدماء التي في عروقي ، اسحق عظامي ،
غير أنك لن تستطيع أن تنتزع مني التذكار الذي يعطرني وينعشني
للأبد ، والى الأبد ! . . . تاييس على وشك الموت ! ليتك يا الله
تعلم كم أسخر من جهنمك ! تاييس على وشك الموت فلن تكون لي
أبدآ ، أبدآ ، أبدآ ! »

وبينا السفينة تتبع التيار السريع ، لبث طوال أيامه منكباً
على وجهه ، يكرر :

— أبدآ ! أبدآ ! أبدآ !

ولما ذكر انها وهبت نفسها للجميع إلآله ، وانها سكبت على



(تاييس القديسة)

العالم مياه الغرام وهو وحده لم يبلل منها شفثيه ، وقف في حالة عتو
ونفور ، وولول حزناً ، ونشج توجعاً ، ومزق صدره بأظفاره ، وعضّ
زنديه وحدث نفسه :

— لينني أجد سبيلاً الى قتل من أحببتهم أجمعين
فلأته فكرةُ هذا التقبيل بحمياً لذيدة وحنق عذب ، ففكر في
ذبح نسياس ، على مهل رويداً رويداً ، بينا هو يحدق في قرارة
ناظرية . ثم مالبت حميته أن خدت فجأةً فبكي وتأوه ، ووهن
العظم منه فارتدّ ضعيفاً وديعاً ، وسكّن اضطراب نفسه حنوً مجهول .
تملكته رغبة الارتقاء على عنق رفيق صباه ، يقول له :
« نسياس اني أحبك لأنك أحيتها . حدثني عنها ! اخبرني
بما قالته لك . »

وكانت مرارة تلك الجملة : « تاييس على وشك الموت ! »
لا تزال عالقةً بألياف قلبه :

— يا أنوار النهار العسجدية ! يا أظلال الليل الفضية ! أيتها
النجوم ! أيتها السموات ! أيتها الأشجار المرتعشة قممها ! أيتها
الوحوش الضارية ! أيتها الحيوانات الأليفة ! يا نفوس الرجال المتلهفة !
ألا تسمعون : « تاييس على وشك الموت ! » . أيتها الأنوار
الساطعة والأنفاس الصاعدة ، والعمور الطيبة — اتحي وافني !
يا بهاء الكون ورواءه ، وأشكاله وأفكاره — اختفي واختبئي !

« تاييس على وشك الموت !... » تاييس كانت جمال العالم
 ينعكس حسننها على كل ما يقربها فيصبح زينة للناظرين .. ما كان
 ألطف ذلك الشيخ الهرم ، وأولئك الحكماء الذين جلسوا بقربها في
 مأدبة الاسكندرية ! ما كان أمتع حديثهم وأرقه ! إن تسرباً من
 الضحكات الرائقة حام حول شفاههم ، وضمخ السرور خواطرهم .
 ولأن أنفاس تاييس هبت عليهم ، فكلُّ ما قالوه فاح حباً ، وجمالاً ،
 وحقاً . ولقد خلع الاحاد الجميل على أقوالهم ثوب ملاحظته .
 فأفصحوا ببلغة عن الجلال البشري .. وأسفاه ! ليس كل ذلك
 الآن الاحلاماً . تاييس على وشك الموت ! أواه ! ما أشد بداهة
 آتي مانت لموتها ! ولكن .. أني لك الموت أيها النطفة القذرة
 الجافة ، أني لك الموت أيها الجنين المنقوع في مرارة الضر وحزازة
 الدمع ؟ أيها السقط الشقي هل يعاق بوهك أنك ستذوق طعم
 الموت ، أنت الذي لم يعرف الحياة ؟ . لكن لعل الله يكون موجوداً
 فيقضي علي بعذاب الآخرة ! هذا رجائي ومشتهاي . أيها الإله الذي
 أمقته ، استجب لي ! اقذف بي الى جهنمك وبئس المصير . واني
 لكي أكرهك على فعل ذلك ، أبصق في وجهك .. يجب أن
 أجد حجماً أبدية لا ينطفيء سعيها ، ولا تحبؤ نيرانها ، كيما أستطيع
 أن أبخر فيها أبدية السخط التي احتوت عليها نفسي

وعند طلوع الفجر ، تلقت « ألبين » كاهن أنصينا في مدخل الصوامع . فقالت له :

- مرحباً بك أيها الأب الموقر في أخبية السلام . انك آت بلا شك لتبارك القديسة التي أعطينا إياها . أنت تعلم أن الله قد دعاها إليه . وكيف لا تعلم البشائر التي يحملها الملائكة من بادية الى بادية ؟ حقاً لقد دنت تاييس من نهايتها السعيدة ، فقد تمت أعمالها . وعليّ أن أخبرك بكلمات وجيزة عن سيرها في الزمن الذي قضته بيننا بعد رحيلك ، وكانت حبيسة الصومعة التي أغلقها بخاتمك ، أرسلت إليها مع طعامها نايّاً كالذي تضرب به الفتيات اللواتي يحترفن حرقها في الولائم والحفلات . فعلت ذلك لكيلا تشعبها الهموم وتكتئب . وكي تظهر أمام الله سبحانه من البراعة والمواهب ما لا يقل عما أظهرته أمام الناس . وقد أحسنت صنعاً وكنت صادقة الفراسة . لأن تاييس أخذت توقع يوماً على الناي مدائح « مخلص البشر » . وقالت العذارى اللاتي شاقهن أنغام الناي الحفي :

« انا نسمع عندليب الخنازل السماوية ، نسمع بجمعة يسوع المصلوب التي تحتضر » . كذلك قضت تاييس توبتها . وبعد ستين يوماً فتح الباب الذي ختمته من تلقاء نفسه ، وانكسر الختم الصلصالي من غير أن تمسه يد بشرية . فأدركت من هذه العلامة أن الله تعالى قد غفر للضاربة بالناي خطاياها . ومن ذلك الحين شاركت بناتي في

عيشهن فكانت تعمل وتصلي معهن . وصارت لهن قدوة صالحة بما في حركاتها وكلماتها من حشمة ووقار . وكانت بينهن مثال الخفر والعفاف . وفي بعض الأوقات ، كان يتقسمها الهم والشجن ، ويتناوبها الغم والحزن ، غير أن هذه السحب ما لبثت أن تقشعت ، ولما رأيت أنها شديدة التعلق بالله ، منقادة اليه بالايمان والأمل والحب ، لم أخف أن أستخدم قتها ، بله جهاها ، في تهذيب أخواتها . فدعوتها لتمثل أمامنا أعمال النساء الشهيرات . والعذارى العاقلات اللواتي ذكرهن الكتاب المقدس . فمثلت استير ودبورة ويهوديت ومريم أخت لعاذر ومريم أم يسوع . اني عالمة علم اليقين يا أبي الموقر بما ينال قداسك وورعك من جزع لذكرى تلك المشاهد التمثيلية . بيد أنك لو كنت رأيتهما في تلك المشاهد الصالحة تفجّر في عبراتها الصادقة ، وتمدّ ذراعيها كالسعف نحو السماء ، إذا لتأثرت أشدّ تأثر . سست النساء ورعيتهن زماناً طويلاً ، ومن مبدئي أن لا أقاوم طبيعتهن ، فليست كل البذور تنبت أزهاراً متشابهة ، وليست كل النفوس تطهر بوسيلة واحدة . ويجب أن نذكر أيضاً أن تاييس قد وهبت نفسها لله وهي لا تزال شائعة فاتنة في ريعان صباها . وأن تقدر مثل هذه التضحية ، التي ان لم تكن منقطعة النظير ، فهي بلا مرأ نادرة الحصول . هذه الملاحظة ، ثوبها الطبيعي ، لم تفارقها بعد ثلاثة أشهر من اصابتها بالحمى التي تكاد

تودي بها . وكانت اثناء مرضها تطلب بالحاح أن ترى السماء ، فأمرت بأن تنقل في كل صباح الى صحن الدير قرب البئر تحت شجرة التين القديمة ، التي في ظلها كانت رئيسات الدير يقمن محافلهن : ستجدها هناك الأب المحترم ، لكن خفت واسرع ، أن الله يدعوها اليه ، ولا تلبث أن تلبي الدعوة . وفي هذا المساء يغطي الكفن ذلك الحيا الذي فطره الله لافساد العالم واصلاحه . .

.

تعب بافانوس ألبين الى الساحة المغمورة بنور الصباح . وقد كوّن الحمام على طول السقف المتخذ من الآجر صفاً من اللآلئ ، وكانت تاييس راقدة على الفراش في ظل شجرة التين ، يغشاها بياض ناصع ، وقد تعارضت ذراعاها على صدرها ، ووقفت بجانبها ساء مقنّعات ، يرددن صلاة التزعم :

— ارصني يا الله كعظيم رحمتك مسب كثره رأفتك

امح معاصي !

فناداها :

— تاييس !

فرفعت جفניה ، وولت مقتلها البيضاوين صوب الصوت . فأشارت ألبين الى النساء المحجبات أن يتراجمن بضع خطوات

وكرر الراهب نداءه :

- تاييس !

فرفعت رأسها ، وخرج من بين شفتيها الباهتتين همس خافت :
 - هذا أنت يا أبي ؟ .. أتذكر ماء الينبوع ، والتمر الذي لما
 هزنا البنا المزع تساقط رطباً جنيماً ؟ .. في ذلك اليوم يا أبي ،
 ولدت للحب .. للحياة .

ثم انقطعت عن الكلام ، وعاد رأسها فسقط .
 دهمها الموت ، وكلَّ العرق البارد جبينها . ومزق جلال
 السكوت صوت يمامة نائمة .. ثم امتزجت تهديدات الراهب وزفرائه
 بمزامير العذارى

- اغسلني كثيراً من أئمني ومس فطبتني طهرني . لا لي
 عارف بمعاصي وفطبتني اماسي دائماً .

ثم جلست تاييس فجأة في فراشها ، وانفتحت عيناها
 البنفسجيتان ، وقالت وهي تحدق الى الأفق ، وقد مدت ذراعيها
 نحو التلال البعيدة :

- هوذا ورد فجر الصباح الأبدي !

لمت عيناها ، وصبغت حمرة خفيفة وجنتيها . وبدت أحلى
 وأجل مما كانت في أي وقت من الأوقات . فركم بافوس أماماها ،

فعاقةها بافانوس عناق اليأس والقنوط الأخير . وقد التهمت
عيناه باشتهاء .. وغل .. وحب ...

فزجرته ألين قائلة :

- إخساً يا لعين !

ووضعت أصابعها برفق على جفني المائنة . فتراجع بافانوس
وهو يرتجف ، وعيناه تشتعلان ، وأحس بالارض تسبخ وتنشق
تحت قدميه ..

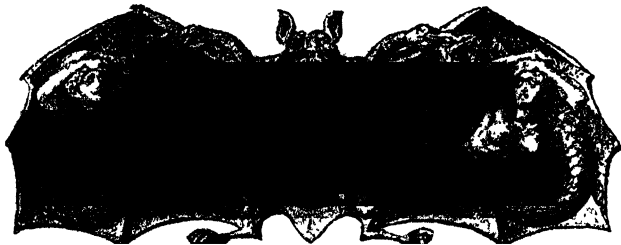
ثم رتل العذارى نشيد زكريا :

- تبارك الرب اله اسرائيل

وما لبثت أصواتهن أن انقطعت في حلوقهن ، إذ رأين وجه
الراهب ، فولين ، مذعورات ، صارخات :

- وطواط ! وطواط !

فقد حلت بافانوس نقمة ربه ، فسخطه ، فاستحال الى شخص
قبيح مروع ، حتى اذا ما مرَّ بيده على وجهه ، أحس بيشاعة خلقته



واحتضنها بين ذراعيه الأسمرين ، وصرخ بصوت بلغ من الغرابة مبلغاً أنكره هو نفسه :

— لا تموتي ! اني أحبك فلا تموتي ! اسمعيني يا حبيبتى تاييس .
لقد خدعتك ومكرت بك . وما كنت إلا معتوهاً شقياً . ان الله
والسموات ليست شيئاً مذكوراً . وما من شيء له وزن وهو حق
الإحياة الدنيا متاع السرور ، والألم الحب الجسدي . اني احبك !
فلا تموتي لا تدعني للنون ! ذلك يكون محالاً وامراً باطلاً . انك
جميلة فتانة آية الآيات . تعالي نتبادل الحب ونرشف كؤوسه . اصفي
لي يا حبيبتى واسمعي وقولى : « سأعيش لاني راغبة في العيش
سوف أحيانا اني أريد الحياة » . تاييس تاييس ارضى !
لم تسمعه . كانت عيناها تسبحان في اللانهاية ..
تمت .

— السماء تفتح . اني أرى الملائكة والأنبياء والقديسين ... في
وسطهم تيودور الصالح مملوء اليدين بالازهار . انه يبسم لي ويدعوني
اليه ... يأتي الي ملكان . هما يقتربان ... ما أجملهما ! ...
إني أرى الله .

تنهدت ابتهاجاً واقلب رأسها على الوسادة بغير حراك .
ماتت تاييس .

القَامُوسُ الْعَصْرِيُّ

انكليزي عربي

تأليف

الباس انطون الباس

﴿ الطبعة الثانية منقحة وموضحة بالصور ﴾

أن جميع المعاجم الانكليزية وعربية التي تقدمت « القاموس
العصري » لم يضعها مؤلفوها لفائدة طلاب اللغة الانكليزية من
الشرقيين ، بل وضعوها لطلاب اللغة العربية من المستشرقين ، ولذلك
تجدد يأتون بالكلمة الانكليزية فيذكروا أمامها من البيانات ما يفسر
أوضاع الترجمة العربية المقابلة لها وكيفية هجائها في حالاتها المتنوعة ،
وجمعها ومفرداتها ، الى غير ذلك مما لا فائدة منه مطلقاً للطلاب الشرقيين .
وأول معجم وضع خصيصاً للشرقيين هو « القاموس المصري »
ويطول بنا الشرح اذا ذكرنا كل مميزات هذا المعجم ، واننا ننصح

فهرس



لكل من لم يطلع عليه للآن ، مكتفياً بما عنده من القواميس العتيقة
أن يبادر الى أقرب مكتبة ويفحصه بنفسه فيرى حقيقة ما ذكرنا ،
ويرى الفائدة التي ينالها من اقتنائه

وفد قررته وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغا
الإنكليزية والترجمة في كل فصل من فصول مدارسها الثانوية في
القطر المصري ، وذلك بخطاب تاريخه مايو سنة ١٩١٤ رقم ٧٧
ثمنه ٥٠ قرشاً

والطبعة الثانية تمتاز بما لا يقاس عن الطبعة الأولى

القاموس الملائم

انجليزي وعربي وبالعكس

وقد قررته وزارة المعارف — وثمنه ٥٠ قرشاً

